مدونـــــة رفايــــع

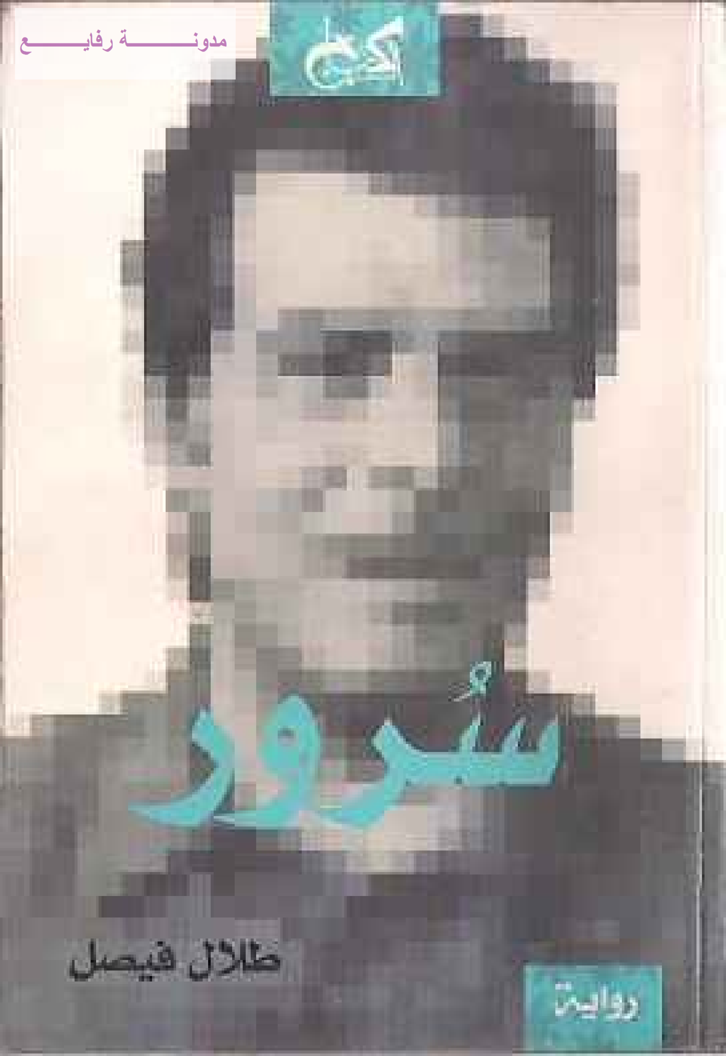

سرور

طلال فيصل

رواية

ســـــرور
روايـــــة
الطبعة الأولى: ٢٠١٣
رقم الإيداع: ٢٧٦٨/٢٠١٣
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٣٠٦-٢٣-٣
الغـــــلاف: حاتم سليمان
إشراف النشر: سمير مندى
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤- دجلة - المعادى - ١١٤٣٢ - القاهرة.
تليفـــون: +٢٠٢٢٢٥١٩٦٥٦٩ - +٢٠٢٢٢٥١٧٠٦٧٨
بريد اليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع اليكتروني: www.kotobkhan.com

سرور

رواية

طلال فيصل

مدونـــــــة رفايـــــع

لا تَظلِمُوا المَوتى وإن طَالَ المَدى ... إنّي أخافُ عليكمُو أن تَلتَقُوا

* * *

يَرتَجِـي النّـاسُ أن يقـومَ إمـامٌ ... ناطـقٌ في الكتيبةِ الخَـرسَـاءِ

أبو العلاء المعري

برولــوج

١٩٧٨ - ∞

مدونـــــــة رفايـــــع

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الدكتور / وكيل أول وزارة الصحة

تحية طيبة وبعد،

مُقدمه لسيادتكم الشاعر نجيب سرور، حيث أني أعاني من أمراض باطنية ومشاكل في الكبد تسببت في أورام مؤلمة في البطن والساقين، وحيث أنني ترددت على كثير من الأطباء دون جدوى وتعجز إمكانياتي عن استكمال العلاج في العيادات الخاصة، فأرجو من سيادتكم التكرم بالموافقة على دخولي المستشفى المناسب لعلاجي وتحديد الطبيب المختص.

وتفضلوا بقبول فائق الشكر والاحترام

مُقدمه

نجيب سرور

٢٤ / ٥ / ١٩٧٨

الكتيبة الخرساء :

أمّا نحنُ فنقولُ، من موقعِنا هذا، يبدُو كلّ شيء مُكررا، مُكررا لدرجةٍ قد تدعُو للملل، أو تدعُو للرثاءِ، أو تدعُو لكليهما، أو تُطمئن قلوبَنا - ونحن في نهاية الأمر بشر قد تساورنا الشكوك، تُطمئن قلوبنا لسلامة ما اعتقدناه في سيّدنا، زعيمنا، الضريرِ الذي يرى ما لا نرى، ويعرفُ ما لانعرفُ؛ وهو الذي كان مُشترَطَه علينا من أول يومٍ أنه لا يُسأل، فإن سُئل تعيّن ألا يُجيب، فإن أجاب ففرضٌ على السامع ألا يسمعَ منهُ، فإن خالف باستماعه ففريضةٌ ألا يكتب ما يقول، فإن كتبه فواجبٌ ألا ينظر فيه، فإن نظر فيه فقد خبَط خبط عشواء.

أما نحنُ فنقفُ هنا على الحافة، ونقولُ، أننا قد نشاهدُ، وقد نفسرُ، وقد نتيقنُ وقد نستخلصُ العبَر، وليس لنا في آخر الأمر غير الانتظار، وترقّب اللحظة المناسبة للأمر النافذ، وملء السواكن بمراقبة ما يجري، على تكراره وإملاله، ولا شيء لنا غير ذلك.

وأمّا نحن فنقول، أن الأمر على سآمته و إملاله لم يكن يخلو من طرافة، وأنه لم يكن يخلو من بُرهات دَهَشٍ قادرةٍ على تبديد بلادة تلك التجربة الآدمية الفقيرة، المتكررة، نضربُ منها مثلاً؛ منظر ذلك الشاعر وهو يجوب طرقات مدينة عُرفت في زمنها بالقاهرة بملابس الشحاذين الممزقة، ومنها نظرةُ وغَرٍ تسنحُ في عين أخيه لحظة دفنه، ومنها زوجته الروسية وهي قادمة من أقصى المدينة تسعى. ولكن، لماذا نضربُ الأمثال؟ وما جدوى ذلك الشرح إذا كان قد ضُرب بيننا سورٌ وبين من يشترط فيهم تعلم الحكمة من ضرب الأمثال، ليس لنا أن نحادثهم من وراء حجاب، وليس لنا أن نفتح لهم إذا طرقوا بابَنا المصمتَ علينا إلا بمعرفةِ رئيسنا، شيخِنا الضريرِ، وإذنِه.

وأمّا عمّن طرقوا الباب ولم يؤذن لهم بالدخول فليسوا بالكثير، ولكنّا لا نزال نذكر منهم آحادا كان سعيهم مثار تأمل، وكانت خطوتهم واسعة غير أنها لم تُفضِ إلى شيء؛ يلوحُ في الخاطر، ونحن نتذكر، منهم؛ أمرُ جلال الساعي وما هو ببعيد، ولا نزال نذكر ابتسامة شيخنا الضرير ونحن نقصّ عليه ما كان منهُ في ذلك اليوم، من العام الثمانين بعد ألف وتسعمائة من ميلاد السيد المسيح، حين جرت المشيئةُ أن يلتقي بساشا، زوجة الراحل، على باب مستشفى الحسين، في تلك القاهرة البعيدة...

هناك قال جلال الساعي في نفسه:

"أنا الموعود به، بنجيب سرور، من أول يوم ... أسافر وأعود ويكون هو في انتظاري ... حيا أو ميتا يكون في انتظاري ... نجما مشهورا أو متشردا بثياب ممزقة أو حبيسا في مستشفى العباسية يكون في انتظاري ... وها هو الآن ... مجرد ذكرى تطوف بنا ... نتحسر عليه ونقرأ له الفاتحة ونهز رؤوسنا تأثرا بالدراما التراجيدية التي خلقها ذلك الرجل الفذ حول نفسه ... حيا وميتا."

يتبسمُ شيخُنا ولا يعلق؛ على معرفتِه بتعاطفنا مع الرجل، والذي نستمعُ له وهو يواصل بينه وبين نفسه:

"كم من الأعوام مرت يا ترى منذ ذلك اللقاء، عند عودتي من تكليفي بالوحدة الصحية بالصعيد للمرة الأولى لأستلم عملي بمستشفى العباسية منتصف عام ١٩٦٩؛ لأراه على تلك الصورة العجيبة التي رأيته عليها ولن أنساها ما حييت. وها أنا الآن أعود من فرنسا - بعد منحة استمرت عاما في المصحة النفسية بباريس لأجدها أمامي على باب مستشفى الحسين الجامعي ... عرفتُها من أول نظرة رغم أنها كبرت كثيرا (ولم أكن قد رأيتها منذ أعوام حين كانت تقوم برعاية العظيم الراحل في تلك الفترة التي قضاها في مصحة المعمورة بالإسكندرية عند كمال الفوال) تبدو ملامحها الأوروبية كالنغمة النشاز

مدونـــــــة رفايــــــع

وأمّا نحن فنقول، أن الأمر على سآمته و إملاله لم يكن يخلو من طرافة، وأنه لم يكن يخلو من بُرهات دَهَشٍ قادرةٍ على تبديد بلادة تلك التجربة الآدمية الفقيرة، المتكررة، نضربُ منها مثلاً؛ منظر ذلك الشاعر وهو يجوب طرقات مدينة عُرفت في زمنها بالقاهرة بملابس الشحاذين الممزقة، ومنها نظرةُ وغَرٍ تسنحُ في عين أخيه لحظة دفنه، ومنها زوجته الروسية وهي قادمة من أقصى المدينة تسعى. ولكن، لماذا نضربُ الأمثال؟ وما جدوى ذلك الشرح إذا كان قد ضُرب بيننا سورٌ وبين من يشترط فيهم تعلم الحكمة من ضرب الأمثال، ليس لنا أن نحادثهم من وراء حجاب، وليس لنا أن نفتح لهم إذا طرقوا بابَنا المصمتَ علينا إلا بمعرفةِ رئيسنا، شيخِنا الضريرِ، وإذنِه.

وأمّا عمّن طرقوا الباب ولم يؤذن لهم بالدخول فليسوا بالكثير، ولكنّا لا نزال نذكر منهم آحادا كان سعيهم مثار تأمل، وكانت خطوتهم واسعة غير أنها لم تُفضِ إلى شيء؛ يلوحُ في الخاطر، ونحن نتذكر، منهم؛ أمرُ جلال الساعي وما هو ببعيد، ولا نزال نذكر ابتسامة شيخنا الضرير ونحن نقصّ عليه ما كان منهُ في ذلك اليوم، من العام الثمانين بعد ألف وتسعمائة من ميلاد السيد المسيح، حين جرت المشيئةُ أن يلتقي بساشا، زوجة الراحل، على باب مستشفى الحسين، في تلك القاهرة البعيدة...

هناك قال جلال الساعي في نفسه:

"مات نجيب سرور. ليرحم الله الشاعر المبدع والخالد. طالما خطر في بالي أنه لن يتبقى مني إلا شهادتي عن حكايته ... أني رأيته وعرفته وصاحبته (وهل أقول عالجته؟) وهاهي الدائرة تنغلق على نفسها ... ها هي الأسطورة تكتمل ... سيستدعونني للحوارات الصحفية والإذاعية والتلفزيونية لأتحدث عنه باعتباري صديقه القديم وطبيبه المعالج ... لكن ليس من سمع كمن رأى. الأستاذ مات ليعبر نحو الخلود الذي يستحقه ... أما أنا فسأبقى هنا أحكي عنه لعل أحدا يرغب في معرفة الحكاية ... ربما كان كل ما فات من حياتي من طب نفسي وسفر وشهادات وادعاء للكتابة ليس إلا تدريبا على هذه المهمة المقدسة ..."

المهمة المقدسة! وتوشك ابتسامة مولانا الضرير أن تنقلب ضحكا صريحا..

ويشدّ على يدها مصافحا، شاعرا – يا لطرافته – بلذعة الحزن المريرة:

- I am sorry Sasha

فتهز رأسها في أسى، ثم تشير لأعلى:

- نجيب مات هنا ... في الدور السادس ... أودة ٦١٢. الله يرحمه يا نجيب.

تصمت قليلا ثم تفتح ملفا في يدها وتقول :

- طيب، دلوقت أنا عاوزة كنت تقرير كدا عن حالة نجيب ... عشان التأمين وورق تاني وكدا وكدا.

وتتنهد في صوت واضح مسموع ... ويبدو واضحا مدى المجهود الذي تبذله في الكلام:

- مصريين كله كله نصابين... ثمة عاوز الرشوة ومش يشتغل ... يقولوا تعالا هنا ونروح هنا ونيجي بعدين ... أنا مش فاهم منه حاجة أبدا.

وأمّا نحنُ، ففي مسيرِنا سعيًا إلى الإرساء، وأما جلال الساعي فيُطرِقُ - مُبصرا في نفسه ما ليس فيها - مُتفكرا:

"أتأمل هذه السيدة التي كانت (ولا زالت) مثالا مدهشا للوفاء ... هذه السيدة التي أثرت فيّ تأثيرا بالغا ربما هي نفسها لا تدركه... أفكرُ؛ هل هي وفية لأنه طبعها أم هو إدراكها لعظمة الراحل، ذلك الذي لم يقترب منه أحد ولا رعاه أحد كما فعلت هي. يطوف ببالي

أنني ربما لم أتزوج حتى الآن لأني أبحث عن زوجة مثلها، بينما أنا لست بعظمة الشاعر الذي رحل. أفترض - مجرد افتراض جدلي أدرك استحالة تحققه - أني لو كنت عظيماً مثل نجيب سرور، فهل كنت سأجد امرأة وفيّة لي بهذا القدر. أتناول منها الملف وأنا أفكر ... هل دار بذهنها قط - وهي طالبة آداب في الاتحاد السوفيتي تأمل في مستقبل مشرق - ما ستنتهي إليها حياتها بعد ذلك ... هل كان يمكنها أن تتصور أنها ستجد نفسها عام ثمانين في مصر، بأهرامها بحرارتها بزحامها بموظفيها برشاويها تسعى بين موظفي مستشفى الحسين الجامعي لتختم الأوراق الطبية لزوجها المتوفى. ألقي نظرة على شهادة الوفاة ... وتلك العبارة المميزة التي تكتب على شهادات الوفاة المصرية:

"تُعطى مجانا للمرة الأولى"

الاسم ... السن ... يثير شجوني أن علامة الوظيفة أمامها علامة شَرطة ... مجرد شرطة ... لا أكثر، أما تشخيص الوفاة - أو كما تُكتب هنا في مصر: السبب المباشر:

"فشل في الكبد. غيبوبة أمونيا كبدية"

فشل في وظائف الكبد ... التعاطي المزمن للكحول ... حتى تشخيص وفاتك يا أستاذي تأبى إلا أن يكون موحيا ...دراميا ومؤثرا ... مثلما كانت كافة فصول سيرة حياتك القصيرة.

أتذكر بيته الشعري في قصيدته الممنوعة: الأميات:

"أنا عارف اني حاموت موتة ما ماتها حد"

ولا أجد إلا أن أقول لها:

– تمام يا مدام ساشا ، أظن أن هذه هي الأوراق المطلوبة. دعيها لي وأنا سأقوم باللازم.

وأقول في محاولة لتغيير جو الحوار(بالإضافة لفضول حقيقي لمعرفة ما حدث له ولها أثناء سفري)

– والآن، هل تمانعين في فنجان قهوة. هُنا جنبنا في الحسين، لأعرف ما جرى لكم في غيابي"

وأمّا الحكايةُ، ففيها ذلك، وفيها غيرُ ذلك، ولكن ليس لنا أمام نُوب الأيام وسراياها المنبثّة غير الصمت، فتدبّر.

الجزء الأول :

١٩٣٢ - ٢٠١٠

ســاشــا

(١)

أُغلقُ السماعة. أرجو من كل قلبي ألا يكون مجرد نصاب مثل سابقيه.

لا أؤمن بشيء كما أؤمن أن نجيب لم يأخذ حقه حتى الآن، ولا أعرف ما الذي يمكنني فعله. كلما اتصل بي صحفيّ أو آخر تجدد الأمل في أن يقوم بتحقيق ما عجزت عنه، ثم ينتهي الأمر بمحاولات خداع ونصب بلا تقديم أي شيء. وهاهو اتصال جديد، وهاهو الأمل يتجدد مرة أخرى. يبدو من نبرة صوت ذلك الصحفي أنه صغير السن، إنجليزيته جيدة ويتكلم بطريقة مهذبة وخجولة، يقول إنه يريد أن يجري حوارا حول نجيب سرور، والفترة التي قضاها في مستشفى العباسية للأمراض النفسية. أتوقف أمام اختياره للموضوع، مستشفى الأمراض

مدونـــــــة رفايــــــع

النفسية، تصدمني الكلمة قليلا، إنه يعني تلك الشهور، النصف الثاني من ١٩٦٩، لمَ هذه الفترة بالذات؟ أسأله بوضوح:

- هل تعتقد أن نجيب سرور كان مجنونا؟

يتلعثم في البداية، يقول كلاما مرتبكا ثم يتدفق مُتحدثا بحرارة عن رؤيته للمرض النفسي وعن علاقته بالإبداع، يتحدث عن العبقرية وعن الجنون، أشعر بارتياح حين يضرب مثلا بجوجول، يزداد اطمئناني حين يردد نفس العبارة التي سمعتُها من دكتور جلال الساعي ذات مرة بعد وفاة نجيب، عندما التقينا مصادفة في الحسين عام ثمانين:

- مريض الاسكيزوفرينيا يا ساشا لا يكتب مسرحيات، مريض الاسكيزوفرينيا لا يستطيع تخيل عمل قائم على البناء المعقد مثل الذي كان يعتمده نجيب سرور في أعماله المسرحية!

حسنا، أنا لم أكن في مصر وقتها، ولكني لا أرى مانعا من أن نلتقي. أسأله عن المكان فيقترح أن نجلس في مقهى ريش. لم أعد أطيق رؤية ذلك المكان، في الأول رأيت فيه نجيب ساهما شاردا أو مندفعا متشاجرا مع المثقفين الذين لم يكن يطيقهم، وفي الآخر جلست فيه مع المصريين النصابين الذي لم يكن يعنيهم سوى التجارة بنجيب وكتبه بعد موته. أقترحُ عليه أتيليه القاهرة، لا يبدو أنه يعرفه لكنه يرد مؤكدا أنه

سيجيء في الموعد بالمضبوط. لما تشوف، يمكن يكون فيه مصري مواعيده مضبوط.

أرجوك، لا تكُن نصابا أيها الصحفي الشاب. أرجوك، حاول أن ترد للغائب العظيم حقه الضائع.

(٢)

سأذكر لك التواريخ بالضبط، فحاول أن تدون ورائي بدقة. أرجوك.

أتيتُ مصر مرتين، الأولى بعد تسعة أيام من وفاة عبدالناصر، والثانية بعد تسعة أيام من وفاة نجيب سرور. تزوجنا ٢٣ مايو ١٩٦١، وولد شهدي ١٢ يناير ١٩٦٢، ثم سافر هو إلى المجر ومنها إلى مصر ١٧ فبراير ١٩٦٣ ... حسنا. لن أثقل عليك بالتواريخ في لقائنا الأول. سأترك ذلك للوقت، وسأحكي لك الحكاية من أولها.

حين يقدمونني يقولون: مدام ساشا، زوجة نجيب سرور، ثم يضيفون - متصورين بذلك أنهم أكثر دقة - زوجته الروسية؛ عندها أشعر برغبة في الضحك. كم أنهم لا يفهمون شيئا. وهل تزوج نجيب غيري أصلا حتى يضيفوا هذه الإضافة البلهاء. منذ وقعت عيني عليه

أول مرة - في كلية الآداب واللغات بموسكو، عرفت أنه قدري، إنه بالضبط نفس الشعور الذي وجدته بعدها وأنا ألقي أول نظرة على شُهدي ابني بعد ولادته في موسكو، شعور الحب، الفرحة، وشعور بالرغبة في احتضانه و البكاء من أجله. شعور بفداحة المسؤولية التي تدرك أنها ألقيت على كتفيك وتدرك كذلك أنه، خلاص، لم يعد بوسعك التنصل منها. نجيب كان ابني، ذلك الفارس الأسمر النبيل الذي جاء بالخطأ إلى هذا العالم، الرجل الرقيق الذي لم يكن يكف عن الشجار والاصطدام. يقولون، لو كان نجيب أقل اصطداما بالآخرين لكانت حياته مضت أكثر سلاسة وانتظاما، ويقولون، لو لم يدمن الخمر لأنقذ نفسه من تدمير نفسه. يقولون ويقولون، وأسمع أنا هذا الهراء فلا أملك إلا أن أضحك. كل الذين يكتبون ويتكلمون ويتحدثون عنه في البرامج والصحف، كلهم، كلهم لا يعرفون من هو نجيب سرور. بينما أنا، أنا التي لم أعرف شيئا قدر ما عرفت هذا الرجل، يمنعني عجزي عن اللغة العربية أن أتكلم، وأن أقول للناس ما حدث.

ثم يأتي هذا الصبي، ويتصل بي تليفونيا، ويطلب مني بكل بساطة أن أحكي له ما حدث، لأنه يكتب كتابا عن نجيب سرور، وعن الفترة التي قضاها في مستشفيات الأمراض العقلية!

(٣)

كان الجميع يندهشون من تصرفاته الغريبة، إلا أنا، لم أندهش أبدا، ربما هذا كان يقول لي (ترى هل كان سعيدا بذلك؟) "أنت الوحيدة التي تفهمينني في هذا العالم يا ساشا."

أتذكر حينما ضرب ذلك الضابط في موسكو أثناء البعثة وبات ليلتها في الحجز، رأيته عند خروجه – ولم نكن قد تزوجنا بعد – بمجرد رؤيتي نكس رأسه مثل طفل صغير، احتضنته وهو على وشك البكاء ليهمس لي:

– لم أكن أعرف أن كل ذلك سوف يحدث...

لكني أنا كنت أعرف، منذ عرفته وأنا أعرف أن كل ذلك سوف يحدث، فما الذي تريدني أن أحكيه لك بالضبط أيها الصحفي المصري القادم من المجهول؟

قضينا عامين تقريبا في الاتحاد السوفيتي، في شبه استقرار، رغم المشاكل التي كانت تحدث بينه وبين زملاء بعثته وصداماته السياسية التي كلفته فيها "الرغبة في إثبات الموقف" الكثير. ثم انتقل للمجر بعد فرصة العمل التي أتيحت له هناك بالإذاعة – فضلا عن عدم شعوره بجدوى الاستمرار في الدراسة؛ وكان قد تجاوز بموهبته الاستثنائية كل المدرسين والأساتذة ولم يعد لديهم ما يقدمونه له. هذه هي مشكلة نجيب الأزلية، يفهم كل شيء بسرعة، يرى ما لايراه الآخرون، يدرك الحقيقة مبكرا ثم يجد نفسه وحيدا في عزلة إدراكِهِ تلك. ذهب ليعيش في المجر عدة شهور – هي من أسوأ أيام حياته، وأخذ الحاقدون يتآمرون عليه غيرة من موهبته وحقدا على التطوير الذي بدأ يحققه في الإذاعة العربية هناك، ثم تم ترحيله منها بعد ذلك إلى مصر – عندها، قال لي انتظريني، سوف أعود، وصدقتُه. أين كان سيذهب مني وأين كنت سأذهب منه؟ ألم يكن يقول دوما إني مثل إيزيس، ألم يكتب لي قصيدته "مرحبا أيها الفرح" والتي أحفظها كما ترجمها لي بالروسية، وأعرف عن ظهر قلب طريقة رسم حروفها بالعربية (أخذها مني ذلك الدكتور النصاب في معهد الفنون المسرحية بزعم أنه سيصورها ضمن أوراق أخرى، ولم يكتب البحث المزعوم ولم يُعدها لي، طبعا، حتى الآن)

عبرتُ ألفَ بحرٍ، ألفَ صحراءٍ وجئتُ

أوغلتُ في الثلوجِ، في الصخورِ، في الوحولِ خضتُ

تمزقَ الشراعُ والجناحُ والذراعُ جفّ

لكنني أتيتُ

يا واحتي على الظمأ

من رُبعِ قرن

يا فرحتي من بَعدِ حزنِ ربعِ قرن.

نعم، أنا كنت فرحته من بعد حزن ربع قرن، من بعد قريته الكئيبة و أبيه المتسلط وأخيه الحقود وعمدة قريته الظالم وعبدالناصر الذي خذله والمخابرات، التي لم تتوقف عن ملاحقته، وزملائه الذين تركوه ليُلقى به في مستشفى المجانين (أو المجاذيب كما كان يقول) فيردد كما كان يردد ساخرا: *يا معرصين اختشوا مجاذيب وفيها نجيب*.

الله يرحمه يا نجيب؛ مشكلتك الوحيدة أنك كنت نبيا شاءت السماء أن ينزل وسط مجموعة من الأوغاد.

(٤)

حين وصلتني الأخبار أنه تزوج من ممثلة مصرية ضحكتُ. صحيح أنه لم يسأل عني، ولا عن شهدي، طوال تلك الفترة، لكني كنت أعرف أن غيبته مجرد إجراء مؤقت، وأن زواجه هذا لن يستمر. يقولون أنه كان نجما لامعا وقتها - في منتصف الستينات، راديو وتلفزيون ومسرح، ولكني لم أشاهد شيئا من ذلك. شاهدته فقط وهو مسكين، شاهدته فقط مثلما كان يقول، أوزوريس الذي ينتظر إيزيس لتجمع أشلاءه. على كل حال، لم تكن أيامه السعيدة طويلة فقد اصطدم أكثر من مرة بأجهزة الأمن ثم تعرض لتلك المؤامرة وأدخلوه مستشفى العباسية وخرج منها بمعجزة، ولولا أبوه والدكتور جلال الساعي ما كان ليخرج ا وقتها، عرفت من المصريين في موسكو أنه في أزمة فأبرقتُ إليه بقدومي، هل كان هناك أي احتمال آخر؟!

يا ربي، كم قضينا أوقاتا صعبة بعد مجيئي إلى مصر للمرة الأولى أكتوبر ٧٠، تنقلنا من مكان لمكان ثم قضينا تلك الشهور السوداء في

قريته وسط الفلاحين، والذين لم أصدق في البداية أنهم أهله. عندما تشاهد نجيب وهو يمثل (دعنا من مسرحياته العظيمة، تفرج عليه في فيلم بسيط مثل "الحلوة عزيزة" مع تلك الممثلة البيضاء هند رستم، ستندهش من هذا الأمير النبيل، والذي استطاع بعبقريته، رغم صغر مساحة الدور، أن يسرق الكاميرا من شكري سرحان، ثقيل الدم، والذي لا أفهم كيف كانت الناس تعتبره جان السينما أيامها) تأمّل تمثيل نجيب، هذا الأسمر الوسيم الشبيه بأبطال الملاحم، وحاول أن تفهم كيف جاء من هذه الأسرة المزعجة والقرية الغارقة في الطين وأهلها، بطريقتهم في الشجار ونكاتهم البذيئة وأسلوبهم المقرف، يستحيل، كيف أتى نجيب من بين هؤلاء!

كانت الظروف في القاهرة بالغة القسوة، هو بلا عمل والأبواب جميعها مغلقة أمامه. ثم كان انتقالنا للإسكندرية بعد حرب أكتوبر، واستقرارنا هناك. كان يترك الشقة وينزل لمقهى "علي كيفك" في المنشية بملابس ممزقة وشبشب. كان يضحك مع الناس ويُضحكهم ويرقص وسطهم، لم يكن يطيق الحياة بعيدا عن الناس أو التصفيق، وكأنّه كان يرد على الذين منعوه من التمثيل بأن جعل من الشارع خشبة هائلة لمسرحه المتنقل وموهبته الطاغية، يا إلهي كم كانت موهبته طاغية! كان يخرج من "علي كيفك" وحوله مظاهرة صغيرة من المتفرجين رواد

مسرح، يمسك الشبشب ويلقي به على صورة مرسومة في الشارع للسادات، الذي باع مصر لليهود، ثم يعود لي آخر الليل مرتديا "لية" خروف - لم أستطع أبدا أن أعرف من أين كان يجيء بها، يا ترى.

***

هل كانت مشيرة محسن ستتنزل لتحضره من قسم المنشية وهو يحمل لية الخروف ويرقص بها في الشوارع؟ هذه التي يقولون إنه تزوجها لم تره إلا نجما مسرحيا لامعا في مصر الستينات، سينما، كتب، مسلسلات إذاعية، تأليف وأشعار وإخراج، أما نجيب الضعيف والعاجز، نجيب الذي يحتاج من يعطيه الدواء ويحتمل صراخه وآلامه، من كان يمكن أن يفعل ذلك غير واحدة تعرف مسبقا ما يفعل، واحدة مثلي لا تندهش من تصرفاته، من كان سيحتمل ذلك غير ساشا...

مدونـــــــــة رفايـــــــع

(٥)

دعني أوضح لك شيئا؛ كل ما يقال عن نجيب غلط. الناس لا تعرف عن نجيب للأسف سوى تلك القصيدة - أميات، ثم بعض الفضائح والشتائم. كل الحكايات الشائعة عنه هي مجرد أوهام في ذهن أعدائه أو أصدقائه على السواء. أولا: حكاية إدمانه للخمر. أنا روسية. من بلد الخمر، وأنا أكثر من يمكن أن يحكم على درجة إدمان الرجل للكحول. أتذكر أيامنا الأولى في روسيا ونفوره من الخمور ومن رائحتها (وأتذكر وقتها زميلاتي في الجامعة اللاتي كنّ يحسدنني على هذا العريس اللقطة الذي لا يشرب) وحين بدأ الشرب بعد ذلك لم يكن يقرب الكحول الثقيلة كالفودكا أوالكونياك، لم يجرب سوى البيرة وكان يشربها على مضض، تُرى هل لاحظ هؤلاء الذين يُؤلفون من دماغهم أنه كان يطلب البيرة دائماً، لكن الزجاجة الوحيدة تبقى غالباً أمامه طوال الوقت، لم يكن نجيب يكثر الشراب أبدا لكنه كان يعتبر نفسه سكرانا ويحرص أن يصل هذا الاعتقاد للناس من حوله. أبدا، لم يشذّ عن تلك القاعدة ويشرب كثيراً - فعليا - إلا مرات نادرة ولكن كما

يقول المصريون: كله قسمة ونصيب. وقيل كذلك إنه مجنون؛ ماذا يعرفون هم عن الجنون وعن معاشرة المجانين؟ ماذا يعرفون عن الكتابة وعن العبقرية؟ ماذا قرأوا لدستويفسكي وجوجول وما الذي يفهمونه من كلمة شيزوفرينيا؟ (والتي ينطقونها بتلك الطريقة المصرية المتخلفة وحين أن تحاول أن تصحح لهم طريقة نطقها: اسكيزوفرينيا، ينظرون لبعضهم البعض سخرية منك - كأنني مجنونة، ويكتمون ضحكاتهم) أتذكر اليوم الذي ذهبت فيه لأزور نجيب في مستشفى المعمورة بالإسكندرية، حيث كان الدكتور كمال فوال قد استضافه هناك وتكفل برعايته. كانت أحوال نجيب الصحية والنفسية قد تحسنت جدا في تلك الفترة. أتذكر، كان معي فريد يومها. (يا ربي كم كان فريد طفلا جميلا وقتها بشعره الأصفر الناعم وخدوده الحمراء الممتلئة) أخذ نجيب يلعب معه ويحدثني عن مسرحيته الجديدة "منين أجيب ناس" التي كان قد انتهى منها لتوّه، كتبها في أسبوعين فحسب. قرأ لي منها مشهدا عبقريا لنعيمة مع الساحرات (والتي قال لي أنها مُستوحاة مني) ثم قال لي بنظرة ماكرة:

- انتظري يا ساشا، سأريك شيئا.

وعدل وضع الكومودينو، انتزع الدرج الأخير وقلبه، فوجئت:

- نجيب، إيه ده؟

كانت أكوامٌ من أقراص الدواء تقبع في قاع درج الكومودينو، سألته:

- نجيب دا الدوا بتاعك.؟

وكأني أسمعه في هذه اللحظة، بنفس نبرة صوته المميزة، الله يرحمه، وهو يقول لي:

- ساشا ، أنا لست مجنونا لآخذ الدواء، من ستة شهور لا آخذه ولم يحدث شيء.

ثم يرفع رزمة الأوراق عاليا وهو يصيح:

- المجانين لا يمكنهم كتابة المسرحيات يا ساشا..

ثم يضيف بوهن:

- الدكتور الحمار الذي يُدعى عبد السلام محسن قام بتشخيص حالتي في العباسية عام ١٩٦٩ على اعتبار أني مريض فصام، ولم ينقذني من أنيابهم سوى صديقي جلال الساعي. كيف يكتب مريض فصام مسرحية؟ كيف يكتب عملا نقديا؟ كيف يقف ليقدم تصورا بصريا وحركيا، ميزانسين، لرواية؟ مريض الفصام لا يمكنه التركيب ولا رؤية العلاقات الداخلية، لكن ماذا نقول، حمار ومصمم أنه دكتور. حتى الدكتور كمال الفوّال، يظن أنه يفهم حالتي وأنه يعالجني. لكنه على كل حال أرحم من سواه. أنا لست مريضا، لست مجنونا يا ساشا. صديقي جلال الساعي أكّد لي ذلك....

(٦)

هكذا كانت طريقته في الكلام. كان أشد ما يزعجه ويثير أعصابه أن يتطوع للإفتاء أولئك الذين لا يفهمون شيئا. بالذات أولئك الذين يتكلمون في الفن دون أن يكون لهم علاقة به. كنت أراه منفعلا أشد الانفعال على مقالة صحفية أو مشهد مسرحي رديء، وأحيانا لم أكن أفهم كلامه بالضبط لكني كنت أحس به وأتألم من أجله وأضحك من عباراته الساخرة الذكية. كانت فترة بقائه في مصحة المعمورة هي الأفضل والأكثر استقرارا.

ثم كانت عودتنا للقاهرة عام ١٩٧٥.

عاد هو للتدريس – المهنة التي يعشقها قدر ما يعشق الكتابة والتمثيل – في المعهد العالي للفنون المسرحية ثم ما لبث رشاد رشدي أن طرده من وظيفته ثانية لأنه شيوعي؛ Red person، ثم طُردتُ أنا أيضا من عملي كمُدرسة للغة الإنجليزية في تلك المدرسة الحقيرة (والتي لم أكن أرضى بالعمل بها سوى لحاجتنا للنقود) كنا نقضي الأيام وليس في البيت قرش

واحد، نتعرض لزعيق صاحب البيت ووقاحة البقال وصراخ فريد من الجوع (ثم مرض شهدي بعد ذلك بالسل ولكن ربنا ستر، الحمدلله) تنقلنا بين أكثر من بيت: كان آخرها الإقامة مع مراد، ذلك الطالب الليبي العاشق لنجيب سرور، ثم ما لبث أن انتزعنا جزءا من ميراث نجيب دبر لنا به عبده جبير الحصول على شقة الجيزة. لم يكن هناك مصدر للدخل وكان نجيب يسب ويلعن مائة مرة قبل أن ينزل لتسجيل حلقة إذاعية لا يحبها ولكن يضطر إليها ليشتري لفريد الصغير زجاجة حليب، وحتى بعد أن يرضع ويذهب كان يعود متأخرا بعد أن يكون قد ذهب إلى مقهى ريش حيث المثقفين المصريين المدعين، وهو يجلس إما مع أمل دنقل الممتلئ بالحقد أو نجيب محفوظ المتعب — كما كان نجيب نفسه يصفه — أو فؤاد نجم الذي لا يفعل شيئا في حياته سوى شرب الحشيش.

❊❊❊

قالوا عنه إنه كان مقاتلا، ليته كان مقاتلا ليتوقف عن الشرب بالطريقة التي قصفت عمره بدري قبل الأوان. لو كان نجيب يشرب الحشيش مثلا مثل ذلك الشيطان المدعو فؤاد نجم، بدلا من الخمر التي فتكت به، ربما كان زمانه عايش بيننا الآن، لكن كله مقدر ومكتوب، كله قسمة ونصيب...

(٧)

لم أشعر أنني فقدته إلا لحظة دخلت عليه مستشفى الحسين ووجدته يتكلم مع الطبيب هناك. هناك شيء ما لم يعد موجودا. نجيب لا يكلم أحدا - طبيبا أو غير طبيب - بهذا الانكسار. يستفسر من الطبيب عن أشياء ما. لا يرد بسخرية ولا يتهكم ولا يلقي ملاحظاته، تلك الملاحظات الذكية التي تجعلك تحبه بمجرد أن تجلس معه. لم يكن هذا نجيب الذي التقيت به ربيع ١٩٥٩ في موسكو، كان مجرد أشلاء، فهمت ساعتها لماذا قرأ لي يومها ذلك المشهد من "منين أجيب ناس" حيث نعيمة تحاول جمع أجزاء حسن، وحسن هو أوزوريس، وأوزوريس هو النبي نجيب سرور الذي لم يحتمله المصريون بينهم فقرروا قتله والمشي في جنازته.

ثم لم يكن هناك مفر. عام ١٩٧٨، كان لا بد أن أعود بشهدي وفريد لروسيا، حتى يلحق شهدي المدرسة الثانوية هناك، كنت أعرف أني أتركه في أيد غير أمينة، انشق قلبي لحظة خروجي من المطار ولكني لم

مدونـــــــــة رفايــــــع

أتوقع أن أتلقى خبر وفاته بهذه السرعة، أن أعيش من أجله عمري كله ثم يموت هو بين يدي ثروت!

عدت إلى مصر يوم ٢ نوفمبر ١٩٧٨، بعد خمسة شهور من سفري لروسيا، وبعد تسعة أيام من وفاته، و كلما تذكرت أنني لم أكن هنا عندما مات، ينقبض قلبي وأجد في روحي مرارة بلا حدود.

الله يرحمه يا نجيب، هذا هو الفنان العظيم وهذه هي حكايته، فلتكن أمينا أيها الصحفي الشاب وأنت تحكيها للكثيرين الذين لا يعرفون – للأسف – من هو نجيب سرور.

ثـــروت

(١)

ألف حمد وألف شكر لك يا رب؛ في الثانية والثمانين لا يتبقى لك من هذه الدنيا البخيلة سوى بعض المتع المحدودة؛ تفرُغُ من صلاة الصبح وتُشغل إذاعة البرنامج العام (ويا حبذا لو كان يذيع أغنية للست شادية أو لعمك محمد رشدي)، تجلس في السرير تدخن السيجارة الصباحية – دون أن تلقي بالا لاعتراضات الحاجّة وتذمرها المعتاد. يأتي حامد بالأرغفة الساخنة فتقوم لإعداد الفطور الصباحي المُفتخر، طبق الفول بالطحينة، والجبن القريش بالطماطم والنعناع، ثم الجلوس لقراءة جرنان الأهرام مع فنجان القهوة البن التمام.

أواصلُ استمتاعي بطقوسي الصباحية عندما يرن جرس التليفون تلك الرنّة الطويلة، ترنك، فأكاد أعرف نصّ المكالمة قبل أن اقوم لأرد.

يأتيني صوت ذلك الصحفي، مرتبكا خجولا - ويبدو أنه صغير في السن، وقبل أن يقول أي شيء، وبمجرد أن يبدأ كلامه بذلك الاستفسارالمكرر الأثير: "أستاذ ثروت سرور، أخو الشاعر الراحل نجيب سرور ..." أدرك أن توقعي كان في محله، وأجدني قد عرفت على الفور كل ما سيقول.

... أنه بصدد مشروع ما عن الراحل نجيب سرور، وأنه يريد أن يلتقي بي، وأنه يريد أن يستفسر مني عن بعض الأشياء والتفاصيل التي تخص أخي، الشاعر الراحل، العظيم ...

كم مرة تكرر ذلك يا تُرى؛ أستاذ ثروت سرور .. أنا بصدد مشروع .. الراحل .. الشاعر العظيم إلخ إلخ. نتفق على موعد، ونلتقي. يأتي من يلقي بالأسئلة وألقي له بالإجابات. أتذكر وأقول وأردد ذات الكلام الذي ينتهي غالبا إلى شريط كاسيت في درج منسي إعدادا لمشروع ما لن يكتمل.

لا يُخيب الصحفي ظني. يتحدث - كما تحدث من سبقوه - عن مشروع ما متعلق بنجيب سرور يريد أن يقوم به، ثم يقول كلاما غامضا وألفاظا إنجليزية - قال يعني بغرض أن يبهرني. لا أفهم منه الكثير ولا أهتم لعدم الفهم، لكن عبارةً ما تستوقفني من بين كل ما يقول:

- ... وبالذات الفترة التي قضاها نجيب سرور في مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية ...

يدهشني الاختيار. تلك الشهور المشئومة من عام ٦٩، لم هذه الفترة تحديدا؟ ما الذي يمكنني أن أقوله عنها بالضبط؟ ماذا لديّ أصلا لأحكيه عن تلك الفترة؟ كل ما أذكره سعي والدي رحمه الله حتى عثر على واسطة ليخرجه، وذلك اليوم الكئيب ونحن ذاهبان معا - أنا ووالدي - لإحضاره من المستشفى. على كل حال لن نخسر شيئا، وهذا الصحفي يبدو أنه مهذب وابن ناس. لقد وصلت لسن التي أستطيع أن أميز فيها، بسهولة أولاد الناس من أولاد الزواني (دون أن تمنحني هذه القدرة على التمييز أي مكاسب مادية حقيقية على أرض الواقع) حين أعطيه الموعد، أصف له العنوان على مهل، بطريقة مملة تليق برجل مسن على عتبة القبر:

- دمنهور، ٢ شارع أحمد عرابي، العمارة التي أمام محلات عمر افندي بالضبط، الطابق الثاني حضرتك. فوق معمل تحاليل د.يوسف ميخائيل، إنه مشهور جدا في دمنهور ويمكنك أن تسأل عليه عند الموقف وألف من سيدلّك.

(٢)

لا يستعجلني الصحفيّ في الكلام - بخلاف السابقين الذين كانوا يتزعجون من طريقتي البطيئة في وصف مكان البيت. ملعون أبوهم على أبو استعجالهم. يعني ماذا أخذ الذين من قبلنا حتى نستعجل نحن ونلهث ونجري جري الوحوش. كله للتراب. ظلّ أخي المسكين رحمه الله يرطن بذلك الكلام عن "الخلود الفني" و"بقاء القيمة" و "كراهيته للفن التجاري" وها هو نجيب مات، و الذين كتبوا مسرحيات هابطة ماتوا، كله بم بم، وكله للنسيان. ربما يتذكرك صحفي ما من وقت لآخر فيتصل بك قائلا بصوت مرتبك "أستاذ ثروت سرور.." لكن هذا مجرد استثناء، استثناء تافه في قاعدة النسيان الشاملة. نجيب بشهرته المدوية وأنا بأعمالي القصصية المجهولة التي لم ينتبه لها أحد، كلانا انتهى للنسيان. وما سُمّي الإنسانُ إلّا لنسيه..ولا القلبُ إلا أنّه يتقلبُ. سبحانك يا رب، والله كنت أظنني نسيت، لكن الصحفي

وبعبارة واحدة يذكّرني بكل شيء؛ "..الفترة التي قضاها نجيب سرور في مستشفى الأمراض العقلية.."

أتذكر كل ما تصورت أنه ضاع من ذاكرتي، أو ما تصورت أن أحدا لن يهتم به ثانية. ثم ها هو شخص يتصل ليهتم بالشاعر الراحل، وبجنون الشاعر الراحل. على البركة، سنتكلم ونقول ونعيد ونزيد لينتهي كلامنا إلى شريط كاسيت يلحق بسابقيه. غير أن الأمر هذه المرة مختلف. هل سيرضى السيد الصحفي عما سنقوله له، لقد عملتُ بالصحافة – رحمها الله ورحم أيامها – لفترة لا بأس بها و أحسب أنه بإمكاني أن أخمن ما الذي جاء ليسمعه؛ سيادته جاء بالطبع ليسمع أن.. "الشاعر اضطهدوه وألقوا به في مستشفى المجانين لأنه متمرد وثائر" وأنه "لم يستطع أحد ان يتفهم اختلافه وموهبته فعانى من الغربة وقمع السلطة لينتهي إلى الحبس في مستشفى الأمراض النفسية" هذا ما سيريد سماعه، لكن هل هذا ما سأقوله له؟ هل هذه هي الحقيقة؟ هل هذا هو ما حدث؟ وهل يا ترى سيعجبه ما سأقول؟ ملعون أبوه على أبو كل من سبقه، وهل كان يعني لكلامنا قيمة في أول العمر حتى نخاف من الكلام الآن. هيا أيها الصحفي المجتهد، أنا مُنتظرك، لأتكلم وأحكي لك عن أعوام نجيب سرور في *مستشفى الأمراض العقلية* واعذرني إذا لم يكن كلامي مرتبا وإذا خلطت في بعض الأحداث والتواريخ؛ للسن أحكامه على كل حال.

(٣)

الله يرحمك يا أستاذ محمد يا سرور، يا والدي الطيب.

تريد أن تعرف القصة، اهدأ إذن وتخل عن استعجال جيلكم اللاهث، اعتدل لي واتركني أحكي لك الحكاية من أولها: اقرأ الفاتحة للرجل الراحل، والدنا الذي كان لا يخلو من غواية الفن والشعر والأدب - والتي ورثتُها منه أنا ونجيب بعد ذلك - الأستاذ محمد سرور أعني، "أبو التفانين الرايق" كما كانوا يسمونه في قريتنا أخطاب، مركز أجا محافظة الدقهلية. حين أفكر في طموح هذا الرجل بالنسبة لزمنه، وبالنسبة لبيئة الريف الكالحة التي كانت تحيط به، أتعجبُ وأتساءلُ من أين ولد في صدره كل هذا الطموح؟! كان لا يزال شاباً في العشرين عندما كتب مسرحية شعرية - على غرار المسرحيات التي كتبها شوقي بك وعزيز أباظة - فقرر أن ينزل بها إلى مصر، ويتوجه إلى مسرح

رمسيس، وهناك قابل الأستاذ الكبير - وقتها - الفنان سليمان نجيب وذلك بعد إلحاح شديد وتردد دائم على المسرح كل يوم حتى تعطف عليه الفنان الكبير ورضي أن يقابله، ليقول له حتى قبل أن يقرأ المسرحية:

- يا بني أنا لا أستطيع أن أقدم مسرحيتك.

- حضرتك قرأتها و لم تعجبك؟

- وحتى لو قرأتها، وحتى لو أعجبتني لا أستطيع أن أقدمها. هات لي مسرحية تافهة ليس لها أي قيمة ولا مضمون ولكن عليها اسم كاتب معروف فأستطيع أن أعرضها على خشبة المسرح، إنما مسرحيتك، كيف أواجه بها الجمهور، من هو المؤلف؟ من أنت؟ ما اسمك؟

- اسمي محمد سرور وهو مكتوب على المسرحية لو كنت حضرتك كلفت خاطرك و قرأتها، وعلى العموم لا داعي لإزعاجك.

وأمام الفنان سليمان بك نجيب، أخذ الشاب محمد سرور آنذاك مسرحيته ومزقها بهدوء ثم ألقى بها في سلة المهملات أمامه وانصرف فورا، وقد انهدمت كل آمال وطموحات الفتى ذي العشرين ربيعا دفعة واحدة.

(٤)

تبدو متأثرا؟ هل تصدق هذه الحكاية؟ لن نختلف، نجيب أيضا كان يصدقها بحماس، وكان دائما ما يرددها في مواقف مختلفة، بينما كنت أنا كلما تأملتها أجد أنها لا تخلو من مبالغة، وهي مقبولة من شخص مثل محمد سرور. على كل حال، ربما نختلف حول مدى المبالغة في الحكاية و لكن ما حدث بعد ذلك ليس فيه أدنى مبالغة، لأني شهدته بعيني وعشته مع الراحلين يوما بيوم، رحم الله الجميع.

قرر الأستاذ محمد سرور أن ابنه نجيب هو الذي سيحقق له كل آماله الفنية فوضع فيه كل همه؛ يتابعه بنفسه ويراجع معه الأشعار التي ينبغي حفظها من الأدب العربي. وبينما كانوا يرسلونني أنا للعمل في الغيط فقد كان يدفع بنجيب للقراءة طوال الوقت، القراءة في كل شيء وفي أي شيء، بدءا بالأدب و ليس انتهاء بعلم الفلك! أتذكر عودتي من

الغيط منهكا بعد يوم من العمل الشاق لأجد نجيب جالسا في الفراندة يحفظ أحد القصائد التي فرضها والدي عليه. ربما شعرت وقتها بالغيرة، وربما شعرت بالإشفاق على أخي الصغير، لكن المؤكد أنني ما كنت لأفهم أو أدرك ما كان يحدث وقتها، ولا ما سيكون له من أثر بعد ذلك. وربك له في كل شيء حكمة.

(٥)

أتذكر كل التفاصيل كأني أراها الآن رأي العين. كم منزلٍ في الأرضِ يألفُه الفتى، وحنينه أبدا لأول منزلٍ؛ بيتنا القديم في أخطاب، الطينيّ كباقي البيوت في القرية. الفرن على السطح والذي كنا نجري نحوه ونلوث أنفسنا بالهباب على جداره ونجري قبل أن يمسكنا واحد من الكبار ويشبعنا ضربا لشقاوتنا وقلة أدبنا. شجرة الكافور العالية التي كنا نلعب تحتها استغماية، والمعزة التي كان نجيب يلاعبها و يجري وراءها طوال اليوم ويطلق عليها الأسماء المختلفة. أعرف أن هذه التفاصيل لا تعني الصحفيين المتعجلين شيئا - أعرف عالم الصحافة جيدا؛ أنا شخصيا اشتغلت في جريدة الأهالي لأعوام طويلة، لعلك لا تعرف ذلك، بل وربما لعلك لا تذكر جريدة الأهالي أصلا (والتي كانت صوتا ثقافيا حرا ومعارضا في زمن لم يكن يجرؤ فيه شخص أن يفتح فمه) ما علينا، دعنا من كل هذه التفاصيل إذن واسمع هذه الحكاية، ربما تجد فيها عنوانا جذابا تخرج منه بمانشيت مدهش.

(٦)

كنا على أبواب العيد، كان نجيب صغيرا جدا وكنت آخذه من يده حريصا ألا يتوه مني وننطلق للغيط على أطراف القرية حيث كنا نشتغل بتنقية الدودة، طبعا أنت لا تعرف ما هي تنقية الدودة حضرتك؟ كنا نطوف على شجر القطن ونجمع لطع الورق حتى لا يُفسد باقي المحصول. لا أزال أذكر كيف كنا نغني تلك الأغاني "القطن فتح هنّالنا البال" أو "نورت يا قطن النيل يا حلاوة عليك يا جميل" نرتدي الجلباب الكستور المقلم ونربط المنديل إلى رؤوسنا على قطعة من الجبن القديم مغموسة في المش؛ هي كل طعام اليوم الطويل والأجرة خمسة قروش يومية، أو كما كنا نقول أيامها، خمسين مليم. نعود لنضعها في يد السيد الوالد، والذي فوجئنا به يقول لنا ذات مساء:

- أنا مش حاخد أجرتكم من هنا ورايح، العيد قرب، انتم رجالة دلوقت، كل واحد فيكم يشتغل ويكسي نفسه على دخلة العيد.

كانت تلك اللحظة في حد ذاتها بالنسبة لنا عيدا، وفعلا، بدأنا نوفر يوميتنا، بعد ذلك صرنا نضع النقود في برطمان من الفخار لا أعرف من أين جاء به نجيب وقتها، بدأ رنين النقود يرتفع في البرطمان يوما بعد يوم، لا أزال أذكره رحمه الله وهو يقول:

"هذا البرطمان ليس فيه نقود..هذا البرطمان فيه جلابية العيد الملونة"

ثم يتحسس سطحه الفخار الخشن وكأنه يتحسس قماش الملابس الملونة الناعم، وأنا أضحك منه. لم يكن وقتها يزيد عن كونه مجرد أخي الصغير الذي ألهو معه - أو به - والذي لا يستطيع أن يفعل شيئا بدوني، ولو ضربه أحد سيبكي ويجري ليأخذ له أخوه ثروت حقه. كانت الأمور على ما يرام حتى كان ذلك المساء الغريب؛ كنا جالسين جميعا إلى الطبلية نتناول الطعام وباب الدار مغلق كالعادة، دق الباب فقام نجيب ليفتح، كانت الطارق امرأة عجوزا في ذيلها صبي يربط ذراعه المكسورة الموضوعة في الجبس إلى عنقه.

- محمد أفندي هنا؟

قام لها محمد أفندي - أبونا - فرحبا:

- هنا يا ستي، اتفضلي الأكل.

- بالهنا والشفا

- خير يا ستي؟

- خير يا محمد افندي، بس ابنك كسر دراع ابني وكلفني جنيه بحاله عند المجبراتي.

التفت أبي تلقائيا نحو العبدلله؛ وقد كنتُ مشهورا بضرب عيال القرية دون وجه حق، وهو يصيح:

- كده يا بن الكلب!

صرختُ:

- مش أنا يابا!!

ولم أكن قد رأيت لا هذا الولد ولا ذراعه من قبل، ولا أعرف عم تتحدث هذه المرأة العجوز التي جاءت لتلقي بلاها علينا، وفوجئت بها تنقذني قائلة:

- لأ مش ثروت يا محمد أفندي...

كان نجيب في حاله دائما، وإن كان عيال القرية قد اعتادوا ضربه انتقاما من شقاوتي أنا، لذا كان غريبا ومدهشا أن تقول المرأة:

- نجيب، نجيب هو اللي كسر دراع ابني!

تقفز في أذني الآن صرخة نجيب خطئها كمن لدغته أفعى:

- أنا يا خالة؟!

فرد الصبي ببجاحة تفوق بجاحة أمه:

- ايوة أنت.

- أنا يا بني كسرت دراعك.

- أيوة انت كسرت دراعي.

نظر له أبويا نظرة صاعقة وقال بحزم:

- طيب يا بن الكلب، أنا حاوريك.

يقولون أن الاندفاع والعصبية أمر أصيل في أسرتنا المباركة، وانا أؤكد لكم أن قولهم حق. لم ينتظر الوالد ليفهم أو ليتفاهم. صعد على الفور للغرفة وعاد ومعه برطمان نجيب وقام بإفراغ كل ما فيه من نقود في حجر العجوز:

- عامل لي فتوة؟ ابقى وريني بقى حتعيّد ازاي؟

وخرجت العجوز بالنقود التي كان سيشتري بها نجيب ملابس العيد، والذي أخذ ينظر في صمت وذهول للبرطمان الفارغ ...

(٧)

أراك تصدق هذه الحدوتة، أيها الصحفي الصغير المهذب؟

تريد أن تعرف حكاية الشاعر الراحل في مصحة العباسية؟ تريد أن تعرف أصل الحكاية؟ أقول لك أنا، أصل الحكاية حضرتك أن الراحل رحمه الله كان مُغرما بصنع مأساة ليعيش فيها، فيتعذب ويُعذب من حوله دون مبرر. عجوز نصابة مثل أي نصّابة في أي قرية تأتي لتستغل سذاجة ناس محترمين في سقف الطبقة المتوسطة شاء لهم القدر أن يقيموا بين تلك الطبقات الكادحة. عجوز نصابة تأتي و تخترع مثل هذه القصة لتطلع بما فيه النصيب. أما نجيب فيظل يحكي عنها ما شاء له ان يحكي. يفرد لها صفحات كاملة، ويجعل منها سرا غامضا وشبحا غير مفهوم مثل أمنا الغولة والنداهة. لو قرأت ما كتبة نجيب في مذكراته التي لم تنشر: "فارس آخر زمن" (والتي استولت عليها للأسف الهانم

التي تزوجها في روسيا) تجده يقول: "أن سر هذه السيدة الغامض ظل يطارده بلا سبب معقول." كأنه كان يستمتع بصناعة المشاكل والأحزان والتعاسة، كأنه كان يستمتع بتعقيد الأمور من حوله،طالما كنت أقول له: "يا نجيب، لا تحسب للدنيا بزيادة، هي أصلا معقدة لوحدها" عجوز نصابة يا حبيبي، واحدة بنت كلب وخلصنا. سر غامض ايه ونداهة ايه بس...

إنه نفس ما سيفعله بعد ذلك مائة مرة، في قصيدته الفضيحة؛ أميات، والتي شنّع فيها على كل مثقفي وفناني جيله، وفي هوسه الدائم خوفا من مراقبة المخابرات له حتى حدث ذلك الصدام عام ٦٩ ودخل مصحة العباسية (ولولا تدخل والدي ما كان ليخرج) ونروح بعيد ليه، لعلك تذكر قصيدته الشهيرة والحكاية التي قلب بها الدنيا في الخمسينات وصنعت له شهرة مدوية، حكاية الحذاء أعني، والتي يحكي فيها كيف ضرب العمدة والدنا محمد افندي سرور بالجزمة عقابا له على تأخير أجرة الأرض، بينما في حقيقة الأمر أن ذلك العمدة المذكور لم يفعل أكثر من أن عاتبه، وخبطه خبطة خفيفة بعود غلة كان يمسكه طالبا منه ألا يؤخر الأجرة ثانية. العمدة كان صديقا للوالد وكان الحوار بينهما حوار صديقين لا أكثر، أين ذلك من المأساة التي صاغها في قصيدته الشهيرة تلك:

فمدّ الخفير يدا من حديد

وألصقني عند باب الرواق

رأيتُ، أأنسى ...

رأيت الإله يقوم فيخلع ذاك الحذاء

وينهال كالسيل فوق أبي

رواق ايه وإله ايه بس؟ لو أفهم من أين كانت تأتيه هذه الأفكار. ليرحم الله الجميع، من مات منهم ومن لا يزال ينتظر دوره.

(٨)

حكاية أخرى، ربما تساعدك على الفهم.

في تلك الأيام القديمة البعيدة، كان والدي قد اتخذ قراره بوضوح: ثروت للغيظ وللعمل الشاق ونجيب هو الذي سيحقق حلمه في الإبداع والكتابة. نجيب والوالد جالسان في أحد غرف الدار يتناقشان في قصيدة كتبها الوالد، فيقول نجيب ببساطة: إنها قصيدة تقليدية وركيكة وليس لها أي قيمة! لا يكون من الوالد إلا أن يضربه قلما ساخنا ولا يملك نجيب أكثر من أن يتمتم لي من بين شفتيه وهو خارج من الغرفة، ودون أن يسمعه أبويا "ديكتاتور"

هل تعني لك هذه الحكاية شيئا؟ هل تفسر لك شيئا من صدامات نجيب المتكررة طوال الوقت مع ابيه وأصدقائه وزملائه أغلب مثقفي وفناني عصره؟ اعترف أني كثيرا ما كنت أعجز عن فهم

تصرفاته أو الدافع وراء هذه التصرفات، شكوكه الدائمة في الجميع وإحساسه أن أحدا لا يحبه - حتى والده الذي لم يهتم بأحد ولا رعاه قدر اهتمامه ورعايته لنجيب .. بل وتسامح معه عندما ترك دراسة الحقوق - كما كان أبي يحلم - وذهب لمعهد السينما. لو كنت أنا الذي أقدمت على تصرف كهذا ربما كان قتلني، لكنه مع نجيب لم يفعل أكثر من الزعيق بكلمتين ثم تركه لحال سبيله، ورغم ذلك جعل منها نجيب مأساة كتب عنها في ديوانه "لزوم ما يلزم" مُعترفا بعدم اهتمامه بالدراسة في فترة الكلية:

وتُقلت من صف لصف

بالله لا تسألن كيف

وبأي تقدير فقد كنت الضعيف

جدا كما لو كان عندي فقر دم.

ليبدأ بعد ذلك مشواره في التمثيل والذي لم يوفق فيه كما كان يتوقع؛ فلم تكن لديه موهبة التمثيل، إلا أنه نجح في الفوز ببعثة إلى روسيا (وقد تعجبنا جميعا وقتها من ذلك لأنه كان دائم الشكوى من اضطهاد السلطة له ومراقبة المخابرات لكل حركاته) كله مقدر ومكتوب، والمكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين، وقد استراح من

كل ذلك وهو الآن عند رب كريم. غير أن الذكرى باب الأحزان القديمة التي لا يطويها النسيان. لا أزال أذكر جلستي أنا وهو وأبي - رحم الله الجميع - قبل سفره بأيام وأبي يحذره من كل شيء سيفعله نجيب بالضبط بعد ذلك "يا نجيب لا شأن لنا بالسياسة"، "انتبه لدراستك وارجع بالشهادة من أجلنا ومن اجل فنّك الذي خلقك الله من أجله"، "يا نجيب الفرصة لا تطرق باب المرء إلا مرة واحدة، وهذه البعثة فرصة لا تتكرر فلا تضيعها"، "ربنا ستر فيما فات فاتق الله في نفسك وفينا ولا تخيب رجائي فيك." وسافر نجيب لتعود أخباره بكل ما كنا نخاف منه. نجيب يتشاجر مع زملائه في حانة ويضرب ضابطا سوفيتيا ويتم احتجازه، نجيب ينضم للشيوعيين المصريين في موسكو، نجيب يقفز على المنصة ويلقي بيانا يندد بالنظام القمعي الديكتاتوري الناصري في مصر وسوريا. نجيب أخي الصغير الذي أعرفه كما أعرف راحة يدي، ويمكنني أن أتصور تماما شعوره بعد ذلك بالمأزق الذي وجد نفسه فيه وهو الذي لا يفقه شيئا في السياسة بعد هذه الحماقة التي لم يكن لها مبرر، لتبدأ علاقته هناك بالمدعوق الشرب، والذي لا اشك لحظة أنه تعلمه في روسيا من الروس الملاعين الذين عاشرهم وتزوج منهم وأقام وسطهم، والذي سينهي حياته بعد ذلك بعد أن تهرأ كبده منه، فيموت بين يديّ - وحيدا بلا زوجة أو ولد - في مستشفى الحسين. الله يرحمك يا نجيب ويحسن إليك.

مع كل خبر كان يرد عنه من هناك - بما في ذلك زواجه من تلك الروسية - كنا ندرك أنه يتحرك نحو الهاوية بإخلاص، حتى وصلنا منه ذلك الخطاب العجيب (ويمكنك أن تأخذه وتصوره على أن تعيد لي الأصل) إنه يطلب فيه من والدي:

(إرسال أقصى ما يمكنك من ملابس صيفية وشتوية. الآن وفورا حتى ولو كلفك ذلك ألف جنيه. بل حتى لو اضطررت لبيع فدان. لست أمزح بل أكرر، حتى لو اضطررت لبيع فدان أو استلف. افعل أي شيء، انا أعلم بظروفك وما كنت لأكلفك فوق ما تطيق، وما كنت لأستحل لنفسي مليما من رزق ليلى وناهد وهدى وميرفت ومايسة (إخواتنا البنات) لو لم يكن هناك ما يرغمني على ذلك. قُم الآن بعد قراءة هذه الرسالة واشتر كل شيء بلا استثناء، اشتر كما لو أن مدة البعثة عشرين سنة، ابعث كل ما تستطيع من كسوة، بنطلونات، فانلات، ألبسة، أحذية، شرابات عادة وبيجامات كستور)

مهما نسيت، هل يمكنني أن أنسى نبرة والدي وهو يقول في تسليم اليائس بعد أن قرأ لي الخطاب في تلك الليلة الحزينة من شتاء ١٩٦١:

- عليه العوض في أخيك. قد اعتبرته ميتا منذ الآن و نفضت يدي من ترابه.

وكنت مدركا تماما أنه مجرد كلام. فبالرغم من أن نجيب حين عاد إلى مصر وتحول لنجم لامع في الستينات ورغم انه لم يكلف خاطره بزيارتنا ولا زيارة أبيه سوى مرة واحدة، مكتفيا بمكالمات متباعدة ومتعللا بمشاغله الكثيرة. إلا أنه ظل مشغولا به ومشغولا عليه لآخر يوم، بل و حتى بعد أن عرفنا بزواجه من مشيرة محسن صدقة (ولاشك أنك أيها الصحفي القادم ستعيد وتزيد في قصة مشيرة هذه مثل من سبقوك ولن يعجبك كلامي كما لم يعجبهم) ولكني أقول رأيي بتجرد وإنصاف، والله على ما أقول شهيد.

***

أما مشيرة محسن فحكايتها حكاية. تلك السيدة التي خسرت من مرورها في حياة أخي رحمة الله عليه كما لم يخسر أحد، ولعله لم يخطر ببالها لحظة وهي تمضي عقد زواجها منه – والذي لم يعلم أحد منا بأمره سوى من الجرائد – من كان يمكنه أن يتصور وقتها أن تلك الفتاة – والبت بصراحة كانت حلوة – سينتهي بها الأمر لتلك الفضيحة المجلجلة التي لاحقتها وستلاحقها حتى المات، يكفي أنه لا يذكر اسمها إلا ويبتسم الجالسون ويرددون ما كتبه نجيب فيها في قصيدته الشهيرة "أميات". في حقيقة الأمر أنا لا أنفي عنها – ربما يعني – تهمة الطمع، فهي عندما تزوجت نجيب في أوائل الستينات بعد رجوعه، ٦٤، ٦٥، تقريبا كان

فعلا ملء السمع والبصر، مسرحيات ومقالات وشعر، لم يكن ينقص وقتها إلا أن تفتح الحنفية فينزل منها نجيب سرور، يعني ياسين وبهية، مسرحيته تلك والتي كتبها من قصة حقيقية كنت شاهدا من شهودها هنا في قريتنا أخطاب، كسرت الدنيا وقتها ولم يكن من شغل للجرائد والمجلات إلا الكلام عن عنه وعن مسرحيته تلك. كان والدي يشتري كل ما يكتب ويقصه ويحتفظ به في ملف في غرفته - وذلك رغم أن نجيب لم يكن يسأل عنا تقريبا في تلك الفترة، يعني بالكاد اتصال بالتليفون من فين لفين. نجيب قسى على الجميع، وأولهم نفسه، يعني تخيل أنه اتهمها بخيانته، ومع من؟ مع نجيب محفوظ؟ كل من يعرف نجيب محفوظ ويعرف نظامه وحذره الدائم يدرك مدى سخافة هذه الفكرة واستحالة حدوثها، لكن هكذا كان أخي رحمه الله، عذب نفسه وعذب الجميع دون أي مبرر.

(٩)

نهايته ظل قلب والدي متعلقا بنجيب بطريقة عجيبة الشكل، وقد هرع للقاهرة - وهو الذي كان لا يغادر البلد أبدا مهما حدث - بمجرد أن عرف أن زوجته الروسية قادمة إلى مصر فاستقبلها وجاء بها إلى هنا - لتعيش دور الأوروبية المتحضرة التي ألقى بها حظها العثر وسط مجموعة من الفلاحين الهمج، وظل يسعى بعد ذلك، ويتوسط هنا وهنالك حتى أخرجه من مستشفى العباسية - والتي دخلها بسبب محضر سكر في الشارع واصطدامه مع ضباط من الشرطة العسكرية؛ كنا وقتها في ظل حرب الاستنزاف وأحكامها الاستثنائية وكانت الشرطة العسكرية هي القائمة بالعديد من المرافق الحيوية ومنها بعض نقاط المرور، ثم مستشفى العباسية - كما عرفنا بعد ذلك. بمعجزة، خرج نجيب من العباسية أول عام ١٩٧٠ ومالبث أن تعب ثانية فدخل مصحة المعمورة ليقضي بها ثلاثة أعوام في الإسكندرية، تحت رعاية

استشاري النفسية والعصبية الشهير الدكتور كمال الفوال. لعل نجيب لو كان قد التزم بالعلاج الذي كتبه له الأطباء وقتها لكان حيا وسطنا للآن، بدل المكابرة والسعي وراء طمأنة ذلك الطبيب الغريب المدعو جلال الساعي ...

(١٠)

بعد خروجه من مستشفى المعمورة وكانت الست ساشا قد حرّمت علينا زيارته وذلك قبل أن تتركه وتهرب إلى بلدها الباردة وقد اختطفت العيلين، لم نستطع أن نرعى نجيب كما ينبغي إلا بعد اختفائها من الحياة، آخر عامين من حياته كان هنا معنا في هذا البيت (وكانت الأستاذة أمل بنتي الصحفية، لا شك أنه سيعرفها أو يعرف اسمها على الأقل، كانت وقتها طفلة صغيرة، وقد كتبت مقالا جميلا عن عمها نجيب سرور من المفيد قراءته والاطلاع عليه) وبخلاف الفترة التي قضاها في مستشفى الحسين، كانت إقامته بالكامل هنا، ثم تعب التعب الأخير وأدرك أنه يموت

وحتى آخر لحظة، كأنه كان مخلصا أن تنخلع قلوبنا عليه، كانت تأتيه نوبات متقطعة من الغيبوبة، كان الفشل الكبدي قد وصل لمنتهاه وكان يفيق بالكاد ليشرب بعض الماء ويخطرف بكلام غير مفهوم.

آكاد أراه الآن، يبتسم ابتسامة باهتة قائلا بصوت خفيض:

- الآن فقط أستطيع أن أفلت من مؤامراتهم، وأن ألحق بشيخي، وبأفراد الكتيبة الخرساء.

وأغمض عينيه هامسا بصوت موهن:

- ثروت، هل تقترح شاهدا مناسبا ليكتب على قبري...

ثم يضيف دون أن ينتظر ليسمع رأيي، (وهو على كل حال لا يعنيه كثيرا):

- اكتبوا :

هو لم يمت بطلا ولكن مات كالفرسان بحثا عن بطولة .

ويردده أكثر من مرة كأنه يتذوقه على مهل، فأدرك أن اللحظة حانت ...

- ولا ايه رأيك يا ثروت؟

يقطع الشعر ويقطع ثروت و شواهد القبور في ساعة واحدة، احنا في ايه ولا في إيه يا نجيب، ألا تجد شيئا ليشغلك في هذه اللحظة إلا ما ستكتبه على قبر لن تكون واعيا وأنت فيه ولا واعيا لمن سيقرؤون ما

كتب عليه – إذا اهتموا بقراءته أصلا – لماذا تمزق قلوبنا عليك بهذا الإخلاص؟ أقول:

– لا داعي لهذه السيرة يا نجيب وحد الله، الدكتور طمنا وقال أن كل شي سيكون تمام.

– خلاص يا ابو أمل، الحدوتة خلصت. الستارة لازم تنزل والممثلين لازم يروحوا بيوتهم، أما أنا فقد آن لي أن ألحق بهم هناك ...

وينظر كأنه يخاطب جهة مجهولة:

– آن للغريب أن ينضم إليكم .. يا أهل الكتيبة الخرساء.

ثم يقول بسرعة، كمن يمسك شيئا يخاف أن يفلته:

– صح، صح، معكم حق، هذا أفضل..

ثم يخاطبني بصوت واهن، ليكون آخر كلامه من الدنيا:

– اكتبوا أحسن ...

قد آن يا كيخوت للقلب الجريح، أن يستريح

فاحفر هنا قبرا ونم

والنقش على الصخر الأصم

يا نابشا قبري حنانك

هاهنا قلب ينام

لا فرق من عام ينام وألف عام

هذي العظام حصاد أيامي

فرفقا بالعظام! ..

ويغمز لي:

- فيها دراما أكثر، بركاتك يا حاج أرسطو.

ولا أجد شيئا أعقب به، فألتزم الصمت.

وبعد يومين بالضبط، ننفذ وصيته ونكتب على قبره ما شاء.

(١١)

لا أظن أن الصحفي سيطلب مني اصطحابه لقبر نجيب؛ عادة ما يكونون متعجلين يريدون العودة إلى مصر قبل أن تُليّل الدنيا، ولكن حتى وإن طلب، سأصف له طريق الذهاب إلى هناك، وهو سهلٌ على كل حال.

مشـــيرة

(١)

يرن هاتفي المحمول برقم غريب. أتأمله قليلا قبل أن أرد، وحين أفتح الخط يأتيني صوت شاب صغير متسائلا:

- دكتورة مشيرة محسن؟

أرد بالإيجاب، فيقول بصوت خجول مرتبك:

- حضرتك، أنا طلال فيصل، كاتب وصحفي ومترجم؛ أنا أجهزُ كتابا عن الشاعر والمسرحي الراحل نجيب سرور، والفترة التي قضاها في مصحة الأمراض العقلية بالعباسية ...

وأجدني - برد فعل لا إرادي - ودون حتى أن أفكر، أغلق التليفون، وأضعه أمامي على الطاولة.

أجدني — رغما عني — أرتعش، وأشعر بانزعاج لا حدود له. يراودني ما يشبه الشعور بالذنب تجاه ذلك الشاب المسكين - لا شك أنه صحفي؛ وأفكر أنه لو اتصل ثانية ربما رددتُ عليه. أفكر أن أتصل أنا به لكنني لا أجد مبررا ولا رغبة ولا طاقة لفعل ذلك. أشعر بانزعاج لا حدود له من الأمر كله، ثم أشعر بغيظ عارم تجاه ذلك المتصل السخيف وأكاد ألقي بالموبايل لأكسره على الأرض، وأفكر قليلا فأجد أنه لا داعٍ لذلك كله...

أعلل نفسي أنها مكالمة عابرة مثل كل المكالمات التي سبقتها، ولن ألبث أن أنساها ويستغرقني تيار الحياة التي لا ترحم...

كله للنسيان، كله للزهايمر، إلا أن هناك من الماضي ما يبقى شوكة في الحلق لا تستطيع نسيانه ولا يسمح لك الآخرون بتجاوزه.

كثيرا ما كان يقول "لا أريد أن يتبقى مني سوى فني. أريد من الناس أن ينسوا نجيب سرور ويحفظوا شعره ومسرحياته، مثل شكسبير، لا أحد يعلم عنه شيئا، لكن مسرحياته ستظل تعرض وتتردد بكل اللغات إلى يوم الدين."

حسنا يا عزيزي، يؤسفني أن أخبرك أن العكس بالضبط هو ما حدث؛ لا أحد يذكر الآن لا شعرك ولا مسرحياتك، لم يتبق منك سوى

قصيدة بذيئة طويلة وفضيحة لا يكف الصحفيون التافهون عن إثارة حكايتها من وقت لآخر.

أتذكره وأتذكر تلك الأيام، أتذكره بنبرة صوته الغليظة المميزة وهو يردد لي، كعادته دائما، ما كان يردده من الشعر القديم، أتذكره وهو يردد ذلك البيت:

وما سمّي الإنسان إلا لنسيه .. ولا القلب إلا أنه يتقلبُ.

الله يرحمك يا نجيب، الله يرحمك ويسامحك.

(٢)

١٩٦٦ يا ربي أم ٦٧؟ لا شك أننا كنا قبل النكسة، نعم، لاشك، فهو لم يتدهور بتلك الطريقة إلا بعد النكسة. ولكن كيف؟ لقد قدمنا بعدها - بعدها نعم، أنا متأكدة - مسرحية ميرامار. من الغريب أنك قد تتذكر ما حدث بدقة ولا تتذكر تاريخ حدوثه. لو أنهم طلبوني للشهادة في المحكمة، وأقسمت على المصحف، فلن أستطيع أن أذكر بثقة غير أول الحكاية، وقفتي ليلتها، بعد انتهاء العرض، ربيع ١٩٦٥ أمام مسرح الجيب بالعتبة (والتي لم تكن مكانا مزدحما قذرا مثلما هي الآن) كنت أرتدي فستانا أزرق قصيرا؛ لم يكن لدي وقتها غيره هو وفستان أسود واسع لم أكن أحبه. أتذكر ذلك الفستان بدقة، أزرق سادة، وحوافه منقوشة بورود بيضاء صغيرة، (ولذا كنت أرتدي معه حذاء أبيض بكعب كريب) كان مسحوبا من الأكتاف بانسيابية ويضيق قليلا، بشكل محسوب، عند الخصر. يا ربي، كم كنتُ أبدو جميلة وقتها! رغم

ذلك، لم يكن في حقيبتي، ليلتها، أكثر من خمسة وعشرين قرشا، ثم أنني مطالبة أن أقضي بهذه القروش باقي الشهر، ولكن ماذا يهم، الأحلام ستتحقق ستتحقق، سأصير نجمة، لا شك في ذلك، وسيصبح لدي بدل هذا الفستان الأزرق السادة مئات الفساتين - ولكني سأحتفظ بهذا الفستان وفاء لأيام الكفاح هذه؛ أيام الأحلام والطموح والاجتهاد! تلك الليلة، حيث بدأ كل شيء؛ وإنك قد تنسى كل شيء ولا تنسى البدايات. ألمحُه بطرف عيني وهو خارج من المسرح مع مجموعة من الأصدقاء. أخجل من أن أركب الأتوبيس أمامه؛ أتركه يفوت وآخذ أتمشى في ممر حديقة المسرح كأني أنتظر تاكسي أو صديقا ما، أنتظر حتى يذهب. شعور غامض ملح كان يسيطر عليّ أنه سيأتي ليكلمني، وحين فعل، فوجئتُ بذلك، لا أدري لماذا. باغتني بصوته الغليظ المميز، هكذا، دون مقدمات:

- انت حلوة قوي الليلة يا بت.

وأجدني أرد عليه دون تفكير:

- ما انا عارفة.

يدهشني ردي أكثر مما تدهشني مغازلته الفجة -- برغم أنها منه، هو، كانت لطيفة. تلك الأيام، كم تبدو بعيدة! كان وقتها نجما ملء

السمع والبصر، وكان واضحا لي من المرات القليلة التي رأيته فيها أنه موهوب جدا، وأنه "خام" تماما فيما يتعلق بالستات. كنتُ قد شاهدت قبلها مسرحيته التي كسرت الدنيا أيامها: "ياسين وبهية"، بكيت أثناء مشاهدتي لها كما لم أبك في حياتي، كيف كتب ذلك الحوار الذي لا مثيل له؟ تخيلت نفسي ألف مرة وأنا أقول - بدلا من تلك الممثلة، متوسطة الموهبة، نجاة علي:

أما يا مه شفت حلم

غريب، مخوف

شفتني قال راكبة مركب، والمراكبي ابن عمي.

فتنفجر القاعة بالتصفيق!

كنت واثقة أني لو كنت أنا التي قمتُ أنا بهذا الدور، لكان له شأن آخر. الرجل الذي كتب هذه المسرحية المدهشة قادر أن يكتب ألف شيء مدهش آخر. هل يمكن لنا أن نعمل معا ذات يوم؟ هل يمكنه أن يكتب لي حوارا خاصا بي مثل ذلك؟ ثم ها هو المؤلف بذات نفسه أمامي الآن، بشحمه ولحمه، بنكتته الريفية ومحاولته الفاشلة تماما أن يبدو في ثوب الصايع المجرب متعدد العلاقات، فيعكسني بذلك الشكل البدائي!

ولكني كنت سعيدة، ورددت عليه المعاكسة بمثلها...

كلمة في كلمتين، أركب معه هو وبعض الزملاء لننطلق سويا إلى الفاندوم...

أتذكر كل ذلك، وأفكر، أين هي الغلطة التي انتهت بتلك البداية الجميلة المبشرة إلى تلك النهاية البشعة المؤلمة.

***

ماذا كان يقول دائما؟ كان يردد ذلك البيت لشاعره المفضل الذي كان دائما يردد أشعاره: مشيناها خطى كتبت علينا...

يغيب عني الآن اسم الشاعر، وتغيب عني بقية للبيت، والتي كانت تعني أن كل شيء مقدر ومكتوب، وأنه لا مهرب - مهما فعلنا - من هذا المقدر أو المكتوب.

(٣)

بعد ساعة زمن من دخولنا الفاندوم، كان رصيده من المحاولات أن يبدو زير نساء قد نفد. عاد لطبيعته الأولى، شابا ريفيا خجولا وجد نفسه في دنيا الشهرة والأضواء رغما عنه. كنت سعيدة بمحاولاته تلك، كان يبدو لطيفا ومثيرا للتعاطف وهو منكمش في كرسيه يدخن ويختلس النظرات لي من وقت لآخر متصورا أني لا ألاحظه. نعم كان يبدو لطيفا مثيرا للتعاطف والحب، رجلا وسيما موهوبا، يمكنك بكل سهولة أن تبصر ما يدور في باله حتى وإن لم يتكلم.

يعاكسني أكثر من شخص من الجالسين معنا على الطرابيزة، يطلبني أكثر من واحد للرقص، لكني لا أشعر بارتياح لمغادرته وتركه وحده. أعرف أنه سيشعر بغيرة - وربما بإهانة، غيرة؟! هل حدث بيننا شيء أصلا حتى يشعر بالغيرة؟! كان توتره وانكماشه في الكرسي بهذه

الطريقة تعبيرا عن إعجاب يستلزم مني أن أتعامل معه باحترام، نعم، لم يمر على تعارفنا ساعتين، ولم نكن قد تكلمنا في اي شيء حقيقي، ولكن كان هناك شيء ما في الجو تدركه المرأة، وأنا إحساسي يستحيل أن يخطئ أبدا. كان رفضي لكل من طلبوني للرقص تعبيرا عن رغبتي فيه هو، تشجيعا لذلك الريفي الخجول الموهوب الذي بدأت أشعر تجاهه ببوادر الإعجاب. يتشجع بالفعل، ويعود ليحاول ممارسة دور الدنجوان، يسألني بنبرة خشنة يخفي بها توتره، وبوجه جامد يداري به ارتباكه:

- ترقصي معايا يا بت...

أقوم ضاحكة وأشده من يده قائلة:

- يلّا بينا...

فيهمس لي بمجرد وقوفنا على البست:

- أنا ما باعرفش ارقص..

أعرف ذلك من قبل حتى أن يقوله، آخذ زمام المبادرة في الحركة، أسأله:

- كل السنين دي في روسيا ولم تتعلم الرقص؟!

فيضحك ضحكة عصبية مرتبكة، ويبدأ يحكي على مهل حدوتته. أبوه وأخوه وزوجته الروسية، ابنه، عبدالناصر والغربة والزملاء الحاقدين، نعود لنجلس على الطربيزة وحدنا ولا ينقطع الحوار، ننتقل من موضوع لموضوع ومن حكاية لأخرى ...

وبعد أسبوع واحد بالضبط نكون عند المأذون ومعنا اثنين من الشهود!

من قال إن هناك علاقة بين المقدمات وبين النتائج. من قال أنه بإمكاننا أن نفهم كيف تعمل خطة القدر، من هذا الذي زعم أن هناك نظاما ما أو قانونا لأي شيء؟

(٤)

كان كل شيء سريعا، التعارف، الحب، الزواج، ثم الانهيار، كان كل شيء سريعا!

في البداية سكنّا في شقة بالزمالك؛ نجيب ينفق باعتبار أن النقود شيء يأتي وحده ويذهب وحده، وهو لا يعرف من المستقبل إلا ما ينتظر أن يأكله على الغداء أو مايريد كتابته غدا، الأسبوع القادم بالنسبة له هو خطة طويلة المدى، أما ما سيفعل بعد شهر مثلا أو شهرين، فعلم ذلك عند الله وحده!

هل كان ذلك الصحفي المُتصابي - والذي لن يسأل عن شيء بالطبع غير الفضائح والشتائم فهذا هو ما يهم الصحافة والصحفيين، هل كان سيصدقني لو قلتُ له إن تلك الشهور العشرة كانت من أجمل فترات حياتي، وأني أتذكرها فأشعر بحنين بالغ، وأتساءل، كيف كان يمكن لتلك السعادة أن تدوم...

ولكن السعادة لا تدوم، على رأي الست "يا ريت يدوم للقلب صفاه" يا ريت، لكن تجربة الحياة تؤكد أنه مستحيل.

كنا نذهب للمسرح معا، يتابع المسرحيات التي قام بتأليفها - ويتشاجر كعادته مع كرم مطاوع أو مع ذلك المدعو جلال الشرقاوي (سامحه الله) وربما لديه نص يخرجه فيقوم بمتابعة البروفات مع الممثلين، ويتشاجر كعادته إما مع المؤلف صاحب النص الأصلي (أي مسرحية تلك التي كان يخرجها أيامها؟ لعن الله الزهايمر! لكني أذكر أنها كانت من تأليف نعمان عاشور، كان يحكي لي عن شجاراته معه ولا يصفه إلا بالـ حمار ثم يضيف عقب كل جملة: بس كاتب رواية حلوة ابن الحرام) وقتها كانت هذه الشطحات تبدو شيئا لطيفا، وهذه الخلافات والشجارات تبدو حماسا من أجل مستوى العمل المسرحي، حتى ما يمكن تسميته غرورا يمكن تفسيره بأنه درس بالخارج وأنه رأى مستويات من العمل المحترف لم يتح لنا أن نراها، فضلا عن أنه كان دؤوبا بشكل لا يصدق في العمل، ولديه طاقة غير عادية على مواصلة القراءة والكتابة لساعات طويلة.

كم كانت جميلة تلك الأيام، نخرج ونعمل ونلهو ونعد لمشاريعنا القادمة...

كان يجلس في السرير يتخيل مسرحيته الغنائية "أوبريت: ملك الشحاتين" ونلعب سويا في صورة بروفة طويلة بين العمل والتدلع على دور "ألمظ" والذي كان يكتبه خصوص من أجلي، كم تخيلنا سويا أبو مطوة وابو دراع، يقف في منتصف الغرفة ويقلد طريقة "لواحظ" في الكلام فأموت من الضحك. مهما كان من شيء فلا يمكن لأحد أن يجادل أن موهبة هذا الرجل في الخلق الفني كانت استثنائية.

تختلط الأحداث بعد ذلك في ذهني، إلا أن شيئا واحد مؤكدا لا يمكنني أن أخطئه حين أتذكر، أنّ بدء اشتغالنا سويا لتخرج هذه المسرحية للنور كان المسمار الأول في نعش زواجنا، عملنا، وفي حياتنا المهنية نحن الاثنين.

كانت تلك المسرحية هي بداية النهاية، الله يرحمك يا نجيب ويسامحك.

***

يعني حضرة الدكتور فالح بأخذ الخمسمائة جنيه ثمن الكشف ويكتب لي أدوية للذاكرة ثم لا يكون لها اي أثر. هذا الكوجنكس الذي أواظب عليه منذ شهور بلا أي فائدة. الذاكرة في تدهور مستمر حتى أوشكت أن أصير مثل ميمي شكيب وباقي عجائز السينما المصرية.

(٥)

كيف يمكن لي أن أتذكر الحوادث ولا أتذكر ترتيبها، هل بدأ الأمر بشجاره مع جلال الشرقاوي حول إسناد دور "أنظر" لي في المسرحية، أم قراره المفاجئ باعتزال الإخراج المسرحي. جلال الشرقاوي أصلا شخص قذر، قواد ومدعي إخراج ويكرهني دون سبب، لكن مربط الفرس لم يكن هنا. دخلنا وقتها في نزاع سخيف حول إسناد الدور لي، المعركة التي أدارها نجيب بأسوأ طريقة ممكنة. كانت معركة موجهة بالأساس ضده - حتى لا يخرج هذا النص للنور - وضدي - لأنه كان سيعني تقدمي ليصبح من حقي أدوار البطولة. الوسط الفني وسط موبوء، مليء بالحقد والكراهية والمؤامرات، ونجيب، على موهبته، كان أسوأ شخص يمكنه التعامل مع هذا النوع من الأمور. في البروفة مثلا، أو في رصد ميزانية العمل، بمجرد ظهور أي خلافات أو نقاشات ينفعل فيها نجيب بكل عصبية فيضيع حقه ثم

ما يلبث أن يعتذر ويشكو لطوب الأرض. وهكذا، فجأة، وعلى إثر خلاف بسيط مع مسؤول الإنتاج في مسرح الحكيم، خلاف مالي بسيط كان يمكن تجاوزه بكلمتين يقرر نجيب أن يعتزل الإخراج المسرحي، متصورا أنها لطمة يوجهها للمشتغلين بالمسرح وقتها! كانت أبرز صفة فيه - رحمه الله - أنه يستحيل توقع رد فعله! أتذكر بوضوح تلك الضجة التي أثارها نجيب بقرار اعتزال المسرح، ضجة صحفية ضخمة، نعم، لكن على مستوى العمل، على مستوى الواقع العملي، كان هذا القرار هو تقريبا أسوأ قرار اتخذه نجيب ضمن كل قراراته السيئة المتعجلة. ها هي الذاكرة تبدأ في التخاذل ثانية. أيهما سبق الآخر، جلوسه في البيت أم شجاراتنا المتكررة حتى صار البيت مكانا لا يطاق. متى بدأ - على وجه التحديد - يشك في بتلك الطريقة المهينة، قبل تلك الفضيحة التي ارتكبها في مبنى الإذاعة (فأهانني وأهان نفسه أمام كل الفنانين والعاملين وقتها) أم بعدها؟

لماذا تبدو التفاصيل واضحة بينما لا تبدو الصورة كذلك ...

(٦)

تريد أن تعرف أصل الحكاية. أصل الحكاية أن نجيب سرور كان يكره نجيب سرور؛ وأنه رغم كل موهبته الضخمة يكاد يكون لا يثق في نفسه إطلاقا، إطلاقا. كما أنه مقتنع، لسبب ما غامض، أن كل نجاح يحققه هو مجرد صدفة ليس لها علاقة بإمكاناته الحقيقية، والغريب أنه في الوقت ذاته مؤمن بقدراته الاستثنائية ودائم السخرية من الآخرين - لدرجة أنك لو لم تكن تعرفه جيدا فلا بد أن تنزعج من أسلوبه العنيف الجارح. نجيب كان شخصا غريبا، حساس لدرجة فائقة، وأغلب ردود أفعاله ليس لها علاقة بما يحدث على أرض الواقع؛ لكن بأفكار تدور في ذهنه هو فقط لا يعرفها سوى الله، أما غيرته فحدث ولا حرج، كانت شيئا لا يطاق وهي قابلة للاشتعال دون أي سبب أو مبرر حقيقي. أتذكره يسألني ذات مرة دون مبرر، وبلهجة عنيفة - ليس لها كذلك أي مبرر:

- لو قالوا لك تخونيني وتلعبي أهم دور بطولة في السينما، تعملي كده؟

صبحنا وصبح الملك لله. أكون قد تعبت من مجادلته ومن الكلام معه، تكون طريقته الغريبة في الكلام والتفكير قد استنفدت بهجتها القديمة ولم يبق منها سوى وساوس شخص يرى في كل من حوله متآمرين ضده..

أجيبه: لو قلت لك نعم ستصدقني ولو قلت لك لا ستكذبني.

يصر أن يستمر في ذلك الحوار المهين الجارح، أحاول أن أستوعب الأمر وأنفي القصة من أولها لآخرها فأقول:

- لازم حد يعرض عليّ فرصة زي ساعتها أعرف إن كنت أرفض العرض ولا لأ.

يبدأ يصرخ بشكل هستيري، نعم أتذكر الآن، لقد كنا في المسرح، أتذكر أني قلت له في تلك الخناقة - والتي كانت كعادة خناقاتي معه بلا سبب واضح

- وطي صوتك احنا في المسرح

لكن أي مسرح؟ الجيب، الحكيم، الطليعة؟ وأي مسرحية؟ بستان الكرز أم يا بهية وخبريني؟ لماذا يكتب لي الدكتور على هذا الكوجنكس اللعين إذا كنت سأتذكر الإهانة والألم، ولا أتذكر المكان الذي وقعت فيه.

(٧)

في أحد ليالي عرض "ميرامار" يحضر نجيب محفوظ العرض، وهذا أمر نادرا ما يحدث؛ فهو معروف بأنه لا يحضر الحفلات أو المسرحيات – خاصة إذا كانت مأخوذة عن نصوصه. كان في ذلك الوقت قد أصبح نجما راسخا في عالم الأدب والسينما، خاصة بعد الاحتفال المهيب الذي أقامه له هيكل في الأهرام بعيد ميلاده الخمسين، وحضرته الست أم كلثوم بجلالة قدرها. كنت قد التقيت به مرتين قبلها، وعندما وجدته يطرق الباب، هتفت بدهشة:

– أستاذ نجيب، اتفضل اتفضل ..

– عفوا يا افندم، أهلا وسهلا؛ كنت عاوز أسلم على نجيب بعد هذا العرض الجميل. الحقيقة مجهود مدهش!

نجيب محفوظ رجل ناجح، منظم وقادر على تحمل مسؤولية نفسه ومن معه؛ وجوده يشع ثقة تحس بها تماما، ثقة تجعلك تطمئن وأنت جواره، أقارن تلك الطمأنينة بالقلق الذي أشعر به وأنا مع نجيب، زوجي، قلقٌ على نفسي وعليه وعلى كل شيء.

لا أجد شيئا أقوله، وأرى الفضول واضحا في عينيه، ولكنه لا يسأل وأنا بدوري لا أتكلم. ثم تمر لحظات صمت مكتومة وأجد دمعة تفر مني رغما عني.

ويدخل نجيب، ويلقي نظرة نارية علينا، ويمد يده بطريقة مهينة ليأخذ شيئا ما من الدرج، وينصرف دون أن يكلمني ودون حتى أن يسلم على الرجل..

ويستقر في بالي لحظتها أن زواجنا مات فعليا، وأن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر...

كان لها حق زوجته الروسية أن تتركه ينزل مصر وحده، لا شك أنه طلّع دينها هناك كما فعل معي في الشهور القليلة التي عاشرته فيها، هل أنسى المرة الوحيدة التي رأيت فيها أخاه ثروت وقال لي بوضوح:

- نجيب عيان، تعبان، لو قرأت خطاباته لوالده من روسيا لالتمستِ له العذر فيما فعل.

ليرحم الله الجميع، أحياء وأمواتا.

(٨)

تتصاعد الخلافات. أكتشف أني حامل وأتنهد ارتياحا حين لا يكتمل الحمل؛ هذا رجل لا يقدر على تحمل مسؤولية نفسه، كيف كان سيتحمل مسؤوليتي أنا وطفل معي. تسوء حالته أكثر فأكثر (ويتهمني أنني أجهضت نفسي عمدا!) . ننفصل أنا ونجيب. يختفي قليلا ثم تبدأ تنتشر أخبار عجيبة لا تعرف فيها الحقيقة من الشائعات الكاذبة؛ أنه يمشي في الشارع بملابس قديمة ممزقة كالمتسولين، أنه دخل مبنى الإذاعة فعلا ليسجل حلقة إذاعية بتلك الملابس الممزقة، أنه ضرب ثروت عكاشة في مكتبه، وغيرها مما كان يتردد بين الشماتة والرثاء. أنا شخصيا لم أكن لأستبعد منه أي شيء؛ كانت تصرفاته المتهورة تلك وكأنها انتقام من شعوره الأصيل بالخجل والعجز. كنت أحاول أن أتفادى معرفة أخباره أو سيرته وأن أتجاوز تلك المرحلة التي تصورت فيها أنه سيساعدني على اكتشاف موهبتي وقدراتي الفنية، لأكتشف بعد

عشرة شهور أنه عاجز حتى عن مساعدة نفسه. كنت أفكر فيه طوال الوقت وأحاول أن أقنع نفسي أنها مجرد تجربة عابرة ينبغي تجاوزها. تصل أخبار لا نعرف مدى صدقها عن دخوله مصحة العباسية - وقبل أنه ضرب رجال الشرطة العسكرية في الشارع، أفكر أنه ربما كان مريضا فعلا وأن وجوده في المستشفى قد يساعد في تحسين حالته، ولا أنكر أني شعرت في نفسي بشيء من الراحة حين علمت بابتعاده؛ كان مجرد وجوده على القرب مني يسبب لي توترا يستحيل تجاهله، فضلا عن استحالة توقع ما يمكنه فعله؛ كيف أنسى ذلك الحوار الفضيحة لمجلة "الكواكب" الذي أخذ يحكي فيه عن طلاقنا وعن المؤامرة الاقتصادية عليه التي كانت سببا في هذا الطلاق!

تصورت أن الحكاية انتهت، لكن كيف؟ كيف كان للحكاية أن تنتهي بهذه البساطة؟!

(٩)

هذا أذكره بوضوح، اليوم والساعة والمكان وكل شيء.

وقتها، كنتُ أصور فيلم "شيء من الخوف" حسين كمال يمارس نرجسيته في الاستديو كالعادة، أهرع بسرعة لألحق بالأوردر، وطيلة مسافة الممر الضيق من الاستديو حتى غرفة تغيير الملابس أشعر بجو غامض غير مفهوم..

نظراتٌ شامتة أو متعاطفة، ضحكات مكتومة، حالة عامة من الغمز واللمز التي لا تخطئها العين. يخطر في بالي أن مرضه – ربما يكون معديا – وأني أصبت مثله بحالة نفسية تجعلني اتصور أن الجميع يكرهونني...

ثم أكتشف – لاحقا – أن مرضه مُعد فعلا ..

تتردد بلا حياء تلك القصيدة المقززة التي كتبها في مصحة العباسية، والتي كانت شهادة وفاة لمسيرتي الفنية الطموح. تجمع أن يقضي عليّ تماما بتلك الشتائم المكشوفة التي كانوا يرددونها من ورائي - وأحيانا أمامي - بنبرة مواساة كاذبة تنضح منها الابتسامات الصفراء الكاذبة. فضيحة استغلها الحاقدون عليّ كما ينبغي في الوسط الفني الذي تعشش فيه الكراهية بين الجميع والجميع. كانت تلك القصيدة الملعونة مثل طلقة رصاص على كل شيء في حياتي، كل شيء. مشاريعي الفنية، مستقبلي، طموحي، سمعتي بعد ذلك. كانت تلك السموم التي أفرزها عقله المريض في مصحة العباسية - (ولا أعرف ماذا كان الأطباء المسئولين عنه يفعلون هناك، ولا كيف سمحوا له بكتابة وإذاعة هذا الكلام البذيء) كانت هي شهادة الوفاة لكل ما كنت أسعى لتحقيقه، عرفت أني لن أصبح نجمة أبدا، أبدا.

(١٠)

لو اتصل ذلك الصحفي ثانية، سأحكي له كل شيء، ربما يكون لتلك الحكاية معنى بعد كل هذه الأعوام، من يدري ...

نجيب محفوظ*

بذكراه تتحرك في نفسي مشاعر الأسى، وربما الحيرة، حول السبب الأصيل في مأساته، والتي جسّدت في أعماقها مأساة جيل كامل.

سمعت أول ما سمعت به من قصائده المتباعدة التي كان ينشرها في المجلات الأدبية في منتصف الخمسينات، وكانت جرأته الفنية وصراحته في التعبير عن مشاعره مما يلفت الانتباه في ذلك الوقت، وتحدث عنه أحد الأصدقاء من النقاد باعتباره موهبة كبيرة تبشر بثورة في حياتنا الفنية. وما لبثت أن التقيت به أوائل عام ١٩٥٧ في صالون

* نشرت رواية "المرايا" في البداية مسلسلة في مجلة الإذاعة والتلفزيون، وكان يرأس تحريرها في ذلك الوقت رجاء النقاش. ومن بين البورتريهات التي نشرت وقتها هذا البورتريه عن شخصية تبدو قريبة تماما من نجيب سرور، والعجيب أن نجيب محفوظ لم يضم هذا النص في الرواية عندما نشرت في كتاب بعد ذلك (مكتبة مصر - ١٩٧٠)

الدكتور ماهر عبدالكريم الذي كان يقيمه في قصره بالمنيرة، وما أكثر ما عرفت من أهل الفكر في ذلك الصالون العتيد، والذي ما زلت حتى اليوم أتردد عليه وإن تغير زمانه ومكانه، فوجدت إزائي شابا وسيما ذكيا ذا طموح روحي لا حد له، - وإن كان يحاول إخفاء شيء من القلق والتوتر لا يخفيان، وشعرت بالأمل من حماسه وهو يتكلم عن الثورة ونهضتها القادمة لا محالة. وبالرغم من أني لم ألتق به بعد ذلك إلا مرات معدودة، وعلى مسافات متقطعة، إلا أنه ترك في نفسي أثرا يستحق أن يذكر.

كانت انطلاقته الأولى في إطار مهرجان مسرحي أقيم في حديقة الأزبكية عقب إعلان الوحدة مع سوريا مباشرة، وقد أسهم في هذا المهرجان إخراجا وتأليفا وتمثيلا، وتجلت فيه مواهبه المسرحية الكامنة، وبدا -- رغم أنها تجربته الأولى- قادرا على تقديم عمل جذاب وناجح. وذهبت إليه عقب العرض فهنأته وجلسنا بعدها، ولمست من كلامي معه في الموقف السياسي أنه غير مهتم بتفاصيل الحياة السياسية مصريا أوعربيا، ووجدته غير معني إلا بالمفاهيم الفضفاضة الكبرى كالعدالة والخيروالانحياز للفقراء. وبدت آراؤه فيما يجري على الساحة أقرب للانطباعات العامة منها للتحليلات المتعمقة. ثم توالى بعد ذلك نشره لمقالات نقدية في مجلات مصرية وعربية، والتي انطوت على وعي نقدي كبير، وبدا فيها متمكنا من أدواته، وعلى إحساس كبير بالعمل الذي

يتعرض له، كما تجلى واثقا من قراءاته وموهبته، وإن لم يخل من نبرة ساخرة صدامية لم يتخل عنها بعد ذلك. ثم علمت أنه سافر في بعثة دراسية حكومية إلى روسيا عام ١٩٥٩، وكانت الحملة وقتها أشد ما تكون على الشيوعيين، وتساءلت في حيرة عن السر في السماح له بالسفر رغم شكواه طوال الوقت من الاضطهاد، وتخاوفه من منع الجهات الأمنية لسفره، فقال أحد الجالسين ساعتها، وهو صديق مقرب منه:

- إنه يظن أن الجميع يتآمرون ضده. والحق أنه -على طيبته- لا يخلو من لوثة.

وأطلعني على جانب من ماضيه المجهول، فقص علي قصة أبيه وتصرفاته الغريبة، وأنه كان يقسو عليه بعنف قد يصل إلى ضربه، ويجبره على القراءة وحفظ الشعر القديم ليصبح أديبا عظيما! فازداد اهتمامي بهذا الشاب الموهوب الذي بدا لي أن حياته لن تخلو من متاعب. وسرعان ما تأكد ظني عندما ترامى لأسماعنا ما فعله في الاتحاد السوفيتي؛ فقد قيل إنه استغل فرصة انعقاد أحد المؤتمرات التضامنية وقفز إلى المنصة واستولى عليها، وألقى بيانا ناريا ضد النظام القمعي الديكتاتوري في مصر وسوريا! يقول رواة الحكاية إن القاعة المملوءة عربا وأجانب هدرت بالتصفيق، ويضيفون كذلك أن وجوه المسئولين في الجامعة ظهر عليها الضيق، أما المؤكد فهو أنه نجح تماما في إيذاء نفسه دون أن يطلب منه أحد ذلك، بل ودون أن يجني من وراء فعلته هذه أي

شيء؛ فقد فصل من البعثة وألغي جواز سفره هو وزميله الذي ترجم له البيان وطولبت السلطات السوفيتية بترحيلهما للقاهرة فورا. ثارت المناقشات بيننا حول صحة هذا الفعل من عدمه، وموقف الدولة من الشيوعيين وأولويات المرحلة، وشرق بنا الحوار وغرّب فما لبثنا أن نسينا صاحبنا في غمرة ذلك الكلام.

وما لبث ذلك الصديق، وكان متعاطفا معه جدا ومتحمسا لموهبته، أن كتب مقالا عاطفيا بأحد الجرائد مناشداعودته لأرض الوطن، وهو الطلب الذي استجابت له السلطات، فعاد لتبدأ سنوات ازدهاره الحقيقية، تأليفا وإخراجا وتمثيلا. تحول لشعلة من النشاط الفنّي، وأذكر أني حضرت العرض الأول لمسرحيته الشعرية البديعة "ياسين و بهية". وذهبت إليه مهنئا. ورغم لقاءاتنا المعدودة إلا أني كنت استشعر من كلامه مودة عميقة، واحتراما وتقديرا، ثم ثقة لا يمنحها إلا لقليلين، فاعتبرت أننا أصدقاء؛ وقد كنت من جهتي كذلك أبادله مودة بمودة، واحتراما باحترام، وإن لم أخل من قلق عليه، أثبتت الأيام أنه كان في محله.

كان نجمه قد بدأ يلمع بشكل واضح، حتى بدا وقتها أنه يسيطر على المسرح والإذاعة والتلفزيون وكان غزير الإنتاج بشكل مدهش، مع الالتزام بجودة هذا الإنتاج، لكنه كان كثير الصدام بشكل استعراضي.

والتقيت به مرة في سهرة عند جعفر خليل ومجموعة من الأصدقاء في الوسط الفني، وكان النقاش حول الحركة الفنية والمسرحية محتدما وقتها، فصال وجال في الكلام، وكان من الواضح أنه ساخط على الأوضاع المسرحية بشكل عام في مصر، وخمنت أن لديه مشاكل شخصية في العمل! ثم جاء الشيخ زكريا أحمد فملأ الجو بقفشاته وضحكاته وكان هو - كعادته - يملأ المكان بحضوره وملاحظاته الذكية الموحية، وما لبث ان انفرد بي أنا وصديقين آخرين، يستشيرنا في رغبته بالزواج من إحدى الممثلات الشابات في ذلك الوقت، وتعجبت لاختياره فقد كنت أعرفها وأعرف طريقة تفكيرها وسلوكها وملابسها، فضلا عن نظرة عينيها الساخنتين الجريئتين واستجابتها الدائمة المثيرة للقلق، وهو كما عرفته محدود التجارب العاطفية فضلا عن أخلاقه الريفية، والتي لم يكن يبدو أنه بوسعه تغييرها. وقال أحد الصديقين ينصحه بطريقة ملتوية:

- توكل على الله، وكما توجد المنحرفة بين ستات البيوت توجد المستقيمة بين الممثلات.

وضج الجالسون بالضحك. لم أعرف هل تنبه للنصيحة أم لا. لكن بدا لي أن سيطرة الفتاة الجنسية عليه كانت فوق كل تصور. وشعرت أن ثمة تعاسة ملحة تطل برأسها من وراء هذا القرار الذي بدا لي غير حكيم، وفكرت أنه يجدر بي أن أنبهه لشيء من ماضي الفتاة،

ومعرفتي السابقة بها، ربما يجهله، ثم آثرت الصمت، شاعرا أن سفينته تتحرك نحو طريقها المحتوم.

ثم فوجئنا به يعلن اعتزاله للإخراج المسرحي. وجمعتنا بعدها جلسة في بيت أحد الأصدقاء واستفسرت منه عن ذلك في أسى لأن نخسر موهبة مسرحية مثل هذه، فقال بحزن عميق:

- هناك مؤامرة ضدي.

وكان يقصد الهجوم النقدي الذي أحيطت به إحدى مسرحياته في ذلك الوقت، ولم أفهم مقصده تماما فقلت ببراءة:

- ولكن الهجوم وارد أحيانا، وسوء النية موجود مثل سوء الفهم بالضبط.

-أنت لا تفهم، إنني أعلم الأصابع التي دبرت وخططت هذا الهجوم الصحفي المنظم. المسائل أكبر مما يبدو، وهذا لا يخفى على فطنتك.

ثم تلقينا ما جرى في الخامس من يونية بذهول، وبدا لنا وكأننا كنا نقف على أرض من الأوهام، واستبد الضياع بالبعض فاستسلموا للخزي بارتياح شامل، بينما حاولت قلة إظهار تماسكها وثقتها في الغد المجهول. وتكشفت الهزيمة عن أقبح ما في النفوس حينا وعن أطيب ما

فيها حينا آخر، وتجلى بيقين أنه ليس هناك شخص أو شيء يمكن الاطمئنان إليه.

وفي هذه الأثناء، عرفت بانفصاله عن زوجته المصرية فتألمت أشد الألم، والتقيت بأحد الأصدقاء المشتركين، وجاءت سيرة الموضوع فقال وهو يشير بيده بحركة بذيئة:

– أتعرف أنه دخل عليها كواليس المسرح فوجدها نائمة مع روائي شهير.

تذكرت ما حدث، وداريت تقززي من قهقهته وأنا أقول بألم لم يدرك ما وراءه:

– اتق الله فيما تقول.

– صدقني، فأنا خبير في هذا النوع من الأخبار.

وكان من الواضح أنه يسير نحو الهاوية بإخلاص، فكانت تأتينا أخباره الشاذة من آن لآخر، فيما يسيطر علينا جو الهزيمة المكتوم، فلا تزيدنا هذه الأخبار إلا مرارة. وحين عرفنا أنه يسير في الشوارع كالمتشردين يحمل مقشة ويرتدي ملابس بالية قلنا، جُنّ الرجل على الحقيقة. وأثار من الأسى قدر ما أثار من الأسئلة، فقال البعض هو مريض نفسي ويحتاج للعلاج، وقال البعض أنه مولع بلفت الأنظار وأن مسيرة حياته لم تكن إلا

استعراضا دائما، وها هو يواصل جذب الانتباه إليه في وقت لا يجد فيه أحد طاقة - أو مزاجا - للفرجة. وذهب آخرون أنه ضحية من ضحايا نظام كامل قائم على الزيف والأكاذيب والاستبداد، هلك فيه الصادقون والشرفاء وكل الذين كان يمكن أن يحققوا للبلد نهضة حقيقية؛ وأن كل ذنبه أن رأى أكثر مما رأينا وأبصر الهزيمة تنخر كالسوس في دولة كنا نظنها على أعتاب أن تصير دولة عظمى.

ورأيت أن أذهب لزيارته في المستشفى، ولم أتعرف عليه في البداية فقد صار هزيلا وانتفخت عيناه وطال شعره ولحيته. واستقبلني بجفاء لم أتفهم دوافعه، وأخذ يخوض في كل ما يقال عنه بثقة مثيرة للتأمل:

- الحق أن هناك نوعان من الكتّاب، المنافقون وهم الذين يملأون صفحات الجرائد، والصادقون وها أنت ترى مكانهم.

وقال عن عبدالناصر:

- مغفل، وسيدسون له من سيقتله غفلة عما قريب. والأدهى أنهم سيأتون بعده بمن سيجعلنا نترحم عليه.

وقال عن الموقف العسكري:

- ستأخذ المؤامرة شكلا آخر، اليهود والماسون لن يتركونا في حالنا، ربما نفوز في جولة أو أخرى لكن ابصق على ذقني لو لم نجدهم جالسين هنا بيننا عما قريب.

ثم ردد كلاما أقرب للفن منه للتحليلات السياسية أو الاجتماعية، وأخذ يربط بين هاملت ودون كيخوتة والمؤامرة الصهيونية الكبرى والخيانة التي تعرض لها وحالة المسرح المصري، والكتيبة الخرساء التي يتزعمها أبو العلاء المعري، والتي تنتظر الإمام لتخرج للناس فتكشف لهم الحقائق والأسرار الكبرى! والحق أني شعرت بالرثاء نحوه، ووجدتني أقول له دون أن أدري:

- متى ستعود للمسرح؟ المكان الذي خُلقت من أجله؟

ترى لم ضايقه قولي إلى هذا الحد؟ انفعل بشكل صارخ لا مثيل له حتى خفت أن يتطور الأمر، واستأذنت في الانصراف ضاغطا على انفعالاتي وأسرعت بخطواتي خارج المستشفى وقد استقر عندي ما يشبه اليقين أننا لن نلتقي ثانية.

وانقطعت عني أخباره فترة ولم أشاهده إلا بعدها بشهور قلائل مصادفةً في ميدان طلعت حرب أوائل عام ١٩٧٠، وكانت بصحبته زوجته الروسية وابنه، وتبدّى في صحة جيدة. وتذكرت برؤيته جيلا كاملا قضت عليه طموحات ثورة كبرى، تذكرت عشرات وعشرات ممن تلاطمت بهم الحياة، وبرزت وجوههم وسط هالة من الغبار المتعفن كما تبرز الحشرات في أعقاب انهيار بيت آيل للسقوط.

طلال فيصل

منذ فترة ولم يسيطر عليّ هذا الشعور الجميل: أنني لا أزال صغيرا، و أن أحدا لا يزال يتعامل معي باعتباري شابا واعدا في مقتبل العمر. يبدو أنني كنت بحاجة لبدء الكتابة عن نجيب سرور فعلا؛ لأقابل معاصريه - والذين لا يقلون بحال عن الخامسة والسبعين من العمر- فأستعيد ذلك الشعور اللذيذ القديم، أنه لا يزال هناك وقت، وأن العمر لم ينته بعد، وأنه ما تزال هناك مساحة للكثير من الأحلام القديمة والطموحات المؤجلة.

منذ أسبوعين اثنين فحسب - وقبل بدء العمل في كتاب سرور - احتفلت بعيد ميلادي التاسع والثلاثين - كل سنة وأنت طيب يا أستاذ طلال! يومها تجسدت تلك الحقيقة بوضوح؛ أن تسعة وثلاثين عاما قد مرّت، أن الأربعين لم تعد بعيدة كما كان يبدو قديما. صار من المؤكد أن ما تبقى أقل مما مضى، أما الأكثر توكيدا فهو أن ما مضى - خلاص - لن

يعود. كان منظر الزملاء معي في الجريدة (والمتحلقين بابتساماتهم حول التورتة التي أحضروها احتفالا بعيد ميلادي) موحيا ومعبرا؛ أكثر من نصف الجريدة تقريبا - مواليد الثمانينات (والتسعينات!) - يبدون أطفالا بالنسبة لنا. ملابسهم وتسريحة شعرهم ومفرداتهم ونكاتهم تبدو من زمن آخر، أو على وشك أن تصير. الزملاء الذين بدأنا معهم الطريق - وكانوا زملاء جامعة أو زملاء مهنة بعد ذلك - تبدأ تلمح فيهم بأسى محاولة التحايل على الزمن - المكشوفة طوال الوقت والمثيرة للرثاء - أو على النقيض، الاستسلام التام لفكرة السن - بارتداء ملابس كلاسيكية تماما والكلام بنبرة أبوية مدرسية وممارسة دور الشخص السخيف بكفاءة. في ذلك اليوم، كانت ثمة فكرة واحدة مسيطرة بإلحاح بارد، أن المسافة التي مشيتُها كانت طويلة بالفعل، وأن ما تحقق فيها جاء أقل بكثير مما كان ينبغي، ومما كنت أتوقع، والأسوأ، أقل مما كان يتوقع لي الجميع.

ثم يأتي بعد ذلك ثروت، أخو نجيب سرور، ليقول لي بين سعلتين:

- بس والله برافو عليك انك في هذا السن الصغير وتفكر في تقديم كتاب. و تأتي ساشا كورساكوفا - أرملة نجيب سرور وتقول لي عندما نلتقي في أتيليه القاهرة:

- افتكرتك مش تعرف الأتيليه، برافو عليك جيت في معاد مزبوط.

ثم بالإنجليزية:

- والانجليزي بتاعك كويس قوي، انت كنت عايش برة؟

ولا تنتظر الإجابة، بل تعاجلني بالعربية من جديد، لتضيف مندهشة:

- لكن انت صغير قوي، ايش عرفك بنجيب، وايه فكرك بيه دلوقت؟

يقطعني؛ نسيت أن أعرفكم بنفسي. هذا هو عيبي الذي لا أستطيع التخلص منه، العجلة والتسرع وعدم إعطاء كل شيء حقه، أو كما كانت تقول طليقتي، عليها من الله ما تستحق "انت عاوز كل حاجة بسرعة لدرجة انك ما بتعملش حاجة خالص" محسوبكم طلال فيصل. شاب (الشعور الذي بدأت استعيده أخيرا) في منتصف الثلاثينات (التاسعة والثلاثين كما أسلفنا)، مهذب ووسيم ومطلّق، نحيل قليلا، يحب من العلاقات العاطفية أسبوعها الأول ومن الذكر الصلاة على النبي ومن المطربين أنغام ومحمد منير (بحكم الزمن والعشرة) درستُ - ولله الحمد على كل حال - آداب اللغة الإنجليزية في جامعة القاهرة وانتهى بي المطاف صحفيا في صحيفة مستقلة (بين قوسين: المصري اليوم) ومترجما من آن لآخر حسب المزاج وحسب التساهيل.

هناك روايتان يمكن أن أرويهما حول كيفية بدء التفكير في هذا الكتاب؛ والذي أتصور أنه سيكون كتابا مدهشا و ينجح نجاحا مدويا. الرواية الأولى هي الرواية الرسمية؛ أراني الآن – بعين الخيال القريب – أجلس أمام مذيعة مُلونة مزركشة كتب لها الأسئلة معدّ يظن نفسه مثقفا لتسألني كيف بدأت فكرة الكتاب، سأطمئن في مقعدي وترتسم على وجهي ابتسامة شخص واثق ومتصالح مع نفسه – وربما تكون لرمين ساعتها تتفرج على التلفزيون وتسمعني وأنا أجيب بتؤدة وهدوء:

– بدأت المسألة حين كنت أعمل على ترجمة رواية تحمل اسم "جنون *المتاهة*" لكاتب إنجليزي شاب يُدعى آدم فولدز (وهو من مواليد ١٩٧٤، أي أنه يصغرني بثلاثة أعوام فحسب، إلا أنه حاز عدة جوائز عالمية يصيبني مجرد ذكرها بالأسى على العمر الذي راح) الرواية تدور حول شاعرين إنجليزين شهيرين في العصر الفيكتوري، هما جون *كلير* و *ألفرد* تنيسون، واللذين تصادف وجودهما في مصحة نفسية في وقت واحد (عام ١٨٣٧) وكان مجرد التفكير في مبدع قضى فترة في مصحة أمراض نفسية – التيمة التي أردت الكتابة عنها مستوحيا ما فعله فولدز في روايته – لا تستدعي للذاكرة إلا شخصا واحدا. وهكذا، وهكذا بدأ التفكير، ثم العمل في كتاب (سرور)....

***

حين سأتحدث عن كتابي وفكرته سأقول كل ما يمكن قوله، لكني لن أذكر للمذيعة بالطبع أنني بدأت العمل فيه في لحظة كنت فيها بحاجة لفعل شيء، أي شيء. كانت الوحدة القارسة والتفرغ التام لترجمة الكتاب (المهمة التي اكتشفت أنها أكثر إرهاقا وقسوة مما تصورت) ثم العدمية الشاملة التي تطل من كل ركن بالجرنال، أضف لكل ذلك إحساسي القاتل بتسرب العمر. كان هذا الكتاب بمثابة طوق نجاة من الغرق الذي كانت حياتي تبدو متوجهة نحوه بإخلاص. كما أني لن أذكر الحقيقة، حقيقة بداية علاقتي بنجيب سرور، والتي كانت قبل ذلك بقليل، تلك هي الرواية الثانية التي لن يكون هناك مبرر لحكايتها، ولا من يهتم أصلا لسماعها.

***

منتصف التسعينات تقريبا، (لا أذكر بالضبط قبل أم بعد كأس عالم ٩٤ والذي شاهدت مباراته النهائية على مقهى ما واحتفلتُ فيه مع المحتفلين - لا أدري لماذا - بفوز البرازيل على إيطاليا، هل كنت في ثانوي أم كنت قد دخلت الجامعة؟ لعلّي كنت في الجامعة، أو بعدها - على الأقل بالحسابات الزمنية. المؤكد أنني لم أكن قد التقيت بنرمين

(والتي ستصبح المدام بعد ذلك، ثم سأطلقها بعد بعد ذلك) من المؤسف أن يصاب المرء بالزهايمر وهو لم يتخط الأربعين بعد، بينما كل من جلست معهم للتحضير لكتاب نجيب سرور لا يزالون يذكرون كل التفاصيل بكل هذه الدقة. لكن، من قال إن ذكرياتهم هذه دقيقة؟ المرء لا يتذكر ما حدث، المرء يتذكر ما تصور أنه حدث، أو ما أراد أن يحدث. ألا يدل اختلاف الروايات بين الثلاثة الذين جلست معهم حتى الآن - بالإضافة للنص العجيب الذي عثرت عليه لـ نجيب محفوظ عن سرور - أن مسعى الإنسان للحقيقة هو في آخر الأمر مسعى مضحك ومثير للأسى، أو الإشفاق على أحسن تقدير. على كل، وبعيدا عن كل هذا اللغو والسفسطة، ما يهم في هذا السياق هو أنني كنت يومها على موعد لقائي الأول مع نجيب سرور، في سيارة أحمد مجدي، والذي أصبح ضابطا بعد ذلك وانتقل للعمل مع قوات حفظ السلام وانقطعت عني أخباره مثلما انقطعت فيما أعتقد علاقته - وعلاقتي أيضا - بكتابة الشعر (أرجّح الآن أننا كنا قد دخلنا الجامعة، لأن والد أحمد لم يكن يسمح له بالسيارة إلا بعد أن التحق بكلية الحربية وارتدى ملابس الضابط، وأصبح صديقا رائعا ذا قدرات أسطورية بصلاحيات لانهائية للعربدة والمجون) كان معنا صديقان آخران يومها وانطلقنا بالسيارة حتى

وصلنا أول طريق مصر اسكندرية الصحراوي، وعلى مرأى من منظر الأهرامات أخرج أحد الأصدقاء شريطا ما من جيبه قائلا:

- اسمعوا هذا الشريط.

تذكر من فضلك؛ نحن الآن في أوائل التسعينات، حيث سينما عاطف الطيب الغاضبة لسبب ما مجهول، وأسامة أنور عكاشة يكتب مسلسلات يحارب فيها رجال الأعمال؛ الحيتان الذي يبلعون السوق في بطونهم، ووحيد حامد يكتب أعمالا يحارب فيها الإرهاب والتطرف! نور الشريف هو جان أفلام الأكشن وأحمد عبدالعزيز نجم مسلسلات الفيديو فيما يسرا وإلهام شاهين ونادية الجندي - مع حفظ الألقاب - هن الأيقونات التي يمارس عليها الشباب العادة السرية. وقتها، كانت كاسيتات السكس - مع مجلات البلاي بوي وأفلام الفيديو البورنو ذات اللون الأحمر - اختراعا مدهشا مثيرا، كان أشهرها شريط الكاسيت الذي انتشر وقتها وقيل أنه بين فاروق الفيشاوي ومعالي زايد - هللنا جميعا متوقعين أن يكون هذا الكاسيت واحدا منها ولكنه أشار بيده أن نهدأ وأعطى الشريط لمجدي الذي قلّب فيه متأملا، مكتوب على غلافه بخط حبر اسود (أميات) ومشطوب بالجاف حرفان مجاوران يبدو منهما بوضوح أن أصل الكلمة كان (كس أميات)!

وشغلنا الشريط، وتدفق صوت ذلك الرجل العجيب، بذلك الشعر الفاحش، من سماعات السيارة.

ثمة شيء غريب، لا تعرف ما هو لكنه يسيطر عليك وأنت تسمع. نظرنا أنا ومجدي لبعضنا مرة أو اثنين طوال فترة الاستماع، كان يسيطر عليه نفس الشعور - والذي لا يمكنك أن تدرك له اسم مميزا. تفهمتُ تماما إشارت مجدي الحادة لزميلينا بالصمت عندما حاولا المزاح والضحك. كنت أنا وهو نستمع بعمق لهذا الرجل العجيب الحزين. أدركنا بشكل عام من الاستماع الأول المأساة التي عاشها صاحب هذا الصوت كما يرويها بوضوح تام في قصيدته، أنه قد تعرض للتعذيب في أمن الدولة ودسوا عليه المرأة التي تزوجها - ثم جعلوها تنام مع الجميع - ليحطموا أعصابه ويصيبوه بالجنون ويلقوا به في مستشفى المجانين في العباسية، من هذا الرجل المدهش، والذي تعرض لكل هذه المؤامرات وظل فيه عقل ليكتب به هذا الشعر؟ هل كتب شيئا بعد ذلك؟ وإن كان كتب شيئا فكيف يمكن الوصول إليه؟ من هؤلاء الذين يسمعونه ويضحكون؟ في أي ظروف قيلت هذه القصيدة؟ لم تكن الألفاظ - التي اصطلح الناس أنها بذيئة - والتي ترد في الشعر تثير لديّ - ولا لدى مجدي بالتأكيد - أي استهجان ولا سخرية ولا رغبة في الضحك (مثل الصديقين في المقعد الخلفي)، شعرت أنني أعرف هذا الرجل من فترة

طويلة، شعرت أنه صديق عزيز يقص علي حكايته المؤلمة وأنا أجاهد حتى لا أبكي، شعرت أنني أريد أن آخذه في أحضاني، هذا الـ نجيب سرور الذي أسمع باسمه لأول مرة، والذي فتنني شعره كما فتنتني مأساته لدرجة لم أكن أتصورها.

ظللنا أنا ومجدي صامتين فترة ليست قصيرة، ننظر لبعضنا البعض من آن لآخر، نزلنا من السيارة سويا وجلسنا على مقدمتها الأمامية سويا - ودون أن نتكلم - كنا قد قررنا معا معرفة حكاية هذا الرجل.

المسائل الآن أسهل بدرجة لا توصف، في ٢٠١٠ يكفي أن تكتب كلمة نجيب سرور في جوجل - حتى دون استخدام علامتي تنصيص أو إشارة زائد كما علمني أحد الزملاء الشباب - لتظهر لك كل النتائج الممكنة بدءا من ويكيبيديا وليس انتهاء بشريط أميات (والذي كنا نتداوله سرا وقتها) على اليوتيوب متاحا في اي وقت ولأي شخص. أين ذلك مما حدث لي ولمجدي وقتها في رحلة البحث عن نجيب سرور.

أتذكر حماس المراهقين وقتها، أتذكر كل ما ارتكبناه من حماقات بزعم أنها تجارب مهمة للكتابة، والأشعار التي كنا نكتبها أنا وهو ونقرؤها لبعضنا البعض - واثقين أننا سنصبح كتابا كبارا وأن المسألة مسألة وقت فحسب - أتذكر بحنين تعليقه وقتها: "لو كنا نبحث عن سر وجود الله أو شكل الملائكة الحقيقي أو حقيقة ما سيحدث بعد الموت، لو كنا نبحث عن أي شيء ميتافيزيقي لكنا وصلنا لأي نتيجة من أي نوع، لكن صاحبنا هذا - قاصدا نجيب سرور - يبدو كأنه لم يكن موجودا أصلا" فعلا، كانت نتيجة البحث صفرا كبيرا مدهشا بطريقة مثيرة للغيظ. كنا كمن يبحث عن مخلوق أسطوري اختفى من الوجود ولم يخلف وراءه أثرا، أي أثر. حفينا في سور الأزبكية وسوق الكتب القديمة في السيدة زينب وباعة الكتب في وسط البلد علنا نجد له أي شيء، ولم نجد سوى ديوان "لزوم ما يلزم"، مطبوعات الشعب، في أحد المكتبات القديمة (والغريب أننا اشترينا الكتاب بنصف جنيه وحين نزعنا الاستيكر عن السعر القديم وجدناه جنيهين، وتقريبا هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي أجد فيها السعر الأصلي على الكتاب أغلى من السعر الملصق عليه!) سألت أحد الأساتذة في آداب عنه فقال بابتسامة شبه ساخرة:

"انت عرفت نجيب سرور منين؟"

وكان واضحا أنه يشير للشريط إياه، ولم أتكلم فأضاف باستهانة:

"شاعر محدود القيمة و مجنون، كان يشتم في خلق الله والجماعة اليساريين عملوا منه بطل، لن يتبقى منه سوى قصيدة - إن صح وصفها بالقصيدة - هي مجرد بذاءات وشتائم" ثم أضاف بنبرة ذات مغزى "وأنت تعرفها ولا شك" ثم ربت على كتفي بسماجة قبل أن يذهب. أستاذ النقد كان رأيه أكثر تسامحا حين سألته عنه فقال:

"هو أحسن من قدم الشعر المسرحي ولولا ظروفه السيئة لكان قد نقل المسرح الشعري نقلة أخرى"

ولم يبدُ متحمسا لشرح طبيعة هذه "الظروف السيئة" التي منعته من إتمام تطويره المنشود للمسرح! كانت هذه أفضل ما نتلقاه من إجابات وسط إجابات بعدم المعرفة (وكنا قد بدأنا نعتقد وقتها أنه ادعاء بعدم المعرفة لسبب ما مجهول) إلى الإجابات المقتضبة من نوعية "آه، نجيب سرور، الشاعر"، "المسرحي"، "المؤلف الذي توفي في مصحة الأمراض النفسية!" أو "الشاعر المناهض للحكم الناصري والذي قتله عبدالناصر في مستشفى العباسية" وما إلى ذلك. هل هو سننا الصغير وقتها وحماسة الرغبة في خلق دراما، أم أنها حقيقة كنا على وشك اكتشافها لكننا عجزنا عن الوصول، لا أدري، لكني وأنا أتذكر الآن

أستعيد بوضوح اليقين الذي سيطر علي أنا وبجدي أن هناك مؤامرة فعلا على الرجل، وأن أحدا لا يريد الكلام عنه، أن هناك سرا ما لا يريدون لأحد أن يعرفه. بدأنا نشعر بالصمت الكثيف المحاط حوله، وبكل ما في تلك الفترة من العمر من خيال، أفرطنا في تأويل كل شيء بسيط، كل علامة، واستطعنا الوصول لعدة مسرحيات متناثرة، وكان الاهتمام به قد بدأ على استحياء، وبدأت بعض فرق الهواة تعيد إنتاج مسرحياته – وتحديدا "متين أجيب ناس" و "أوبريت: ملك الشحاتين"

في نفس ذلك العام، وفي أحد عروض "قولوا لعين الشمس" بالجامعة التقيت بنرمين، نظرة فابتسامة فكلام فتأتي سيرة نجيب سرور فأكتشف أن أباها مخرج مسرحي وأنه كان يعرفه بشكل شبه شخصي، فلقاءٌ معه – السيد الوالد – وذكريات مدهشة عن الرجل العجيب ثم تتطور الأمور، ويتوارى نجيب سرور إلى الظل وتتصاعد علاقتي بنرمين في سياق مختلف لأجد نفسي بعدها بشهور جالسا مع عمّي – والدها سابقا – في الصالون بالبدلة الكاملة آكل الكيك وأشرب العصير وأطلب يد نرمين ...

صدق أستاذ كل الأجيال نجيب محفوظ حين قال إنه "لا يستطيع تدمير الإنسان مثل نفسه."

تمرّ عدة أعوام، كان مجدي قد انتقل لإحدى الوحدات في سيناء وانقطعت عني أخباره تقريبا. كنت أنا قد تخرجت و بدأت العمل في الصحافة -- وغالبا قبل أن يتم تعييني في الأهرام. أتذكر ذلك اليوم كأنه بالأمس، وأنا أتمشي في وسط البلد، تسقط عيني على اللوح الزجاجي الخلفي لسيارة تركن في شارع شريف، وتحته:

نجيب سرور - الأعمال الكاملة

كتاب أحمر بشريط أسود من فوق يحتل نصفه الأيمن صورة للراحل العظيم أثناء شبابه.

لم أعرف ما ينبغي عليّ فعله، أخذت أدور حول السيارة مثل الأبله، هل صاحبها قريب من هنا؟ ولو وجدته، ماذا سأقول له؟ سأسأله من أين أشترى هذا الكتاب؟ ماذا سيقول عني ساعتها؟ هل هناك نسخ أخرى؟ وقفت جوار السيارة منتظرا أن يحدث أي شيء، ولم تكد تمر دقيقة حتى كان صاحب السيارة واقفا مبتسما بجواري.

يا ابن الكلب!

وتعانقنا أنا وأحمد مجدي، والذي لم أكن قد رأيته منذ يوم زواجي.

دخلنا أنا وهو منفذ بيع هيئة الكتاب بشارع شريف والذي اشتريت منه أعمال نجيب سرور الكاملة. أربعة مجلدات متراصة جوار بعضها البعض في الفاترينة، دونما أدنى مبالاة من المارين في الشارع بذلك الحدث العظيم الجليل! اشتريت نسخة (ثم اشتريت نسخة أخرى لجمايا، والذي كنت أعرف أنه سيأخذها بسخافته المعهودة، رغم أنه تبين لي بعد اللقاء الأول معه أن علاقته بنجيب سرور كانت سطحية تماما، بالأحرى لم تكن هناك أي علاقة، حيث لم يتعدّ الأمر كونه حضر له محاضرة أو اثنتين في أكاديمية الفنون المسرحية ثم حضر له مسرحية *أوكازيون* والتي كانت تقريبا آخر مسرحياته قبل موته) ثم جلسنا سويا على مقهى قريب بشارع شامبليون. سلامات وتحيات، عرفت أنه أنهى نوبته في سيناء وتمت ترقيته لرائد والأهم، أنه ذاهب للكونغو مع قوات حفظ السلام - بما يعني أنه سيقبض بالدولار، فضلا عن أنه ظل محتفظا بعقله فلم يتزوج. حكيت له عن المرمطة بين الجرائد الحزبية ومحاولة الدخول لمملكة إحدى المؤسسات القومية الثلاثة، سألني عن نرمين وعن الزواج فقلت له أن الحمدلله! امتد بيننا حوار الحاضر والماضي، ما كان وما هو كائن، إلا أن أهم ما حدث وقتها هو أنني رجعت البيت وقد استرجعت كل طاقتي القديمة - طاقتنا القديمة - في العثور على نجيب سرور، وفي كشف لغز هذا الرجل المجهول.

ما هذا الرجل؟ من هذا الرجل؟

لم أفعل شيئا طوال يومين بعد ذلك سوى قراءة المجلدات الأربعة وممارسة الدهشة الخالصة. ما هذه المسرحيات التي تقف على حافة الشعر؟ وما هذا الشعر الذي هو بمثابة مرآة للحياة التي عاشها هذا الرجل؟ ما هذا الصدق والحساسية في "بروتوكولات حكماء ريش" والذين لا يختلفون عن المثقفين والشعراء الذين أراهم يوميا - والذين سيُعرفون بعد ذلك بشعراء التسعينات - والذي كنت أراهم أيامها على زهرة البستان؟ وما هذه الثقافة الموسوعية من الشرق والغرب والظاهرة من استشهاداته في مطلع المسرحيات أو مفتتحات الدواوين؟ يستوقفني ما يقوله د.عصام الدين أبو العلا في مقدمة المجلد الأول:

(لم ينل نجيب سرور حظه من الدراسة الجادة حتى الآن وليست هذه الدراسة سوى محاولة للتعرف على بعض جوانب فنه المسرحي)

إنه يتحدث عن نجيب سرور باعتباره كاتبا مفقودا من عصر الحفريات بحاجة لتنقيب وبحث للعثور على أعماله، وليس كاتبا ظهر بعد عصر التدوين والتسجيل والطباعة.

ثم يؤكد د.عبدالعزيز حمودة نفس المعنى بتقديمه للمجلد الثاني قائلا:

(ومما يلفت النظر أن المهتمين بالمسرح لا يعرفون نجيب سرور إلا من خلال أعماله الأربعة الكبرى التي يجمع فيها بين التراث والفلكلور بينما تظل أعماله النثرية غير مكتشفة بعد)

غير مكتشفة؟! بدأت أستعيد بوضوح شكوكي أنا وتحدي أيامها. أين أعمال هذا الرجل؟ أين ذكره (دع عنك سؤال: أين الاحتفاء به) جلست في حماس وأحضرت ديوان "لزوم ما يلزم" النسخة القديمة مطبوعات الشعب ولسبب ما قررت أن أقارنها بنسخة الهيئة الصادرة حديثا - وقتها.

وتطل المؤامرة بظلالها مرة ثانية..

نسخة الشعب التي اشتريتها قديما نسخة منقحة - ومهذبة - للديوان الأصلي، وهذا بافتراض أن الديوان المنشور في هيئة الكتاب هو الديوان الأصلي.

تجد مثلا في الفقرة السابعة عشرة - صفحة ٢٠ مطبوعات الشعب و١٣٥ نسخة الهيئة، تم حذف فقرة:

يا سيداتي يا أميراتي الحسان
صليت في الماخور كي أعرف أسرار الطهارة
وزنيت في المحراب كي أسبر أغوار الدعارة

لكن شيئا واحدا لم أقترفه..هو اللواطة

وفقرة ١٩ تم حذفها بالكامل والتي يقول فيها:

الحق قال الأولون

(مات الذين يختشون) !

ماتوا وعاش الداعرون

الفاجرون

انظر إليهم يعرضون

عوراتهم..مثل البغايا في المعابد

ومثقفون

فيما يقال..مثقفون!

الحق قال الأولون:

(مات الذين يختشون) !

يستبد بي الحماس فأقوم لأفتح النيش الزجاجي وأبحث عن أوراق لأسجل فيها هذه الخواطر والملاحظات. أكتشف أنني منذ زواجي وأنا بلا مكان محدد للكتابة، وأنني لم أشترِ أوراقا وأقلاما منذ فترة. أعثر على قلم رصاص وكراسة قديمة وأدون. في الفقرة العشرين في النص الأصلي (١٩ في مطبوعات الشعب) تم حذف السطرين الأخيرين:

ونكاد نقذف في وجوههم المثل

يا بئس حظ اثنين: عيانٌ يضاجع ميتة.

عجيب أمر الذاكرة، يستحيل أن تدرك كيف تعمل بالضبط. لا أذكر إطلاقاً ما حدث بعد ذلك في تلك الليلة، لكني أذكر بوضوح تام أن نرمين كانت نائمة وأنها قامت من النوم لتشرب، وأنها في طريقها للمطبخ ألقت عليّ نظرة ما، لا أعرف كيف أصفها لكني أذكر بالضبط، بالضبط، الطريقة التي نظرت لي بها وأنا محاط بالأوراق والكتب من حولي على الأرض، في لحظة واحدة شعرت - أو أدركت - أنني أرى ملامحها الحقيقية لأول مرة، أنها ليست جميلة كما يبدو لكل من يراها، شعور غامض أن ثمة قناع ما كان يغطي وجهها وسقط بغتة ليكشف عن سحنتها الأصلية.

خرج صوتها غريبا وهي تسأل:

- انت بتعمل ايه؟

ولا أذكر بم أجبت لكني أذكر أنها هزت رأسها وقالت وهي تعود للفراش.

- طيب، ما تنساش تطفي النور بعد ما تخلص. تصبح على خير.

هل هذا ما حدث، أم أن الذاكرة تلعب دور المخرج المسرحي وهي تستعيد الأحداث لترسم جوا من الغموض يليق بعودة حماسي لنجيب سرور ولمعرفتي بالأحداث اللاحقة. المشكلة الأزلية أننا نتذكر الماضي ونحن نعلم ما سيحدث بعد ذلك، لتختلط الذاكرة بانطباعاتنا الحالية، ويختلط الذاتي بالموضوعي، الوهم بالحقيقة، والمهلبية بالمكسرات.

لماذا كل هذه السفسطة. المهم أنني استعدت حماسي للكتابة عن نجيب سرور، وهو الحماس الذي لن يكون له أي مردود بعد ذلك، على الأقل في وقتها!

حتى تنغلق هذه الدائرة كان ينبغي أن أحاول الكتابة عن نجيب سرور ولغز حياته، بداية من دخوله العباسية مرورا بنهايته المأساوية وصولا إلى طمس كل المصادر المتعلقة به. كانت نقطة البداية في التحقيق الذي كنت أريد كتابته هو: هل كانت هناك مؤامرة - فعلا - للقضاء على نجيب سرور حيا، ثم ميتا؟ غلق كل الأبواب في وجهه، ثم إدخاله مستشفى الأمراض العقلية، وبعد خروجه منها منع مسرحيته "الذباب الأزرق" وطرده من معهد الفنون المسرحية ثم تشرده وموته المبكر، والأهم من ذلك، منع تقديم أعماله المسرحية بعد وفاته وعدم نشر مؤلفاته إلا بعد وفاته بعشرين عاما. ما الذي كان يعرفه هذا الرجل

ويراه ويريد أن يصرح به، واتفق الجميع على منعه من ذلك. والمثقفون؟ من الواضح تماما - على الأقل بقراءة أبيات وبروتوكولات حكماء ريش - أن علاقة سرور بأبناء جيله من الفنانين والكتاب لم تكن على ما يرام، لكن هل يفسر ذلك صمتهم على التعريض به؟ ثم الرغبة في إخفاء سيرته تماما بعد وفاته؟ كان الأمر يبدو غريبا، بقدر ما كان مُحرضا على الكتابة.

كانت فكرتي هي كتابة تحقيق حول نجيب سرور منطلقا من هذه النقطة، المؤامرة على الرجل؟ هل تحالف المثقفون والنظام ضد هذا الرجل وضد أفكاره؟ فكرت أنّ أنسب مكان لهذا التحقيق هو جريدة الدستور، والتي كانت مفعمة بالجنون وبالطاقة وقتها، متصورا أن يتم نشره في أكتوبر ١٩٩٨، مع الذكرى العشرين لوفاة نجيب سرور، وقبل أن أتصل بإبراهيم عيسى تم إغلاق الجريدة فلم أجرؤ على أن أحادثه في شيء! توجهت لروز اليوسف وجريدة العربي - ولا أذكر لم تعطل الأمر - ثم عرضت الفكرة على صلاح عيسى لأنشره بجريدة القاهرة ولم يبدُ متحمسا تماما - لسبب ما غامض عجزت عن معرفته - لكنه منحني بعض المعلومات الجيدة وأهمها توصيلي بشهدي سرور، ابن نجيب سرور. التقيت به، وكان يعمل وقتها مصمما لصفحات الإنترنت في الأهرام ويكلي وبدا متحمسا تماما لفكرة إحياء تراث والده الراحل

وأكثر حماسا لفكرة أن هناك مؤامرة ما جرت لمحو والده من السجلات الفنية والأدبية. كان شهدي وقتها - كما أخبرني - بصدد إنشاء موقع إلكتروني عن والده وزودني بأوراق ومواد صحفية بالغة الأهمية. في هذه الأثناء حملت نرمين، الحمل الذي كان تأخره سببا في توتر علاقتنا في الفترة الأولى. ابتهجنا قليلا وبدأت أعتني بها كما يليق بزوج مُحب في بداية زواجه. بعد شهرين تقريبا نكتشف أن هناك شيئا في الحياة يعرف بالحمل العنقودي استفاض الطبيب يومها في شرحه ولم أفهم منه شيئا سوى أنه لن يكون لي ابن، وأن نرمين ينبغي أن تجري عملية تفريغ للرحم بواسطة الشفط. أجرت نرمين العملية وخرجت منها أقل وزنا وأكثر كآبة. لسبب ما قرّرَت أنني المسؤول عما حدث - مع أنه لم يحدث شيء - وخرجت سليمة من العملية. بدأت تصرح بقناعتها أن زواجنا لم يكن أكثر من خدعة نجحتُ بدهائي في توريطها فيها! ذهبَت لبيت أسرتها بدعوى طلب الراحة والرعاية، وفي الحقيقة هربا مني ومن البيت، والذي اكتشفتُ بتركها له أنه اصبح أكثر هدوءا واطمئنانا. حاولتُ العودة لـ نجيب سرور لكن لم أجد طاقة نفسية للعمل فاتصلت بشهدي أؤكد له أنني أواصل العمل وأنني سأتصل به لاحقا لأرتب موعدا آخر. قضيت نهارات طويلة في اللاشيء: النوم وأكل ما يبقيني على قيد الحياة والرقاد في السرير رأسي تدور في الفراغ. نجحتُ بعد عدة زيارات في إعادة نرمين للبيت وتحملتُ سخافة والدها الذي يعتبر نفسه

ستانسلافسكي المسرح المصري، ثم تصاعدت وتيرة شجاراتنا بشكل لا يطاق ولأسباب لا يمكن تصورها - أنني كسرت طبقا من الصيني، أنني لوثت السجادة بجزمتي، أنني تركت ملابسي الداخلية على الحوض أو أنني نسيت شراء لبن وأنا عائد مساء - كانت نبرة صوتها في حد ذاتها تمثل استفزازا لا يطاق - بعيدا عن مضمون الكلام نفسه. عادت إلى بيت والدها الفنان العظيم، ويبدو أن وجودها كان يغلق أبواب الخير فلما اختفت فُتحت تلك الأبواب؛ اقترح أحد الأصدقاء أن أقوم بترجمة فصل من كتاب سيصدر مع أحد دور النشر اللبنانية ثم التحقت بالأهرام بعقد مؤقت - ليتم تثبيتي بعدها بسبع سنوات - ولا حول ولا قوة إلا بالله. يحدث الطلاق الذي لم يكن منه بد وأضطر للاقتراض من والدي لسداد باقي مستحقاتها المالية، تؤكد والدتي أنها لم تكن راضية أصلا عن هذه *الجوازة* وأجدني منهكا لدرجة أني حتى غير قادر حتى على الرد أو المناقشة. أنقطع عن العمل شهرين أو ثلاثة - يرتب فيه أولاد الحلال أموري حتى لا يتم فصلي - ثم أعود. أدخل في عدة علاقات عابرة من تلك التي تدوم أسبوعا أو اثنين وتنتهي بفراغ أسود ضخم يمتد فوق روحك لشهور. تستقر حياتي كصحفي وأدخل النقابة وتبدأ الترجمة تتحول لمصدر دخل لا بأس به يضمن لي الحفاظ على نفقات العلاقات العابرة والفراغ الأسود، بالترتيب.

هكذا تسربت الأيام ، فكيف كنت سأجد لنجيب سرور مكانا وسط كل ذلك؟

أحيانا كان يخطر في بالي أن كل هذه الأحداث القاسية التي مرت بها حياتي هي جزء من المؤامرة الكبرى التي كان نجيب سرور مؤمنا أنها مدبرة ضده. كنت أشعر بسخافة الفكرة مدركا أنني بكل سماجة ألقي مسؤولية فشلي وتكاسلي وعدم قدرتي على التعامل مع الحياة فوق شماعة مؤامرة وهمية كانت في بال شاعر مظلوم ومضطهد تحت وطأة ضغط نفسي؟

مؤامرة وهمية؟ هذا يعيدني لموقفي الرئيسي من نجيب سرور، هل كان كل ما يدور في باله مجرد أوهام؟ أكتشف، كلما خطر في بالي، أنه - نجيب سرور - صار جزءا من ذاكرتي الشخصية لدرجة أنني نسيت أن أتخذ موقفا منه، موقفا نقديا من أدبه أو موقفا نفسيا من حياته وسلوكه. أتذكر أميات فأتذكر وقفتنا أنا ومجدي في السيارة نسمعها، أتذكر شراء أعماله، محاولات كتابة تحقيق عنه ومقابلة معاصريه والذي مُني بفشل مذهل، الموعد الذي أعطيته لشهدي من سنتين أو أكثر ثم اختفائي تماما. يغيب عن خاطري نجيب سرور أحيانا ويومض، ثم ما نلبث أن نجد أنفسنا جميعا أمامه ثانية عام ٢٠٠١ ودون سابق إنذار.

لقد صدر حكم فوري بالحبس ضد شهدي ابنه، في سرعة مريبة، وفي واقعة هي الأولى من نوعها تقريبا!

كان شهدي قد أنشأ الموقع الإلكتروني الذي حدثني عنه بالفعل، موقع مخصص لوالده يتضمن بعض قصائده (ومنها أبيات بالطبع: كتابة وصوتا) بالإضافة لسيرة ذاتية مختصرة وبعض الصور. لم تكن علاقتي بالإنترنت قوية لكني دخلت على الموقع وشعرت بشيء من الإحراج للحماس الذي أظهرته في إحياء سيرة الرجل ثم اختفائي بعد ذلك دون حتى أن أعتذر لابنه، والذي ساعدني وقتها بكل ما يستطيع. استوقفتني العبارة التحذيرية التي كتبها في صفحة الموقع الأولى، أن قصيدة والده من "شعر الصدمة"، وأن زوار الموقع عليهم الانتباه فهي تحتوي على عبارات "قد يعتبرها البعض غير مقبولة أو خارجة".

ثم في يوم ٣٠ يونية ٢٠٠١، داهمت قوة من شرطة الآداب منزل شهدي سرور وصادرت جهاز الكمبيوتر الخاص به، وبعض الأقراص المدمجة، وصحف ومجلات روسية، وأشرطة فيديو قالت الشرطة إنها تحتوي على أفلام إباحية. وجهت له الشرطة تهمة حيازة مواد إباحية بهدف نشرها وتوزيعها. كان بالطبع موضوعا صحفيا مغريا لكل الجرائد كما وجدتها منظمات حقوق الإنسان مناسبة جيدة لإثبات حضورها - ولحسن الحظ لم يكن هناك وقتها طوفان التوك شو الموجود

الآن - تطوع نجوم سبوبة حقوق الإنسان للدفاع عن شهدي وقالوا كلاما تم اختياره بعناية ليصبح مانشيتات لجرائد المعارضة وقتها - الوفد والعربي والأسبوع - من نوعية "إن هذه القضية هي محاكمة لشخص بسبب قصيدة كتبها والده الذي مات قبل أكثر من عشرين عاماً" و"إن هذا مؤشر خطير للغاية، ويمثل موجة جديدة من المصادرة والرقابة على الأعمال الأدبية على شبكة الإنترنت التي تعد آخر ملاذ لحرية التعبير" وما إلى ذلك. المثير للتأمل أنني لم أستطع كتابة حرف واحد في هذه القضية، حاولت أكثر من مرة وكانت الكتابة تخرج في كل مرة أكثر رداءة من سابقتها. كنت أشعر أن نجيب سرور ملكية شخصية تم انتهاكها بهذا الحادث الفج، وسيطر علي شيء من تأنيب الضمير وأنا أتذكر شهدي وحماسه لتقديم كتاب عن والده. كان طوفان المقالات والحوارات بالنسبة لي مثيرا للغثيان فسكت ولم أتكلم - للإنصاف ينبغي أن أشير لمقالة وائل عبدالفتاح التي كتبها وقتها في العربي وكان عنوانها "فضيحة كاملة الأوصاف" كانت مقالة بديعة عن الرجل وشعره وحياته الصاخبة ورحيله الحزين، شعرت بشيء من الأسى وأنا أقرؤها - وربما الغيرة - اتصلت به مهنئا وتبادلنا الشجون والشكاوى والنكات التي تخفي وراءها مرارة بلا حدود، ثم التزمت الصمت تماما.

صدر الحكم ضد شهدي، والذي هرب لروسيا. استعدت مسيرة الراحل العظيم ومسيرتي معه. بدأت أفكر في المؤامرة وفي الزمن وفي العبث الذي يحيط بنا من كل جانب.

مرت عشر سنوات كاملة، وهاأنذا في الأربعين إلا قليلا.

وها أنذا أبدأ البحث عن سرور من جديد!

في الأتيليه، تخبرني ساشا بثلاثة أسماء لثلاثة أطباء تابعوا حالة نجيب سرور في المصحات النفسية، أبدأ رحلة البحث بالخطوة الأسهل، الوصول للطبيب عبد السلام محسن، والذي اكتشفت، بمجرد الاستعلام عن اسمه، أنه عَلَمٌ من أعلام الطب النفسي في مصر. أستاذ جامعي مرموق وله عيادة شهيرة بوسط البلد ومنتجع أشهر لعلاج الإدمان بالقطامية فضلا عن استضافته الدائمة في برامج التلفزيون. شاهدت له حلقة مسجلة على اليوتيوب وكان النموذج العكسي للطبيب النفسي كما أتصوره، على الأقل كما نراه في الأفلام، (الطبيب النفسي الذي أعتقد أنه قريب من الإبداع بشكل أو بآخر، قريب من الجنون بقدر ما هو بعيد عنه، بحكم المهنة وبحكم أن طباخ السم يذوقه) في الفيديو كان عبد السلام يرتدي بذلة زرقاء أنيقة، و بشعره الأشيب الوقور ولحيته المشذبة بعناية الشبيهة بلحية شباب الإخوان

المسلمين: صوته المعدني وكلامه المرتب طوال الوقت في نقاط محددة، كانت المذيعة تسأله في عبارات طويلة ومشوشة فيعيد هو صياغة السؤال بدقة ليحدد المطلوب منه ثم يجيب بشكل واضح ومفهوم تماما. فكرت، التعامل مع هذا الرجل سيكون سهلا؛ واحد اتنين نريد كذا، واحد اتنين تفضل، وكان المطلوب فقط هو معرفة رقم تليفونه.

أتصلُ على الرقم الذي قال لي صديق صحفي أنه رقم الدكتور عبد السلام محسن الخاص:

- ألو...

ترد علي فتاة؛ يبدو من صوتها أن اسمها بسنت:

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- الدكتور عبد السلام محسن؟

- إن شاء الله، تحت أمر حضرتك يا افندم.

تنتابني رغبة أن أقول لها: طيب ناوليه الموبايل والنبي يا عروسة، أحترم نفسي وأقول بدلا من ذلك:

- أنا طلال فيصل، صحفي ومترجم وأكتب كتابا عن نجيب سرور والفترة التي قضاها في المصحات النفسية وكنت أريد أن أستفسر من الدكتور عبد السلام عن بعض التفاصيل.

العروسة يبدو أنها لم تحصل على الشهادة الإعدادية بعد؛ اللهم طوِّلك يا روح.

– حضرتك تريد إجراء حوار للجريدة مع الدكتور عن المصحة النفسية؟

– إجراء حوار بخصوص نجيب سرور، نجيب سرور.. الشاعر...الكبير الراحل.

صوت خروشة؛ لا بد أنها تتهجى كلمة سرور.

– والحوار سينشر في أي جريدة؟

أقول لها اسم الجريدة التي أعمل بها ثم أردف بوضوح :

– هذا ليس حوارا لينشر في جريدة، أنا أعد كتابا عن نجيب سرور.

لا يعجبني الغباء قدر ما يعجبني الإصرار عليه، تقول الفتاة:

– تمام ، يعني حضرتك استاذ طلال تريد إجراء حوار لصحيفة المصري اليوم بخصوص الشاعر الكبير الراحل سرور.

– نجيب سرور..

- تجيب سرور.

-. تمام، بالضبط كده.

- أنا سأبلغ الدكتور وسنتصل بك لتحديد موعد المقابلة.

- شكرا.

- جزاك الله خيرا.

لم يبدُ الدكتور عبد السلام محسن متحمسا تماما حين اتصل بي بعد ذلك ليفهم بالضبط ما أريد، بعد أن شرحت له أنني أريد مقابلته تحضيرا لكتاب وليس حوارا لجريدة قال فيها يشبه الفتور:"كتاب؟!" سأل عن عدة تفاصيل متعلقة بمضمون الكتاب و الشكل الذي ستظهر به مشاركته فيه وموعد النشر، ثم قال:

-. على أي حال أنا لم أعاصر من الفترة التي قضاها الراحل في العباسية إلا أربعة شهور عام ١٩٦٩، لا أظن أن لدي الكثير لأقوله، لكن على أي حال، لنلتق يوم الاثنين بعد انتهاء العيادة، نجلس نصف ساعة مثلا، أظن هذا سيكون كافيا.

طوال جلستي - التي لم تتجاوز بطبيعة الحال النصف الساعة المقررة لي - لم أشعر بارتياح كبير لعبدالسلام محسن، الشبيه بساعة

سويسرية دقيقة. بداية من تصميم عيادته الفاخرة المزدحمة بالمرضى التي وجدتها مثل آلة متقنة الصنع أنيقة التكوين لكن بلا روح. نوع من البشر تشعر أن الله خلقه من طين نعم، لكنه لم ينفخ فيه من روحه! أفكر، هذا رجل ناجح وعالم في مجاله فكيف لصعلوك مثلي؛ ضيع حياته على المقاهي وسط الصحفيين والشعراء والصعاليك والأوباش أن ينتقد رجلا مثله أو يشعر بعدم الارتياح تجاهه، غير أن فكرة الحديث مع رجل مثله عن نجيب سرور بدت عبثية. شعرت بشيء من التناقض بين قناعاتي عن سرور - المؤامرة والأميات والجنون والعبقرية، وبين العالم الصارم لهذا الطبيب الذي يبدو أنه ليس لديه وقت لما سأقوله من هراء. في أول اللقاء وبعد تحية مقتضبة يسألني بابتسامة حازمة:

- مجهز الأسئلة؟

وأبدأ العب في أوراقي وأجيب بكلمات مبعثرة فيستطرد:

- حتى لا نضيع الوقت وأجيبك بالضبط لما تريد.

- تمام، هو أنا باحضر كتاب عن نجيب سرور ومهتم بالفترة التي قضاها في مصحة الأمراض العقلية. حضرتك قلت لي أنك كنت مسؤولا عنه في مستشفى العباسية.

- تمام، أنا كنت النائب - الطبيب المقيم، بمستشفى العباسية وقتها عندما تم إحضاره للمستشفى من قبل ضباط الشرطة العسكرية الذين كان قد اصطدم بهم وتشاجر معهم. كانت حالته الصحية سيئة للغاية وكان يعاني من هياج مفرط. طبعا وقتها كان الطب النفسي لا يزال في البدايات ولم يكن التعامل مع حالات الطوارئ النفسية متقدما كما هو الآن. أنا لا أذكر بالطبع تفاصيل حالته الآن، لقد مر زمن على ذلك، كما أنني لم أتابع حالته للنهاية لأنني بعد عدة شهور انتقلت للعمل بالجامعة - قصر العيني وتركت العباسية.

- وتولى علاجه بعد ذلك د. كمال الفوال، أو ...

وأبدأ ألعب في أوراقي ثانية فيقول في نفاد صبر:

- لا، كمال الفوال في اسكندرية، أظنه هو من أشرف على علاجه في المعمورة بعد ذلك في السبعينات.

- تمام. مدام ساشا قالت لي كذلك أن الدكتور جلال الساعي كذلك كان شاهدا على وجوده في المصحة النفسية.

هل تغير وجهه عندما قلت ذلك؟ هل أخطأت في شيء ما؟ لا أدري، لكنه قال باقتضاب:

- آه، جلال طبعا كان موجود وقتها في العباسية.

- حضرتك معك رقمه أو طريقة الوصول إليه؟

يجيب بحسم:

- لا، للأسف رقمه ليس معي!

ثم يضيف، كأنه راغب في إنهاء الحوار:

- على كل حال، أنا أظن أن ما سيفيدك أكثر مني الملفات القديمة لنجيب سرور ودخوله العباسية.

الملفات القديمة؟ ألا تزال موجودة؟ أتحسس الكنز الذي أنا على وشك العثور عليه.

- جميع أوراقي وملفات مرضاي في الشهور الأربعة التي قضيتها موجودة هناك، أو المفترض ذلك، ما لم يكونوا ضيعوها أو بددوها بإهمالهم. ستجد فيها تقاريري الطبية المتعلقة به وكذلك الأوراق التي كان يكتبها طوال وجوده بالمستشفى.

ويقوم من على الكرسي ويتحرك نحو المكتب باحثا عن شيء، وما يلبث الباب أن ينفتح وتقول السيدة التي كانت على وشك الدخول:

- آسفة، تصورت أنه ليس هناك أحد هنا.

يشرق وجه عبدالسلام محسن بابتسامة عذبة وتطل منه نظرة خلاف النظرة التي تراها منه في العيادة أو في التلفزيون:

- لا، لا، تعالي. أنا خلصت. دا الأستاذ طلال، صحفي وبتعمل حوار.

المرأة التي في الستين تقريبا يبدو بوضوح أنها كانت جميلة في زمان قديم، بل حتى وهي في عمرها هذا تبدو ذات سحر شبيه بالهوانم القديمة في أفلام الأبيض والأسود، ويقول د.عبدالسلام مُعرفا:

- د. آية نوار، أستاذ الباثولوجي بالقصر العيني، زوجتي.

أنا رجل مولع بالهوانم من قديم؛ أعرّف نفسي:

- طلال فيصل: صحفي ومترجم وأعد كتابا عن الشاعر الراحل نجيب سرور.

فتهتف لي بحماس حقيقي:

- أنت بتجهز كتاب عن نجيب سرور، برافو عليك. هذا الرجل كان شاعرا عظيما.

– عن حياته والفترة التي قضاها في مستشفيات الطب النفسي.

– واو، موضوع هايل فعلاً. برافو عليك والله. عندك طموح مدهش رغم سنك الصغير!

كيف تعيش هذه الهانم المثقفة الأنيقة مع هذا الرجل الممل الذي لا يبدو عليه أي اهتمام بالثقافة أو الفنون.

أتحدث أنا وهي قليلاً عن نجيب سرور، تبدو ذات اهتمام حقيقي – لا يخلو من سذاجة بالصحف والروايات، ربما يفرغ الدكتور عبدالسلام محسن مما كان يفعله على المكتب فيناولني الكارت الخاص به وعليه توقيعه قائلاً:

– اذهب إليهم في أمانة الصحة النفسية بمستشفى العباسية وابحث في الأرشيف عن ملفات الدكتور عبدالسلام محسن. وها هي توصية مني.

ثم بابتسامة – وقد استعادت مهنيتها الباردة:

– بالتوفيق، Good luck.

أحدق في الكارت واشكره وأنصرف. أكاد أشك أني سأجد هذه الأوراق التي يتكلم عنها الدكتور عبدالسلام، لو وجدتها ستكون

اكتشافا مذهلا. تلوح في خاطري نرمين دون مبرر وأفكر في هذا الدكتور الذي لم أحبه أبدا، فكرت وفكرت أنه بدا مختلفا نوعا ما مع دخول زوجته، شعرت بشيء من الدهشة للعلاقة الحميمة اللطيفة التي تبدو بينهما ولكن لم يزايلني شعوري العام بالنفور منه ومن طريقته الميكانيكية في التفكير وقلت في نفسي أنه حتى الآلات ربما تكون لها عواطفها كذلك.

***

بعد عدة أيام كان اللقاء بالدكتور جلال الساعي. بدا اللقاء به، بعد الدكتور عبدالسلام محسن، أشبه بانتقال من عالم لعالم آخر. بداية من الجهد الذي بذلته في العثور عليه؛ فلم يبدُ أن أي أحد يعرفه – ولم أجده في النهاية إلا بالطريقة التي يستحيل أن تخطر في بالك: البحث في دليل التليفون! ثم الوصول إلى عيادته. مسألة "عيادته" هذه فيها كلام؛ هل هذه عيادة؟ لفت انتباهي – بخلاف الشارع الجانبي الضيق الذي تقع فيه في ميدان الباشا بالمنيل، اللافتة التي تحمل اسمه، تلك اللافتة القديمة المتآكلة التي تعلو بلكونة أحد البنايات القديمة بالشارع:

دكتور جلال الساعي، استشاري الأمراض النفسية والعصبية، مصحة لابورد النفسية، فرنسا.

لم يكن هناك حين ذهبت إليه أي مرضى، ولم يكن هناك أي إشارة أن ثمة مرضى يجيئون أصلا إلى هذا المكان؛ لم يكن هناك سكرتير أو ممرض. كان الباب مفتوحا فدخلت، وقفت في الصالة لا أعرف ما ينبغي فعله، أدخل؟ أم أخرج وأدق الجرس؟ لم تطل حيرتي فقد خرج لي الذكتور جلال - يبدو أنه كان خارجا من الحمام حيث كانت كفاه مُبللتين؛ صافحني بأن منحني مرفقه لأسلم عليه بدلا من يده المبللة وهو يبتسم ابتسامة بالغة الطيبة:

- لا مؤاخذة، اتفضل.

دلني على غرفته فجلست بينما ذهب هو لقضاء شيء ما لم يوضحه. بخلاف د.عبدالسلام تبدو آثار الزمن واضحة كل الوضوح على د.جلال، شعره الأبيض الخشن المنعكش فوق رأسه، يداه المعروقتين بالنقط الوردية المتناثرة على سطحهما، ظهره المقوس وملابسه الصوفية الثقيلة التي تبدو وكأنه تم ارتداؤها على عجل. تأملت الغرفة التي تبدو على قدر من الفوضى، شباك عريض مغلق يستقر في الحائط الأيمن و شيزلونج جلدي يحتل الجانب الأيسر بينما يتوسط الغرفة مكتب مزدحم بالورق والكتب. وراءه مكتبة هائلة تبتلع الحائط بكامله، أقف لأتفرج على الكتب التي تتنوع لدرجة التناقض، كتب في التفسير والفقه والتاريخ والأدب والفلسفة و التنمية البشرية وروايات

ودواوين شعرية ومراجع باللغة الإنجليزية - يبدو أنها في الطب النفسي، ثم عود يستقر باطمئنان في أسفل المكتبة! رجعت خطوة للوراء لأتأمل المكتبة ثم انتبهت لصوته العجوز:

- أهلا وسهلا...

ثم بنبرة اعتذار لا تملك حيالها إلا أن تحبَّهُ:

- متأسفين جدا والله هذه الكركبة.

أعيد عليه ما قلته في الهاتف بشكل مختصر، مشروع الكتاب والفترة التي قضاها نجيب سرور في مصحة الأمراض العقلية، ولا يتركني أتم كلامي، يتدفق بحماس:

- يا بنيّ، هذه حكاية أنا شهدتها من فصلها الأول وحتى نزول الستارة. بداية من لقائي به في مستشفى العباسية - وكنت مجرد نائب - يعني طبيب في مرحلة التدريب - بالعباسية، وحتى ذهابي لفرنسا، علاقة الصديق بالصديق والمريد بالشيخ والتلميذ بالأستاذ، علاقة امتدت أكثر من عشرة أعوام. رحمه الله، كان رجلا عظيما بكل بما تحمله الكلمة، فنانا يستحيل تكراره. بعد موته، تصورت اني سأكون ضيفا دائما على البرامج التي تتحدث عنه. لكن شيئا من هذا لم يحدث. لا

برامج تحدثت ولا أنا كتبت شيئا. يبدو أنهم كانوا منشغلين بهاتشات الكورة والراقصة فلانة والفنانة علانة. وها هو العمر ولّى، والأيام تسربت قبل أن يحكي أحد قصة هذا الفنان العظيم.

وبعد جلسة تستمر أربعة ساعات كاملة لا يتوقف فيها الدكتور جلال عن الكلام، يمنحني بكل بساطة، الحكاية التي عاشها، في صورة ملفين ضخمين، ما كنت لأتصور وجودهما، فضلا عن أن يكون الحصول عليهما بهذه البساطة!

***

أخرج من العيادة، أتمشى في شارع المنيل، استنشق النسمة الشتائية العذبة في شارع المنيل الهادئ، وأنظر من آن لآخر - بحذر - إلى الملفين اللذين أعطاهما لي جلال الساعي. أفتح أحدهما وأتأمل تلك الأوراق القديمة المتناثرة (والتي اجتهد في ترتيبها زمنيا) ثم أفتح الآخر؛ أبتسم وأنا أقرأ:

"هكذا تكلم نجيب سرور"

أبتسم وأفكر في ذلك الأسلوب الملحمي المتدفق عبر السطور، والذي يبدو مضحكا قليلا. يستقر يقين مريح أن مهمتي لم تكن صعبة كما كنت أتصور، وأن الكتاب الذي أسعى لكتابته بين يدي بالفعل، وأنه ليس لدي أكثر من صفه وتبويبه، ثم نشره؛ ولا أكثر من ذلك.

أفكر في الأقدار والمصائر، أفكر في الزمن الذي لا نعرف له إيقاعا محددا ولا نية مكشوفة، أفكر في الأحلام الضخمة وكيف تنتهي إلى اللاشيء، وأجد نفسي منذ زمن طويل أستمتع بمشاهدة النيل من على كوبري الجامعة، وأكتشف مدى حماقتي في حياتي السابقة؛ أني ضيعتها دون أن أكتب بانتظام وكثافة.

الكتابة أمتع شيء في الوجود، الكتابة معنى الوجود، فلماذا ضيعت عمرك دون أن تكتب يا طلال؟

الجزء الثاني:

١٩٦٩

تتعرض مصر لنكسة يونيو؛ يتلقى جيل كامل صدمة أكبر من استيعابه، ثم لا يلبث الشاعر والمسرحي نجيب سرور أن يتعرض لأزمة خاصة وشخصية مع زوجته، إحدى الفنانات المصريات في تلك الفترة. يكون أثر الصدمتين - العامة والخاصة - عنيفا على ذلك الرجل المرهف والصادق، يبدأ يصطدم بالجميع ثم يضيق صدر السلطة والمجتمع به فيتمّ إيداعه مصحة الأمراض النفسية بالعباسية عام ١٩٦٩.

هذه الأوراق - والتي كان الراحل العظيم يحملها معه وقت دخوله المستشفى أو يدونها وقت إقامته فيها - تُلخص تلك المرحلة الهامة في حياته وفي حياة مصر. كان الشاعر الراحل قد منحني إياها - متفضلا - عقب خروجه من المستشفى، وقد احتفظت بها طبعا. قمتُ بجمعها وترتيبها وضممت إليها التقارير الطبية المثبتة بحالته في تلك الفترة - ربما ليتضح خطورة دور الطبيب النفسي - والذي لا يزال الناس في بلادي يطلقون عليه "دكتور المجانين"! وأهمية أن يكون واعيا بطبيعة وخصوصية الحالة التي يعالجها؛ الطب النفسي الذي يقع في منطقة بين العلم والشعر، والحكمة والفلسفة، والذي لا يكفي أن تحفظ عدة أدوية لتكون قادرا على العلاج به، ولكن أن تكون واعيا بطبيعة

الإنسان، ذلك المخلوق المعقد الذي كرمه الله ونفخ فيه من روحه واصطفاه على العالمين!

هذه الأوراق، والتي قمتُ - قدر استطاعتي - بترتيبها زمنيا، تقدم جانبا من حياة مبدع كبير ومن حياة وطن. أرجو أن ينتفع بها من يطلع عليها وأن تكون إضاءة كاشفة، سواء للمهتمين بأدب الراحل العظيم، أو بتاريخ وطن لم يعد يأبه له أحد.

أسأل الله التوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

د. جلال الساعي

المنيل - القاهرة

(١)*

رسالة من فنان حائر

عزيزي محرر مجلة الكواكب:

تحية طيبة وبعد،

عدتُ إلى الوطن منذ خمس سنوات، ومنذ خمس سنوات وأنا أعمل بالقطعة تأليفا وإخراجا وتمثيلا، مما لا يضمن أي ثبات ولا أي انتظام للدخل الشهري أو السنوي. لذلك أتعرض كل عام وعلى مدى شهور طويلة لنوع من البطالة الموسمية القاسية والحادة والطاحنة.

أصدر الدكتور ثروت عكاشة ثلاثة قرارات بتعييني، ولم ينفذها أحد. وما زلت حتى الآن لا أتلقى سوى وعودٍ ووعود، وما زلتُ حتى الآن في الشارع!

* خطاب بعث به نجيب سرور لمجلة الكواكب والتي قامت بنشره وقتها.

في تقرير للخبير الفرنسي السيد توشار شهادة لي بأنني أحسن أستاذ بالمعهد العالي للفنون المسرحية. عرفت هذا من السيد الوزير نفسه ومن الدكتور مصطفى سويف، ومع ذلك وبعد عامين من التدريس في المعهد وبعد هذا التقرير فوجئت باستبعادي من المعهد! كيف؟ ولماذا؟

وهكذا، لا معهد، ولا عمل بالمؤسسة، ولا تعيين، ولا دخل منتظم ولا مرتب ثابت، ولا اطمئنان إلى اليوم والغد وما بعد الغد! ولا يمكن طبعا الاعتماد على فرص العمل المتباعدة وغير المنتظمة في الإذاعة والتلفزيون، وأنت تعلم لماذا.

نتيجة لعدم الاستقرار المادي والمعيشي والنفسي والذهني تم الطلاق بيني وبين زوجتي وأصبحت حتى بلا بيت.

عزيزي محرر مجلة الكواكب :

كاتب هذه السطور قدم للمسرح المصري تأليفا "ياسين وبهية"، آه يا ليل يا قمر" و "يا بهية وخبريني" وإخراجا " بستان الكرز "، "وابور الطحين" و"سيف ديموقليس"

كاتب هذه السطور قدم للمكتبة العربية فضلا عن المسرحيات الشعرية السابقة الذكر ديوانين من الشعر هما "التراجيديا الإنسانية"

مدونـــــــــة رفايـــــع

و"لزوم ما يلزم" ومجموعة من الدراسات النقدية يضمها كتابه "حوار في المسرح"

إنني أطرح مجرد تساؤل ربما نجد من يبلّ ريقنا ويجيبنا عليه، لحساب من يُخنق شاعر ومخرج وكاتب مسرحي وممثل، في مصر الثورة؟ لا يمكن أن يكون ما يحدث لي هذا لحساب مصر أو لحساب الثورة!

فهل أطمع أن تتبنى هذه القضية وأن ترفعها على صفحات الكواكب إلى المسئولين؟

ولك بالغ شكري واحترامي .. والسلام ..

ديسمبر ١٩٦٨

المُخلص

نجيب سرور

(٢)*

الفنان المسرحي والشاعر والكاتب نجيب سرور مُهدد بكارثة.

إنه يُشاهَدُ الآن في بعض شوارع القاهرة ومحلاتها العامة وهو في حال يرثى لها، رث الثياب متدهور الصحة مشوش التفكير.

لقد توالت عليه ظروف كثيرة شخصية وغير شخصية حتى وصلت به إلى هذه الحال التي تزداد سوءا يوما بعد يوم والتي لم يعد يستطيع وحده منها فكاكا، فلا مفر من أن يقف بجانبه كل من يهتم بالثقافة أو يعمل بالأجهزة الثقافية المختلفة.

إن وزارة الثقافة مسئولة عنه بحكم ما أداه للمسرح كاتبا ومخرجا وممثلا.

* مقال للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، منشور بمجلة روز اليوسف: ٢٠ يناير ١٩٦٩.

ونجيب سرور كتب للمسرح الشعري ثلاث مسرحيات عرضت ولقي بعضها نجاحا كبيرا وخاصة مسرحية "آه يا ليل يا قمر" التي استمر عرضها ثلاثة أشهر في القاهرة كما عرضت بنجاح في بعض العواصم العربية الأخرى.

وفي مجال الإخراج قدم "بستان الكرز" لتشيكوف و " سيف ديموقليس" لناظم حكمت في مسرح الحكيم و "وابور الطحين" لنعمان عاشور في مسرح الحكيم.

أما في مجال التمثيل فإنني أذكر دوره في مسرحية " أجاممنون" وهي الجزء الأول من ثلاثية أورست التي ترجمها الدكتور لويس عوض وقدمها مسرح الجيب.

هذا كله بالإضافة إلى جهده كناقد مسرحي كتب كثيرا من المقالات واشترك في كثير من المناقشات التي ظهرت مؤخرا في كتابه "حوار حول المسرح"

وإذا كانت وزارة الثقافة مسئولة عن نجيب سرور باعتباره فنانا مسرحيا ناجحا متعدد المواهب فإن جمعية الأدباء أيضا مسئولة عنها باعتباره كاتبا وشاعرا وناقدا.

وربما لا يعرف بعض القراء أن نجيب من أوائل الشعراء الشبان الذين ساهموا في حركة الشعر الجديد وأنه شاعر متميز له تجربته الخاصة في الفكر والأداء. كما تجد في ديوانيه " لزوم ما يلزم" و " الكوميديا الإنسانية" وتشارك في هذه المسئولية أيضا كل من هيئة الإذاعة والتلفزيون ونقابة الممثلين وغيرها من الأجهزة الثقافية والفنية التي شارك نجيب سرور في نشاطها بصورة أو بأخرى.

وأنا لا أعرف بالضبط كيف يمكن أن تشارك هذه الأجهزة أو يشارك المثقفون في إنقاذ نجيب سرور، فالجانب الأكبر في أسباب الكارثة التي تهدده يرجع لأسباب شخصية تتعلق بحياته العاطفية والعائلية. إلى أنه لم يكن موظفا في أي من هذه الأجهزة والمؤسسات حتى تترتب على ذلك اية مسئولية قانونية عنه. ولا شك أن هذا كان من أسباب انهياره.

لا أعرفُ كيف يمكن علاجه وإنقاذه رغم كل ذلك، لكنني أعرف أيضا أنه في أشد الحاجة للمجتمع الذي يعرف قدره والذي يرى من الخسارة أن نفقده، كما أعرف أننا لو فقدناه فلا شك أننا قد شاركنا بصورة او بأخرى في مأساته، إنني أناشد الدكتور ثروت عكاشة والأستاذ يوسف السباعي ومجلس نقابة الممثلين أن يمدوا أيديهم لإنقاذ

هذا الفنان الموهوب قبل أن يضيع الوقت فلا نجد الشجاعة حتى لرثائه.

إن جهازا من هذه الأجهزة يمكن أن يدفع تكاليف علاجه في إحدى المصحات ولا شك أن أفراد أسرته وأصدقاءه وزملاءه سوف يساهمون ماديا وعاطفيا في استكمال هذا العلاج الضروري قبل مناقشة أي مشكلة أخرى من المشاكل التي يعاني منها وعلى رأسها مشكلة العمل!

(٣)*

السؤال الآن، لماذا هو بارد دائما شهر يناير؟! يعني مثلا لو لاحظت ستجد أن يناير ١٩٦٧ كان باردا وانهزمنا في ذلك العام، ويناير ١٩٦٨ كان باردا أيضا والرئيس جمال عبدالناصر قد تراجع عن قرار التنحي ومن المفترض أننا نرتب أمورنا لنقوم من الهزيمة الثقيلة، أو النكسة، بحسب اختيار طيب الذكر الدكتور محمد حسنين هيكل. نحن لا ننكر على هيكل سعة معرفته اللغوية، معجمه ما شاء الله واسع، ربما أوسع من كُس السيدة الفاضلة والدته، وأوسع من ذمة الدكتور رشاد رشدي، ومن تأشيرات الدكتور ثروت عكاشة، بل وربما من مساحة مؤلفات نجيب محفوظ. لا يمكنك أن تعرف على وجه التحديد في أي مكان - لا مؤاخذة - عثر السيد هيكل على كلمة "نكسة" ليضعها بدلا من الهزيمة، ثم لو قلنا بعد ذلك أنه معرص يتهموننا بسوء الأدب أو بالجنون، كما سيتهمني بالجنون من سيسمعني أقول أن اختيار يناير

* بخط نجيب سرور نفسه، صورة طبق الأصل.

١٩٦٩ تحديدا ليكون الشهر الذي أتشرد فيه في الشوارع كان مؤامرة مدروسة بدقة.

على أني عانيت من اتهامي بالتصيد والجنون والشعور بالمؤامرات الخفية، وعلى أنهم مثل هيكل سيبحثون عن كلمة أو كلمتين يضعونها بدلا من الحقيقة، الجنون، الفصام، شيزوفرينيا، وزغرطي ياللي مانتش غرمانة. بذمتك ودينك وأمانتك، هل هي مصادفة أن يتفضل الدكتور رشاد رشدي بطردي في نوفمبر وهو يعلم أنني سأبذل كل ما في وسعي للثورة على هذا القرار المجحف الظالم المفتري؟ المخطط ماسوني يا مولانا أبا العلاء، يعلمون أنني سأشتكي، ويعلمون انني سأروح هنا وهناك حتى يصل بي الحال للشكوى في مجلة الكواكب مثل الأرامل والمطلقات وابن السبيل طلبا لحقي وبحثا عن مهنتي، وبعد ذلك يتقدم الشاعر البجح عميل المخابرات أحمد عبدالمعطي حجازي ببلاغ رسمي ضدي في مجلة روز اليوسف الأسبوع الماضي بدعوى أنه يريد مساعدتي فيقول لا فض فوه (إن جهازا من هذه الأجهزة يمكن أن يدفع تكاليف علاجه في إحدى المصحات) يعني سيادة الشاعر الجهبذ المغرض يتطوع من نفسه مقترحا عليهم أن يدخلوني مستشفى الأمراض العقلية حتى يستريحوا مني ومن قرفي، والله يعلمون، ووالله أعلم أنهم يعلمون، ووالله يعلمون أني أعلم أنهم يعلمون، لكن ماذا نفعل والطابع المسيطر

على الكون هو سوء الخدمة والملل، الكون فندق سيء الخدمة، تطلب الشيء فلا يجئ أو يأتي متأخرا أو لا يأتي إطلاقا أو يأتي شيء آخر تماما. ثم الملل، يناير دائما برد، يونيو دائما حر، يعني ماذا كان سيحدث مثلا لو كان يونية ١٩٦٧ برد، ألم يكن ذلك ليكون أفضل بدلا من الجنود الذين ذابت جلودهم في العودة من صحراء سيناء تحت لهيب الشمس. تجاوزنا مرحلة الحيرة وصرنا قائمين في مقام الملل، ألا يشعر هؤلاء المثقفون بالملل من جلسة المكاتب ومن القمصان والبنطلونات والجواكت والكالسونات، ما الذي سيجرى في الدنيا إذن لو خلعتُ أنا، نجيب سرور؛ المثقف والكاتب والفنان والمسرحي والممثل والشاعر والناقد، الملابس التي اعتاد المثقفون ارتداءها وارتديت هذا الجاكت المتسخ والجلباب الممزق، ما الذي سيحدث حين يطول شعري ويتسخ وأصبح مشردا بين المشردين، أقف لأنظّم المرور أو أؤدي مشهدا من هاملت في ميدان التحرير أو أبول على تمثال طلعت حرب، أمنحهم فرصة ليمثلوا دور المندهش أو دور المتعاطف أو دور المشفق أو أي دور والسلام. يمصمصون شفاههم حزنا على ما يفعله الفنان نجيب سرور بنفسه، ثم يمضي كل منهم إلى حياته وحال سبيله. (واما هو فنان يا أبناء الزواني لماذا وصلتم به إلى هذه الحال؟) أليس هذا هو مخطط الدكتور رشاد رشدي، ومعه المفكر العظيم العبقري عبدالفتاح البارودي؟ فلينعموا به

إذن حتى النهاية، ولكن النتائج أكثر تطرفا مما توقعوا، أرادوني مشردا عن المجز فلأكن مشردا حقيقيا.

أولئك الذين ينظرون لي في الشارع بحذر ويعبُرون من الناحية الأخرى، هل يعرفني أي منهم، هل يعرفون ما قدمته للمسرح وللشعر والأدب ،هل يتذكر لي أحد هؤلاء المارة شيئا مما كتبته أو مثلته، ولو تذكر فهل سيزيل هذا خوفه و حذره أم أنه سيضاعفهما؟ هل سيفهم أحد لماذا أفعل ما أفعل؟ لا يهم، فلم يعد أحد يفهم شيئا على أي حال، ونحن لا نريد إلا أن نوجه جزيل الشكر لأولاد القحبة في زماننا، زمن الستينات الجميل، والذين فاقوا قحاب عصر الفرسان دون شك ودون جدال. الفرسان ظلوا يرددون أكاذيب البطولة حتى جُن الشهيد دون كيخوتة وحمل سيفا خشبيا وانطلق يصارع طواحين الهواء، أما في الستينات فقد وصلوا بي أنا – نجيب سرور، أن يحمل مقشة يكنس بها الشوارع، ويرتدي جاكتة ممزقة، ويكتب في ذهنه أشعارا لن تنشر، وتخطر في باله أفكار مسرحيات لن تمثل وتضيء في عقله لفتات نقدية لن تجد رئيس تحرير يسمح بنشرها. المخطط مكتمل ويناير بارد والكتيبة الخرساء خرساء. إنني أتوجه من هنا، من عرشي الذي يطل على كوبري الجامعة وبصولجاني الذي لا يزيد عن مقشة خشبية قديمة، أتوجه بالشكر لكل المومسات والشواذ والسكاري وتجار المخدرات وزعماء

الثورة وأعضاء اللجان الاشتراكية وجهال عبدالناصر بشكل شخصي وللموسيقار محمدعبدالوهاب والآنسة أم كلثوم وللبلبل البليغ الذي لا يكف عن التغريد، الأستاذ الفنان محمد حسنين هيكل، وللروائي الذي لا يكف عن كتابة الروايات، نجيب محفوظ، وللسيد المبدع الذي لا تكف ماكينته عن إنتاج الكلام الفارغ، الفنان المكتئب صلاح جاهين: أتوجه لكل هؤلاء بالشكر والتحية وأؤكد لهم أن مخططهم تم بنجاح محقق وأنني مشرد في الشوارع والطرقات كما أرادوا، وربما أكثر مما أرادوا قليلا. على أني أعترف اعترافا أخيرا قبل ان أنزل من سدة العرش وقبل أن تبدأ الكورس في ندبي، أني لست حزينا على مال ولا على موقف ولا على معركة خضتها وهزمت فيها لأسباب لا تخصني، إن ما يحزنني بالفعل هو أنني لا أزال محتفظا بعقلي، كل ما يحزنني، وربما يدهشني، هو أني لم أصب بالجنون بعدُ، أنني أقرأ وأسمع وأرى وأشم وأفهم كل شيء، وأن ذهني لا يزال لا يزال سليما وأن عقلي لا يزال معافى، يدقق وينقد ويفكر ويلاحظ ويعرف أشياء الجهلُ بها أولى وأسلم. لعل لربك في احتفاظي بعقلي حتى الآن حكمة لا يدركها ذهني البشري القاصر. من يدري.

***

مهمتنا صعبة، بل هي غاية في الصعوبة، فالحكاية حكاية مؤامرة للقضاء على شاعر، والشاعر هو نجيب سرور، هو أنا يا أفاضل، فاسمعوا واعوا ما جرى بعد عودتي من دمشق في ذلك المؤتمر الوهمي الذي بعثوني إليه في دمشق إبريل ١٩٦٩، ربما على أمل أن يجعلني ذلك أصمت وأتوقف عن قلة الأدب. متأسفين يا صلاح بيه نصر، نجيب سرور قليل الأدب بطبعه، والطبع كما يؤكد القدماء يغلب التطبع. يمنحونني حجرة في فندق فخم ومكانا على المنصة أتحدث فيه من فوق للجماهير الكادحة في سوريا المنكوبة كما هي مصر، كلنا في البعبصة شرق ولا مؤاخذة. لا يعرفون أن نجيب سرور ليس من أرباب الصعود للمنصات. أنزل وأتكلم وسط الجمهور المسكين الذي يذكرني بالجمهور المصري التعيس. بعد انتهاء الندوة - الناجحة مثل كل شيء قدمته لأن كلمة السر في أي نجاح هي الصدق، وهذا ما لا يمكن لأجهزة الأمن مهما حاولت أن تفهمه - يأخذني ممدوح عدوان بسيارته أنا وصافيناز كاظم لزيارة مدينة بعلبك. في الطريق تصعب علي نفسي فأجهش بالبكاء. صافيناز من القلائل الذين يفهمونني، تربت على كتفي ولا تتكلم بينما يسألني ممدوح:

- مالك يا نجيب

أجيبه، واثقا أنه لن يفهم شيئا:

- بنت الكلب، باحبها مهما حصل!

يسألني بسماجة وغباوة تليق بشاعر ينتمي لحزب البعث:

- تقصد من؟

- مصر يا أخي، مصر! طلبت منهم تصريح سفر لسوريا فمنحوني إياه في دقائق، بينما ظللت أتوسل إليهم من ١٩٦١ أن أعود لمصر فظلوا يماطلون ثلاث سنوات في منحي تأشيرة الدخول ثم سحبوا مني جنسيتي، سحبوا مني الجنسية المصرية، بجرة قلم قرروا انني لست مصريا.

أعود من سوريا في شهر مايو، لأجد أن المسرحية لم تنته بعد، وأن السيد المسيح لا بد أن يصلب من جديد، وأن اللعنة التي أصابت هاملت حين رأى في الظلمة ما لم يره غيره ستطارده حتى آخر فصل في الرواية الكئيبة.

***

أمشي في شوارعك يا مصر حتى تعجز قدماي عن الشعور بالتعب. أين السبيلُ والسبيل كدرب الجلجثة، مسموم وملىءٌ بالشوك والأحجار. أمشي وأمشي وأمشي، وكما قال طيب الذكر العندليب الأسمر شفاه الله وعافاه، ماشي ولا بيدّي. حضرةُ العندليب الذي يغني ويجزق الآن في ميكروفونات الإذاعة فدائي فدائي ويقبض آلاف

الجنيهات، ثم يشتكي بعد ذلك في وسائل الإعلام من مرضه المزعوم، بينما آكل أنا كما تأكل القطط والكلاب من خشاش الأرض. أفيشات "أبي فوق الشجرة" تغرق الشوارع، قاضي البلاج يا قاضي يا ابو حكم سيفه ماضي. نافورة من الذكريات تتدفق داخل رأسي، وأفكار تتطاير في ذهني من هنا ومن هناك فلا أجد قدرة ولا رغبة أن أسيطر عليها. ذكريات أغلبها مؤلمٌ وبعضها مبهجٌ والباقي منها بين بين. روسيا، بودابست، عودتي مصر، أول حفلة لياسين وبهية على مسرح الجيب، مناقشاتي مع كرم مطاوع أثناء إعداده للمسرحية، مشاجراتي مع نعمان عاشور، لحظة دخولي كواليس المسرح ورؤية منظر مؤخرة الروائي العظيم مستقرة فوق المدام (مدام عرفت بتسأل ليه) فلا أملك إلا أن أضحك وأبصق دما على هذا الزمان الذي صرنا إليه، معلش يا مصر أصل الموت علينا فرض. أتذكر مؤخرة ثروت عكاشة المربربة وهو يهزها بطراوة ويقوم ليصافحني ويصحبني لباب مكتبه الفخم مؤكدا بصوته الجهير أن *كله حيبقى تمام يا أستاذ نجيب* فأضحك، أضحك وأنا أسأل فالق السموات والأرض والمؤخرات، أي شيء يا رب كان يدور بذهنك وأنت تلقي بنا في هذه الحياة بنت اللبوة، يا رب لو صاحب أمانة نبعث به للمسئولين في السماء السابعة فنفهم، نفهم حتى لا نصاب بالجنون وحتى لا تكتمل المؤامرة على هواهم وبمزاجهم. ربما أتذكر فيما أتذكر كلمة حب أو همسة تقدير أو تصفيق جمهور في الصالة فلا أدري ما ينبغي على

أن أشعر به، وأتذكر أني من شهور قليلة كنت أقدم رواية ميرامار لروائي زماننا المنظم على مسرح الجيب من شهور قلائل في رؤية جديدة ومبدعة ثم أتذكر ما فعله في زوجتي فأكاد أتقيأ، خرمان يا عالم جوعا وتشردا وإفلاسا وأنا في أيدي السبع صنعات؛ فلوسي خلصت وسجائري خلصت وعمري فقط هو الذي يرفض أن يخلص، ولكن كيف ينتهي العمر قبل أن تكتمل المؤامرة وقبل أن نمشي الخطى التي قال عنها ابو العلاء قديما أنه من كُتبت عليه مشاها، لازم نلبس الخازوق للآخر، ليس ثمة مشكلة، وماله؟ لكن دعونا حتى يضبطوا لنا سنّه المدبب ويجهزوه لنا على المقاس المضبوط، دعونا نسلي أنفسنا قليلاً، دعوني أحكي لكم حكاية، دعوني أحكي لكم تفاصيل مؤامرة للقضاء على شاعر؟

سنلتزم بمنهج أرسطو عليه السلام ونحن نحكي ما جرى، ستسمعون هذه الحكاية من غيري، سيبدلون التفاصيل ويغيرون السياق وينتزعون الأحداث من موضعها فأظهر أنا في آخر الأمر المجنون والمتهور والغلطان وابن ستين كلب، سنلتزم بوحدة المكان والزمان والحدث. سنلتزم بوحدة الشخوص لأنهم في الحقيقة شخص واحد حتى لو ظهر في أشكال متعددة، ومؤامرة واحدة حتى وإن بدت الأمور على الظاهر غير مترابطة.

* * *

عادةً أنا لا أشرب بهذه الطريقة. طبعا، موضوع الشرب هذا من المواضيع التي سيعيدون ويزيدون فيه بعد موتي، وأنا هنا أقول شهادتي مجردة لوجه الله والوطن والخمر، كنتُ ولا أزال أحمل هذه القناعة، أن تشرب لهو أفضل كثيرا من أن يركبك السيد وزير الثقافة، أضف إلى ذلك أنني بعد السفر وبعد رؤية كافة أنواع البشر بدءا من عمال القطار في بودابست والذين سربوني لأنني لم أكن أمتلك ثمن تذاكر القطار، وصولا لأشهر نجوم السينما في بر مصر المحروسة، وصلت لقناعة أخرى أرجو أن يتسع لها صدر رجال الدين الأفاضل، أقول مُفتيا والله أعلم أن موقعك في الآخرة لا يتحدد وفق عملك بقدر ما يتحدد وفقا لنوع الخمرة التي تشربها، فأهل الجنة والنعيم هم الذين يشربون منقوع البراطيش وربع البراندي والاربعة وثمانين والبولوناكي وما تيسر من الأنبذة الشيطانية، أما الجحيم وعذاب جهنم فقد أُعده المنتقم الجبار لشاربي الكونياك والويسكي والجاك دنيلز ونبيت بوردو وارد مزارع باريس. للأسف يا أفاضل، ربنا برمه ولم يشقّه، وجسمي ناشف كأجساد الفلاحين وليس طريا وملبن كما الفنانة برلنتي عبدالحميد - مثلا - ليركبني سيادة المشير صباحا وينفق عليّ طول العمر، المشير يركب والبلد يطلع دين أمها في سينا وفي الآخر نجيب سرور هو الخطر على الأمن القومي دون أن يجد حتى ثمن توصيلة تذهب به لمبنى

الإذاعة والتلفزيون. على أي حال، مالنا والحديث عن الآخرة في هذا السياق الدنيوي البحت، وكما قيل قديما، وداوني بالتي كانت هي الطافية.[1] في البدء كنت أمشي في شوارعك يا مصر كما يليق برجل سكران محترم، أخرج من خلف مسرح البالون من على كورنيش العجوزة حيث يجب أن أمشي حتى مبنى الخواجة ماسبيرو المهيب. إنه أكل العيش يا محترم، والرزق يحب الخفية، من كان يتصور أن تكون ذراع الماسونية الصهيونية طويلة إلى هذا الحد، المؤامرة التي بدأتها اليد الخفية – التي نعلمها جميعا – عليّ في الاتحاد السوفيتي كي لا أتعلم وحاولت القضاء عليّ وعلى زوجتي ساشا هي نفس اليد التي آذاها نجاح مسرحياتي الساحق في الأعوام الماضية وعرفت كيف تغلق الباب في وجه كلمتي. الذين صلبوا المسيح ودفعوا ليهوذا ثمنا له ثلاثين قطعة من الفضة هم أنفسهم الذين يضطرون نجيب سرور الآن أن يقدم تمثيليات إذاعية تافهة على المقاس في الإذاعة المصرية المباركة. أمشي وأمشي وأمشي حتى أصلَ لماسبيرو الذي ينتصب على الكورنيش مثل البتاع لا مؤاخذة، بمجرد دخولي يقف حارس الأمن الأبله ويسير نحوي، أعرف ما سيقوله النطع، والذي يضطلع بدوره التافه في المؤامرة الكبيرة دون أن يفهم شيئا:

– نعم يا أستاذ؟

- نعم انت يا أستاذ، أنا نجيب سرور وطالع أقول دوري في تمثيلية إذاعية تافهة، وصدقني، ستعمل فيّ معروفا لو منعتني من الدخول.

باغته الرد، أستمتع بنظرته الحائرة بين ملابسي المتسخة التي لا تليق إلا بمتشرد وبين بطاقتي الشخصية. في النهاية أتلذذ بهزيمته التي يشربها كاملة وهو يقول في انكسار:

- تفضّل يا أستاذ نجيب.

يفتح لي المدخل المعدني، تلفتني كل هذه الأبواب والمتاريس ثم أجد أنها متناسبة تماما مع تصوّري لمبنى التلفزيون باعتباره أيرا لماكينة الاتحاد الاشتراكي البليغة، هل يخاف الرجل على شيء قدر خوفه على عضوه، شغالا كان أو كان لمجرد الزينة، مثلما أغلب نجومنا الدونجوانات الفالصو؟ أصعد السلالم وألقي التحية بما وسعني من قرف على الجميع، لا أستثني منهم أحدا؛ المخرج العاجز جنسيا وممثلة الأوردرات التي ركبها طوب الأرض والممثل الذي لا يعرف الفارق بين أرسطو ومؤخرة فؤاد المهندس. تشكيلة من خصيان الموسم، يقف بينهم مشرف الإنتاج، المُعين بعقد ثابت ومرتب شهري بالإضافة لمكافآت أخرى والذي تنحصر كل مميزاته أن مراته وراكها مستديرة

ومفرشحاها عالِبهلي. أحييه بابتسامة مستفزة وأقول بصوت واضح يسمعه الجميع: أهلا مستر ذو القرنين. آه يا بلد إنما الإخراج بالنية. يبتسم ابتسامته الصفراء ولا يرد. جميعكم تعرفون قدري وجميعكم تخافون مني. آخذ سيجارة من عامل البوفيه، النقي والجميل، كما هم البسطاء في بلادي، يفتح علبة البلمونت ويمنحني سيجارة فأقول له ممازحا:

- بلمونت؟ احنا ناقصين نفَسنا يتقطع يا فقري. يعني لو كان ربنا خلقك مرّة مش كان زمانك بتعزم عليّ بلاكي سترايك أو كِنت دلوقت؟!

نضحكُ سويا ثم أدخل لمقلب الزبالة، المعروف بالاستديو. أنظر حولي وأنا أتساءل في مرارة، يا ترى من في هؤلاء وطي وسلمها ومن منهم ما زال ينتظر دوره،أقف أمام المايك وأتقيأ الكلمتين المكتوبتين ولا أحرم نفسي من شيء فأنادي على المؤلف، خذ يا شاطر، وأصوّب له أكثر من كلمة نحويا ولغويا فيهزّ رأسه موافقا في انكسار ذليل. أنتهي من دوري، أعرف أن أحدا لن يجرؤ على الاستعانة بي بعد ذلك، وأنني سأبقى عاطلا لشهور دون أكل ودون شرب ودون سجائر، ملعون أبوكم كلكم يا أولاد الكلب. أذهب فآخذ الإيصال وأختمه من موظفة

، أنظر لها وأفكر في العدد المحتمل لموظفي التلفزيون الذين تحسسوا هذا البز الريان، آه يا ملبن. تختم لي الإيصال فأستلمه وأنا أضحك، لا شك أنها تقول عني أني مجنون، العقل حارب تركيبا يجاهده/ فالعقل والطبع حتى الموت خصمان. رحم الله سيدنا ابا العلاء فقد كان نبيا في زمن أوغاد العصر العباسي. أذهب بعدها للسيد الصراف المحترم الذي يمنحني خمسة عشر جنيها مصريا فقط لا غير، ألطع اسمي الكريم في دفتره (قال يعني بلد بجد وفيها نظام بجد) أخرج من مبنى التلفزيون وأستنشق النسمة الشتائية الباردة العذبة. أشعر بسلام نفسي وطمأنينة مقدارها خمسة عشر جنيها مصريا، على أي حال هي في الجيب قروش بنت كلب، سأتمشى لوسط البلد، أبو شقرة وزجاجة بولوناكي معتبرة من أم ٩٨ قرش – على مقاس فلوسك يا شاعر– ولتكن ليلةً نواسية بعد ليالٍ طويلة لم نصحب فيها إلا أبا العلاء وحكمة أبي العلاء و زهد أبي العلاء. أشير للتاكسي وأردد بيني وبين نفسي وأنا أركب:

ساس الأنام شياطينٌ مسلطةٌ / في كل مصرٍ من الوالين شيطان

من ليس يحفل جوع الناس كلهم / إن بات يشرب خمرا وهو مبطان

ولكني على أي حال سأبيت ليلتي هذه مبطانا شبعانا أشرب الخمر وأنا أحفل بجوع الناس كلهم، فيكون لي هذه الليلة، رغم الشبع

الاستثنائي فيها على الوالدين درجة، وكما يقولون عندنا في البلد،آهي ليلة وفراقها صبح.

إذا كان علم الناس ليس بنافع/ ولا دافع فالخسر للعلماء. كيف صدقتُ هذه التمثيلية المضحكة بكل هذه السذاجة، وكيف تصورت أن اللقاء كان مجرد صدفة، ولم أنتبه للتدبير ولا للكيد الماسوني المنظم الذي يجعلني أجده أمامي بوجهه البرئ ونظرته الطيبة القادرة على الخداع. كنت ماشيا جوار كوبري الجامعة، من ناحية حديقة الحيوان ومستكملا طريقي باتجاه الجيزة، لعلي أصل ذات يوم للبيت، عندما شعرت بعربة تسير جواري على مهل، ثم صوت الكلاكس، نظرت ووجدته أمامي، عندما أتذكر الآن ما حدث ألتمس العذر لانخداعي بأدائه، كم كان تمثيله متقنا وهو يصيح في فزع وألم، كاذبين كما سأفهم بعد ذلك:

- نجيب، تعال يا نجيب.

ربما كان صادقا فيما رأيته في وجهه من فزع ومن ألم، لو لم يكن صادقا لماذا كنت سأشعر بلذعة الألم التي شعرت بها لحظتها، وأدركت في لحظة واحدة كل ما في عبارة "صعبت عليّ نفسي من معنى"، قلت في صوت خافت:

-ازيك يا رجاء...

عُذري إذا كنت خدعت في ملامحه الطيبة ونظرته الوديعة فلأن تاريخ علاقتي برجاء النقاش هو تاريخ يبدو ناصعا، الرجل الذي كتب مناشدة في جريدة الجمهورية يطالب فيها بعودتي عام ١٩٦٤، عرفت بعدها أنه لولا هذه المناشدة ما كنت لأعود إلى أرض الوطن، كان المقال قصيدة صادقة في مواجهة زبانية صلاح نصر الذين فعلوا كل شيء لإبعادي عن الوطن. لا زلت أذكر افتتاحيته الصارخة، *مأساة فنان مصري في بودابست، تعرفت عليه منذ أكثر من عشرة سنوات وكنت أتذكر كلما التقيت به الشخصيات الروائية للأديب الروسي دستويفسكي، تلك الشخصيات المتوترة العنيفة التي تعاني من عذاب داخلي لا حد له، والتي لا تعرف طريقا واضحا للاستقرار الروحي.* كانت مقالة قوية وأثارت من الضجة ما جعلهم يضطرون لإعادتي لأرض الوطن ورجلهم فوق رقبتهم، عندما رجعت كان أول شخص طلبت لقاءه ولم أتمالك نفسي من البكاء على كتفه حين رأيته. ولكن يد الزبانية قادرة لا تعرف اليأس، والذين باعوا المسيح ذات مرة سيبيعونه ألف مرة. هاهو الآن يبتسم في وجهي ويقول برثاء وإشفاق:

- تعال يا نجيب، انت ايه اللى عمل فيك كده بس؟

يتحرك ليفسح لي مكانا في المقعد الخلفي للتاكسي، أجلس بجواره، ألم ذيل جلبابي القذر أشعر بشيء من الخجل من منظري، لا أعرف ما ينبغي عليّ ان أفعل بالمقشة في يدي، و لا أجد إلا أن أتركها خارج التاكسي وأغلق الباب.

يسألني إن كنت لا أزال في شقة الجيزة أو تركتها فأهز رأسي، ولا يبدو هو مهتما تماما بمعرفة الجواب. يقول للسائق، اطلع على الهرم يا اسطى. يمر شيء من الوقت قبل أن نجد ما نقوله، يبادرني، وهو يتجنب النظر لثيابي :

–ايه بس يا نجيب؟

أعرف ما يفكر فيه، ربما أعرف عنه أكثر ما يعرف هو عن نفسه. لماذا يا رب تمتحننا بالبصيرة؟ يظنّ أنني أعاني من صعوبات نفسية وأنني أمزج عذابي النفسي بسوء ظن في الآخرين وفي الحياة، يتصور أنني أتصور أن الناس غير مخلصين لي وأنهم يضمرون لي الكراهية بدلا من الحب، والحقد بدلا من التقدير. كيف أشرح لهذا المسكين، لئن عمرت دور بمن لا أحبهم، فقد عمرت ممّن أحب المقابر. هو مجرد صحفي وناقد لا يرى أبعد من سطح الأشياء، وظيفته أن يكتب عن البشر الذين نخلقهم نحن، محدود الأفق آخره كتابة جملة حلوة أو التصفيق للذين نخلقهم نحن من

لحمنا وأعصابنا، لا استبعد أن يكون كاتبه المفضل إحسان عبدالقدوس أو محمد التابعي مثلاً، هذه هي حدوده ولا تستطيع أن تطلب منه أكثر من ذلك، لا ينبغي أن نطالب الناس بأكثر مما منحتهم الطبيعة. فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد. ويعني، هل صرت أنا أسعد أو أفضل حالا بهذه الرؤية او بهذه البصيرة، أنا في أسمال قذرة وهو معه أجرة التاكسي، ليتني كنت حمارا مثله ومعي أجرة التاكسي يوصلني لحد باب البيت. وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات، الكلمات ابتلاء، الفهم ابتلاء، هل كانت اللعنة التي أصابت هاملت ودون كيخوتة والسيد المسيح وإبراهيم عليه السلام شيئا غير هذا الإدراك الذي لا يرحم...

- لم يبق إلا أن يقتلوني أو يرسلوني لمستشفى المجانين؛ رفدوني من المعهد ومنعوا مسرحياتي وطلقوني من مراتي بعد أن ركبوا عليها، قفلوا كل باب في وشي ويغنون الآن على أنفسهم ويقولون نجيب سرور في الشوارع كالمتشردين.

يصمت ولا يجد ما يقوله، أعرف ما يفكر فيه، أنني ربما كنت مجنونا فعلا وأن المشكلة فيّ وأن الكثيرين - وعلى رأسهم ربه الأعلى نجيب محفوظ أو صديقه المقرب صلاح جاهين - استطاع أن يوازن أموره وأن يستمر في الكتابة، أكل العيش يحب اللوع، وكلهم شلة

واحدة عرفت كيف تسيّر أمورها، عرفت كيف تتنفس في جو ملوث ولا تموت، وكيف تتجرع الهزيمة بمكر الثعالب وتستمر الأقلام في الكتابة وتستمر المطابع في الدوران، وكلها فلوس داخلة وفلوس خارجة، أسأله:

- ما أخبار صديقك المقرب أبو الكرش والتفانين؟

لا أشك أن رجاء النقاش ذكي، يعرف تماما من أعني فيقول وهو ينظر من نافذة التاكسي:

- مكتئب، اهتز لما حدث بعنف، ربما أكثر من أي واحد فينا.

- ولكنه ينتج باسم الله اكبر كأنه جزار صبيحة يوم العيد، أغاني وكتب وأشعار. سمعت أنه سيعمل فيلما للسندريلا.

وأرقّص نصفي الأعلى وانا أقول:

- السندريلا والمايوه وهز هزتين ويكسر الفيلم الدنيا، وانا طلع دين أمي من روسيا للمجر لمصر، وفي الآخر يقول لك صلاح جاهين مكتئب.

يضحك سائق التاكسي فابتسم له، كالعادة، البسطاء هم الذين ينصفونني في هذا البلد، رحمتك يا رب.

- آه والله يا اسطى، كله بياكل عيش ويقول لك مكتئبين من النكسة، مكتئبين يا ولاد الزواني.

يقهقه السائق وهو يؤمّن على كلامي، يكفهر وجهُ رجاء ثم يقول:

- انت ليه بتعمل كده؟

ما جدوى أي مناقشة، والعاقل فينا حمار، والحمار فينا عاقل، يخطر على بالي قول ابي العلاء، وزهدني في الخلق معرفتي بهم، وعلمي بأن العالمين هباء. أفكر أن أسمعه هذين البيتين عله يخرج من ظلماته إلى نور الفهم والإدراك لكني ألتزم الصمت إرهاقا وإدراكا أنه لن يفهم، هذا واحد من أبناء جيل كامل انقطعت الصلة بينه وبين التراث، فإذا وجدوه لا يقرؤونه وإذا قرؤوه لا يفهمون منه شيئا، أفكر، يعني ماذا قرأ رجاء النقاش هذا في حياته حتى يفهم أبا العلاء، و أجد أنه من العبث أن أشرح لمن ليس مؤهلا للفهم، فأقول له بدلا من ذلك حرصا على الوقت وصيانة للجهد من التبديد:

مدونـــــــة رفايــــــع

– معك جنيه؟

ما أكذبه، تتجلى في عينيه أروع نظرة رثاء يمكن أن تتجلى. صدقني يا رجاء يا عزيزي لو كان الأمر لا يزال ممكنا لكنت أسندت لك دورا في مسرحيتي الجديدة، لكن من أين؟ أصحابك قفلوها في خلقتي من كل ناحية. يفتح محفظته المتخمة بالنقود ويناولني جنيها.

– لا أظن أنني سأرده قريبا، اعذرني فأنا لست مُعينا مثلك في الجمهورية أو الإذاعة لأضمن متى سأقبض أو كم؟

يبتسم – ربما إحراجا وربما شعورا بالاستعلاء على نجيب المجنون المتشرد – ويقول للتاكسي على جنب، ينزل في ميدان الجيزة ويعطي السائق الأجرة ويقول له:

– نزّل الأستاذ نجيب سرور مكان ما يحب يا اسطى.

أتأمله والتاكسي يبتعد بنا، مشكلة الإنسانية أنها تدور في دائرة مقفلة وتحتاج في كل جيل أن تكرر نفسها وأن تعيد نفس الكلام ونفس الحروف عن نفس الأشياء دون جدوى ودون أي أمل في أي تقدم.

يسألني السائق عن الوجهة التي أريدها فاسأله بدوري:

– قولي لي يا اسطى، عدم المؤاخذة، أيهاأحسن، تبقى خامورجي ولا تبقى خول؟

يضحك السائق وهو يقول:

– خامورجي طبعا، أعوذ بالله من الحكاية التانية دي.

– تمام، كده متفقين، اطلع بنا على مخزن ستلا هنا في أول الهرم.

ولا أدرك أنني كنت واقعا في براثن المؤامرة بالكامل إلا بعد أن تتشابك الخيوط حول رقبتي مثل أي شخصية بلهاء من تلك التي في روايات محمد عبدالحليم عبدالله الرومانسية.

* * *

عند مدخل الهرم أحاطت بي أربع سيارات سوداء، اقتحم ثلاثة رجال طوال القامة التاكسي، جلس أحدهم بجوار السائق، وجلس اثنان في الخلف، أحدهما عن يميني والآخر عن شمالي. دون كلمة تحرك التاكسي وكان السائق يعرف الطريق (طبعا!) وبعد دقائق وجدت نفسي في قسم البوليس، جذبتني اليد الثقيلة خارج التاكسي ثم عادت لتدفعني داخل القسم، ثم إلى سلم، أرتقي السلم بين دفعاتهم المتعاقبة وأجد نفسي بإزاء طرقة صغيرة، أدخلها لأجد نفسي أمام مكتبين يجلس على

كل منهما أحد الضباط الشبان، أجلسوني على أريكة بين الضابطين وأغلقوا الحاجز الخشبي الذي يفصل بين المكتبين ومدخل الغرفة الضيقة. فجأة رنّ جرس التليفون. رفع الضابط الذي عن يميني السماعة ...

- أيوة، أيوة يا فندم مفهوم.

التفت إليّ، ثم وضع السماعة. لست محتاجا لنباهة لأعرف أن المكالمة خاصة بي .. هكذا بسرعة؟! إنهم لا يضيعون وقتا حين تدعو الضرورة للاستعجال .. ويبدو أنهم في عجلة من أمرهم هذه المرة .. كنت أعرف مصيري جيدا.. أنا عارف اني حاموت موتة ما ماتها حد .. لكنني لن أترك العالم يمر دون فضيحة .. لم تمض دقائق حتى امتلأت الغرفة الضيقة بعشرات من النسوة والرجال والصبيان من كل المهن .. من أين جاؤوا بهذه الكثرة؟! وفي هذه المدة القصيرة؟!

كانت الغرفة الضيقة تكاد تنفجر بالضوضاء حين قلت للضابط بصوت مرتفع:

- أقدر اعرف انتو جايبيني هنا ليه؟

فرد الضابط بحدة:

- اقعد ساكت!

- أقعد ساكت يعني ايه؟!

- يعني تخرس!

- انت اللي تخرس وتتلم وتكلمني كويس.

هدأت الضوضاء في الغرفة وتحولت نحوي كل العيون .. نظر نحوي الضابطان بذهول .. ثم كتم الضابط غيظه للإهانة وانكب على دفتر كبير أمامه وراح يقر أوراقه بعصبية.

نظرت حولي ولمحت رغيفا وقطعة جبن في يد صبي وصغير! جائع أنا وعطشان! أدرت بصري في الغرفة فلمحت نافذة صغيرة تتربع فيها قلة .. كنت قد أبصرتها وهم يدفعونني من قليل إلى الضابطين .. نهضت وتناولت القلة دون إذن وشربت. أخذت الرغيف والجبن من الصبي وأكلت! نظر لي الضابطان مرة أخرى وعيونهما تطق بالغيظ .. أحسست بالشماتة .. على العموم قد تمكنت من الأكل والشرب رغم أنفيهما!

- نجيب محمد نجيب هجرس

ينادونني باسمي كما هو مكتوب في البطاقة، وطبعا القصد هو إهانتي لا غير، وكأنهم لا يعرفون من أنا.

جاء النداء من الخارج.. ثم دخل عسكري إلى الغرفة وكرر النداء .. فرددت، أفندم.

- قوم فز تعال.

- على فين؟!

نهض الضابط الذي عن يميني وجذبني بشدة فأوقفني ثم جذبني مرة أخرى ودفعني أمامه بقسوة إلى خارج الحاجز الخشبي .. فتلقفني عسكري من ياقة الجلباب وضيق على رقبتي الخناق وسحبني إلى الطرقة الخارجية.

كانت الطرقة تنتهي إلى بلكونة صغيرة تطل على ساحة خارج القسم كنت قد رأيتها من التاكسي مزدحمة بالمارة والباعة والسيارات .. لاحظت محل أحذية صغير ومتواضع على يمين الداخل إلى القسم .. ودون تفكير تركت الجلباب في يد العسكري ووقفت في البلكونة أصرخ .. الصوت الجهوري الذي نزل من السماء ليجلجل فوق خشبة المسرح يأتي به الزبانية واللصوص ليصرخ في أقسام البوليس:

- نجيب سرور، نجيب سرور الشاعر يتشنق ليه؟!

رحت أكرر هذه العبارة بأعلى ما وهبتني الطبيعة من صوت، فما للظلم ينطق بالتنادي/ وما للحق ينطق بالسرار. لن ينطق الحق بالسرار ولن يهمس بعد ذلك، سيزعق وسيصرخ بأعلى صوته. كنت أقف في البلكونة بحيث يمكنني أن أرى ما أمامي في الساحة، والتي تزدحم فجأة كما لو كانت هناك مظاهرة، أما الضابطان والعساكر فقد وقفوا في الطرقة ينظرون نحوي ولا يتحركون، فهمتُ أنهم يخشون أن أقذف نفسي من البلكونة للساحة .. ظللت أكرر نفس العبارة حتى فتحت نافذة من فوق رأسي وناداني صوت.

- تعال يا نجيب .. اطلع أنا عاوزك.

ردد أحد العساكر:

- سيادة المأمور عاوزك.

صرخت:

- عاوزني في إيه المأمور؟ عشان يبقى الشنق دكاكيني؟ لأ.. خلوها كده عالبهلي. على عينك يا شايف.. نجيب سرور الشاعر يتشنق ليه.

كانت المؤامرة تنغلق حول عنقي بإحكام، ولم يكن هناك من مفر.

(٤)*

بيان حالة / تقرير دخول طبي

(ملحوظة : البيانات الموضحة أسفله مثبتة كما ترد في البطاقة الشخصية للمذكور حيث أنه كان - ولا يزال - في حالة هياج شديد لا تسمح بالسؤال ولا الاستفسار وتم السيطرة على الحالة باستخدام المهدئات الكبرى Major tranquilizers والفحص لتحديد التشخيص المبدئي)

الاســـم : محمد نجيب محمد هجرس

تاريخ الميلاد : ١ يونية ١٩٣٢

العــنوان : ٣ شارع عليش المتفرع من شارع ربيع الجيزي-الدور الرابع- رقم ٨ - الجيزة.

المهــنة : (حسب المدوّن في البطاقة) مخرج مسرحي!!

---

* البيانات الطبية المسجلة بشأن نجيب سرور منذ دخوله مصحة العباسية وحتى خروجه منها، صورة طبق الأصل.

ملاحظات أولية: نقل المذكور إلى المستشفى من قبل الشرطة العسكرية وذلك بعد مشادة عنيفة بينه وبين رجال شرطة قسم الهرم، وكانت قد وقعت مشادة بين المذكور ورجال شرطة قسم الهرم بعد التحقيق معه وتسجيل محضر تشرد ومحضر سُكر في القسم، ثم اعتداؤه على ضباط الشرطة وحصول حالة هياج شديد له بما أدى لتعذر استكمال التحقيق معه ونقله لنقطة الشرطة العسكرية لمباشرة نقله إلى المستشفى كما هو مُثبت.

وتم استلامه من الشرطة العسكرية في الساعة الخامسة والنصف من مساء الأحد، الثاني من يونية لعام ألف تسعمائة وتسعة وستين، وإثبات استلامه

التشخيص المبدئي :

الفحوصات المطلوبة :

العلاج الأولي (لحين العرض على استشاري) :

طبيب أول مقيم/ عبدالسلام محسن

(٥)*

لماذا لا يبذلون المجهود الكافي في ضبط الدور؟ يعني أن تتقن المرضة قليلا ملامح التأثر المرسومة على وجهها، أن يحاول بواب مستشفى العباسية، ولو قليلا، تقمص الدور الذي أعطوه له. القليل من الإتقان يا ناس؛ فالذي تلعبون الدور عليه مخرج مسرحي، درس في موسكو وعارض بوخاكوف واختلف مع ستانسلافسكي ورأسه برأس أرسطو الله يرحمه، ولكن قومي لا يعلمون. اتفضل يا سيدي ، قسّم وسمعنا. هات السيكا من الأول وحاول أن تقنعني بالمسرحية الهزلية الرديئة التي ستمثلونها عليّ لتدخلوني مستشفى المجاذيب. يا معرصين اختشوا مجاذيب وفيها نجيب. من اللحظة الأولى أدركت كل شيء، منذ أوقفتنا تلك اللجنة – وما أكثر اللجان في بلدنا – في التاكسي الذي ركبته مع رجاء النقاش. الخطة محكمة بعناية وتستحق كل التقدير، لو كان الجميع في بلادنا يعملون بنفس الكفاءة التي يعمل بها جهاز مخابرات

---

* بخط نجيب سرور، طبق الأصل.

صلاح نصر لكنا زمانّا الآن قوة عظمى. ومن اللجنة إلى القسم إلى الشرطة العسكرية، وها أنا الآن في مكان يفترض أنه مستشفى للمجانين محاط باثنين، أحدهما يلبس بالطو طبي مفتعل (قلنا مئة مرة أن نهتم بالملابس، الإكسسورات يا بهايم، الإكسسوارات نصف العمل المسرحي) والآخر مثل ضلفة الباب ويبدو وكأنه أحد الممثلين في فيلم من أفلام البغل حسن الإمام الرديئة. المهم يا سيدي، ذلك الذي يقوم بدور الدكتور يضع أمام عينيه وخلف زجاج النظارة نظرة تأثر ويقول بصوت صادر من جواب الجواب:

- الأستاذ محمد نجيب. (لاحظ أنه لا يناديني باسمي الفني المعروف، نجيب سرور، وكأنه يجهل من أنا) ممكن كلمة؟

- لا...

يربكه الرد غير المتوقع، يحاول أن يجد شيئا يقوله:

- أستاذ نجيب...

- نعم يا سيدي ، أنا الأستاذ نجيب زفت ولا أريد أن أكلم أحدا.

طوال عمري وأنا مؤمن بإعطاء الفرصة للشباب؛ يعني ممثل واعد في مثل هذا السن يرتدي البالطو ويؤدي تكليفات مباحث أمن الدولة حتى ينتهي المشهد بذهابي للمخانكة، تشجعه قليلا، وماله...

- نعم؟

- أستاذ نجيب بعد إذن حضرتك، دقيقة واحدة، كلها كلمتين.

المشكلة أن الحقائق أوضح من أن تحاول الالتفاف حولها، المشكلة ان الشمس لا تحتاج لبرهان والمشكلة أن شهر يناير دائما بارد، ما تكون لذة الخلق دون ابتكار؟ كيف يمكن صناعة مسرحية جيدة ونحن أسرى لكليشيهات المسرحيات القديمة، طالما قالوا أنني عنيف وعصبي في توجيه الممثلين، لكن يعني هل وصل الاستهتار لهذه الدرجة، أن يستخدم مفردات المباحث في خطابي دون أي مراعاة للبالطو الأبيض الذي يرتديه، دون أي مراعاة لمفردات الدور الذي يقوم به. هذا ليس استهتارا بالدور بقدر ما هو استهتار بي أنا شخصيا، وهذا ما لا يمكن أن أقبله. كان لا بد أن أرد عليه ردا مناسبا...

يتراجع خطوة للوراء من أثر الصفعة التي استقرت على خده الناعم وتتجلى في عينيه نظرة الذعر.

يحيط بي البغل الذي جاء معه، لا أضيع مجهودي في مصارعتهم فالأمور محسومة، كانت الصفعة للطبيب عقابا له على عدم الإتقان أما ما سيأتي بعد ذلك فهو مكتوب في الخطط منذ قديم الأزل، لقد أشار أبو العلاء لهذه الحادثة قبل وقوعها، أشار لها بالذات حين قال:

لهم حيلٌ في حربهم ما اهتدت لها / جَدِيسٌ ولا ساست بها الملك جرهمُ

أليست هذه حيلة من الحيل التي قال أبو العلاء أنهم سيحاربون بها. أرجو أن يهيئوا مكانا جيدا، الممرضون يحيطون بي وأنا أهوّشهم ولكني لن أضرب أحدا. كل ما أرجوه هو أن يكون المكان مناسبا للتفكير، للتذكر، على الأقل لاسترجاع ما أحفظه من أبيات شيخ الكتيبة الخرساء، أبي العلاء.

***

وتظل تنهشك الوحوش .. هذي العيون الخاليات من الرموش

لو كان يعرف بالقلوب الناس لم يصفعك دوما بالسؤال ..

- كل ابن كلب -

من أنت؟ كالقفاز في عينيك .. بالسكين قلب ..

والله العظيم أنا في شيء لله .. هل كنت أعلم وأنا أكتب هذا الكلام أنه سيحدث بهذه الطريقة الركيكة في هذا الديكور الذي من المفترض أن يكون مستشفى.

المرضون يضعونني داخل قميص أكتاف متسخ، تلذع أنفي رائحة القماش القديم العطنة ماركة الرفاهية التي وعدنا بها الاتحاد الاشتراكي. لا أقاوم كثيرا عملا بنصيحة أبي العلاء:

وايّ انتفاع للهديل الذي مضى .. على عهد نوح بالهديل المرجع.

لا انتفاع لهديل بهديل مرجع، ولا انتفاع لي بمناقشة ما يحدث من عبث، أتركهم يضعوني في القميص القذر الذي يضعونني فيه ، تفلت رغما عني مخاطبا المرض:

- إلى هذا الحد وصل الإهمال في مصر الثورة .. لماذا لا تغسلون القمصان بذمة. روح الله يخرب بيوتكم.

لا يرد المرض ويكمل تكتيفي بإخلاص ثم يقتادونني إلى عنبر واسع، أسرّة تصطف خالية جوار بعضها البعض، يلقون بي في سرير يستقر في ركن بعيد، يعطونني حقنة لا أحتاج أن أكون ذكيا لأعرف أنه مهدئ أو مخدر، وداوني بالتي كانت هي الطافية، تمر ساعة بين الصحو والإغفاء ثم يأتي طبيب شاب يحاول أن يخفي ذعره تحت قناع من

التماسك المهني ، ينتزع ذراعي من خلف قميص الأكتاف ، يخطر لي خاطر عابث، يقترب قليلا حتى يصير على مقربة كافية :

- بخ!

أنفجرُ في الضحك والمسكين يرتد للوراء وجسده يرتعد من الاضطراب. حسنا، إن كان ما يجري هنا بعلم أمن الدولة فلتكن هناك مساحة من البهجة، آه يا أولاد الزواني يا معدومي الإبداع. الدكتور المحترم فوجئ برد فعلي وهاهو يستعيد توازنه قليلا. يقترب كأن شيئا لم يحدث، يقيس الضغط ويحسب النبض ويدون شيئا في ورقة مثبتة في لوحة خشبية - ها قد بدأنا نهتم بالإكسسوارات بشكل لا بأس به - ثم يقول في رصانة مهنية :

- لا تقلق يا أستاذ نجيب.

أبدأ أسترخي وأجد النوم الناعم يتسرب إلى عيني ، يبدو هذا المخدر السائر في وريدي لذيذا، متهاديا، عطوفا، أجد نفسي استسلم لإغفاءة جميلة، في ذلك العنبر البائس، لكن على مين؟

إني أضم حديقتي يا خُق عطر

إني أقبلها كأني سابح في نهر خمر

أنظر له في عينه، وأسأل:

- اسمك ايه؟

- عبدالسلام..

-عبدالسلام ايه...

- عبدالسلام محسن..

- يا راجل، حاول تضبط الدور شوية، المفروض ترد بثقة وتقول: دكتور عبدالسلام محسن، المفترض انك دكتور برضو، يلا، كلاكيت تاني مرة، اسمك ايه؟

يبتسم الفتى المسكين، وأغيب أنا في حديقة النعاس المطمئنة.

مدونـــــــة رفايــــع

(٦)

بيان متابعة حالة

بالإشارة للمريض المذكور تبين بالمتابعة أنه:

- يعاني من هلاوس سمعية وبصرية من الدرجة الثالثة.

- التقدير المبدئي للحالة يُرجح إفراطه في تعاطي الخمور وهو ما يرتبط بهلاوس أخرى - المعروفة بالهلاوس الكحولية Alcoholic Hallucinations، وتم سحب عينة دم لإجراء الفحوصات اللازمة، كما يؤكد ذلك عنف المذكور في التعامل مع التمريض ومع الأطباء المعالجين له وقبل ذلك مع أفراد الشرطة أثناء التحقيق معه أو نقله للمستشفى.

- يُلاحظ أيضا أن الهلاوس التي تسيطر على المذكور من النوع الثابت، ذات الطابع المتماسك Non bizarre - بخلاف ما يرد في المراجع والكتب بشأن هذا النوع من المرض، (حيث من المعتاد أن تكون الهلاوس متغيرة من وقت لآخر) يجدر الاستعانة باستشاري للتعليق على هذه الملاحظة.

التشخيص المبدئي :

- إدمان كحولي مرتبط بهلاوس سمعية وبصرية؛ مع هلاوس وضلالات بارانويا ذات طابع فصامي، من الدرجة ثلاثة.

- هلاوس مرتبطة بالمطاردة Persecution وتكرار لمفردات مثل مخابرات / أمن / شرطة وغيرها مما يؤكد التشخيص المبدئي المذكور أعلاه.

- الهلاوس ذات طابع متماسك وهو ما يناقض المعروف من الحالات من هذا النوع (ربما تبدو هذه الملاحظة ذات فائدة علمية، ويمكن التعليق عليها في اجتماع القسم وذلك لتعم الفائدة على باقي الزملاء)

- الملاحظة الأخيرة هي أنه من الواضح أن هذا المريض واسع الاطلاع أو أنه قرأ في علم النفس بشكل من الأشكال، تتردد في كلامه بعض المصطلحات العلمية كما أن مستوى ذكائه مرتفع ويحاول تشخيص حالته ويحاول طوال الوقت معرفة ما نفكر فيه أو الطريقة التي سنستخدمها في علاجه، وهذا يؤكد ثانية ملاحظتي السابقة بشأن عرضه كحالة في اجتماع مجلس القسم ذات مرة حتى تتمّ الإفادة.

(٧)*

المشكلة هي السيطرة على الإيقاع.

كيف تسيطر على إيقاع ما يحدث ، كيف لا يحدث الترهل الذي هو بمثابة شهادة الوفاة للعمل الفني.

حين كنت أكتب "ياسين وبهية" كانت المشكلة هي كيف لا يتحول نشيج الكورس إلى عبء على جسد المسرحية، الحبكة الرئيسية التي ينتظرها المتفرج بشغف، الموازنة بين الشاعرية المطلوبة للتعبير عن غنائية اللحظة وبين تفاعل حركة الرواة ورصد ما يجري، يبدو أنني نجحت وقتها لأن الرواية نجحت تماما، كانت أمتع اللحظات – ولعلها الشيء الوحيد المضبوط في هذه الدنيا المعووجة – هي اللحظات التي أراقب فيها المتفرجين، من وراء ستار المسرح وهم مسلوبون تماما ، عيونهم متحلقة ببهية – نجاة علي – وهي تردد عن لساني :

---

* بخط نجيب سرور، طبق الأصل.

- أمَا يا مة شفت حلم

غريب، يخوف

شفتني قال راكبة مركب

والمراكبي ابن عمي، وأنا قال عمالة أقدف...

ثمة سيطرة على الإيقاع؛ وهذه هي المشكلة هنا، الإيقاع معدوم تماما. بعد اصطيادي من الشارع، أخذ البيانات، تمثيلية الأطباء المعالجين والحجز في هذا العنبر، ثم لا شيء. إيقاع مترهل تماما، إيقاع اللاإيقاع، إيقاع الجنون الذي يريدون أن يحبسوني فيه، خارج الزمن، خارج الوجود. إنها جريمة ولا يعنيني تماما إن كانت مدبرة أم لا. إن كانت بعلم المخابرات المصرية فتلك مصيبة، وإن كانت قد حدثت من وراء المخابرات كالعادة فالمصيبة ألعن وأضل سبيلا، وفي كل الأحوال أنا محبوس هنا، في مستشفى المجانين بالعباسية.

لقد فقدت الأمل في العدل الإنساني البسيط، الحق في الوظيفة والاستقرار والاطمئنان، الحق في أن يكون لي بيت ومهنة أحبها وزوج أسكن إليه مثل أي شخص عادي بلا مواهب وبلا إبداع وبلا لغات وبلا حس نقدي سليم. لقد فقدت الأمل في العدل وأنا أظل كل يوم

حين أصحو على منظر المجانين يبرطعون في أنحاء المستشفى فأنظر وأضحك وأبصق ثم أنتظر العدل الإلهي، فلم يبق لي غيره.

***

ها هي الدراما تبدأ، ها هي الأحداث تبدأ في الانتقال من ذهن المؤلف المجهول إلى خشبة المسرح، إلى حياتي.

هذا الطبيب الذي أقسمُ أنه إما من رجال المباحث أو من رجال الماسون؛ يبدو مثل اليهود الذين تكفلوا بتحويل السيد المسيح من مشروع عالمي إلى أيقونة ذهبية، ونجحوا في القضاء على عبدالناصر معنويا، ولا شك أنهم سيقضون عليه فعليا قريبا. يمر عليّ، بين مروره بباقي المرضى التعساء، ذلك الطبيب المُزيّت، بجسده العريض وبنيته الطويلة وشعره الذي يسرحه على جنب، وتتوسطه مساحة صلع تضفي على منظره - بالإضافة لنظارته السميكة وملامحه المربدة على الدوام - طابعا من السخافة لا يطاق. كم يبدو شبيها باليهود بصوته الرخيم وعبارته المضبوطة والألفاظ اللاتينية التي لا أعرف هل هي شفرة خاصة بي أم أنها طريقة سرية للتواصل مع من أرسلوه. أسدد له نظرة استهانة واضحة ولكن يبدو أنه لا يتأثر، لا يبدو أن له مشاعر مثل باقي مخلوقات الله. أرفع يدي مثل طالب يستأذن الدرس في الفصل للكلام، أثني جذعي وأضع إصبعي في فمي وأصوب عيني في عينه.

- ممكن أطلب من حضرتك طلب ؟

- تفضل .

- ممكن تقول لي متى ستقتلونني بالضبط؟

يبتسم ابتسامة لزجة ويلعب في الأوراق أمامه ولا يرد، فأضيف..

- يعني حتى آخذ استعدادي، لا أريد أن أؤخذ على غفلة...

- طيب واحنا نقتلك ليه يا استاذ نجيب؟ احنا أطباء مش مجرمين..

- طيب، بلاش، ممكن تسألهم متى سيقتلون جمال عبدالناصر؟

ابن الكلب ينظر للممرضة ويتكلم بشفرة لاتينية لا أفهمها. ماذا يقول، هل تسرعت بكشف إدراكي خطتهم. عندما كان الطلبة اليمنيون جالسين خلفي في المطعم في موسكو لم أكن أتبين ما يقولون بوضوح لكني كنت أعرف أنهم يسخرون مني ومن عبدالناصر ومن مصر. قيل وقتها أن نجيب موسوس ويظن أن الجميع يكرهونه. كيف أشرح ما ليس قابلا للشرح، إني أرى ما لاترون، وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل، أقترب من المخلوق المعبأ في بالطو أبيض وأسأل بوضوح وعيني في عينيه:

- أنا عارف أني حاموت موتة ما ماتها حد، حتقتلوني امتا؟

- لن نقتلك، ولن نقتل سيادة الريس أيضا، اطمئن.

- ولكنك لا تريد أن تجيبني، عبدالناصر سيموت مقتولا وأنا سأموت مقتولا. قل لهم أن عبد الناصر الذي جعل منهم وحوشا يتحكمون فينا ويدخلوننا المصحات النفسية سيموت قتيلا قريبا على أيديهم، قل لهم حتى يأخذوا حذرهم، على الأقل حتى يظلوا محتفظين بمناصبهم وبمراكزهم، قل لهم فأنا أشفق عليهم، نجيب سرور يمكنه أن يعيش دون وظيفة ودون دخل ثابت، أما هم فإذا فقدوا مناصبهم فقدوا كل شيء.....

وأجد نفسي فجأة أرفعه من ياقة البالطو، أرزعه في الحائط مرتين ببساطة ثم أجدني جاثما فوقه .هذا النطع اليهودي القذر الغبي البارد. يتجمع باقي رجاله من مرتدي ملابس الممرضين ويحيطون بي، يرفعونني عنه فيقوم وهو ينفض ثيابه بارتباك ظاهر.

- لا، انت حالة ميئوس منها، أنا غلطان أني تركتك من البداية. والله لأحولك مادة اربعة.

***

(٨)*

عزيزي يوسف،

....

درجة رابعة. اللهم لك الحمد والشكر. طلبنا منهم وظيفة لنضمن الاستقرار (وأنت كنت شاهدا من شهود ذلك يا يوسف) فظلوا يماطلون ويتهربون، ولكن هاهم الآن يمنحوننا في مصحة العباسية "الدرجة الرابعة" المصطلح يبدو شبيها بمصطلحات المسرح. أنت تعرف بالطبع ما يطلق عليه المسرحيون "الشخصية الخامسة" الشخصية التي تظهر لتحدث البطل قليلا، تشعل له السيجارة، تتبادل معه كلمة في الطابور أو تقف بجواره وهو يقوم بأي شيء في مسار حركة الدراما. هذا أنا الآن. عنبر الخالات الرابعة في قسم أول حيث أحدث أفانين

---

* جزء من خطاب يبدو أن نجيب سرور كان ينوي إرساله للكاتب الشهير يوسف إدريس ولم يتمه، طبق الأصل.

وسائل التعذيب. معي طلاب جامعة وأوائل ثانوية عامة وعمال مصانع نسيج وأساتذة في الجامعة ومهندسون وفلاحون وعلماء ذرة منهم دكتور إمام، استاذ ذرة بجامعة الإسكندرية ، استاذ جامعة يا أولاد الكلب تضعونه في مستشفى المجانين. (دكتور إمام هذا حكايته حكاية، لو أتيح الوقت لكتبتها لك بالتفصيل أو من يدري، ربما نجلس سويا على ريش وأحكي لك حكايته ذات يوم) تخيل يا يوسف، إلى هذه الدرجة يصل الافترا والجبروت. دكتور جامعة ينتهي به زمن الستينات الجميل نزيلا في مصحة العباسية؛ ولا أدري لماذا كان يثق بي ويستريح لي وهو الذي كان يشك في نفسه . ربما تكون هذه، فعلا، حكاية تستحق أن أحكيها لك، ربما تجد فيها مادة لقصة قصيرة جديدة ، فإننا نفتقد قصصك العظيمة ونشعر بالأسى وأنت تبدد هذه الموهبة الإلهية في أحبار الصحف التي تعبر وتزول.

....

صديقك المخلص

نجيب سرور

(٩)*

١. يارب صاحب أمانه نبعته مرســال
للمســئولين اللى فوقنا فى السما الســابعه
يقول لهم ع اللى حاصل واللى ما ينقال
وان كانوا يستغربوا يحلف على "الرابعه"

٢. وصاحبنا عامل شريف فى النغمه ومفلس
خليه شريف يعنى جوّع كس دين امه
ولما يتعب هايجى بنفسه ويفتّش
ويجيب مراته كمان .. يمكن يجيب أمه.

---

* بخط اليد، ويبدو أنها المسودات الأولى للقصيدة الشهيرة "أميات" والتي تمت كتابتها بالكامل - تقريبا - في مصحة العباسية.

٣. ثروت عكاشه خول والعهده ع الراوي
وزير ويغلبني طبعاً لما اكون عاطل
وينبك مراتي وامانه تسألوا الصاوي
طب يعمل ايه الضعيف لا حق ولا باطل

٤. مخرج .. ممثل .. مدير .. حتى الوزير ناكها
حتى اللي انا ياما عنه كتبت واسمه " نجيب "
شوفوا حكاية الزنى دمغه على وراكها
وقولوا بعدى " نجيب " رد الجميل " لنجيب "

(١٠)

بيان متابعة حالة

بمتابعة حالة المذكور، تمت ملاحظة تدهور في طبيعة الهلاوس والضلالات التي تسيطر عليه، بحيث تتغير من وقت لآخر مع احتفاظ هذه الهلاوس بطبيعتها المتماسكة الثابتة، بالإضافة لعدم الاستجابة للعلاج السلوكي والمهدئات البسيطة بشكل فعلي. مع ظهور مضاعفات عدوانية؛ منها التهجم على بعض أعضاء التمريض والطبيب المعالج، وكذلك تدوينه لكتابات بذيئة وشتائم - يصر أنها قصائد أشعار يحكي بها قصة حياته - وقد تم استخدام جلسات العلاج بالكهرباء ECT والمهدئات الكبرى Major tranquilizers كما هو متبع في السيطرة على مثل هذه الحالات؛ بتلقي جلستين متتاليتين حتى الآن، مع المتابعة الدورية اللازمة وتاريخ الجلسات مثبت أسفل بيان الحالة مع باقي فحوصات المذكور.

ومما سبق، تم تصنيف المريض المذكور تحت بند مادة أربعة؛ نظرا لخطورته، أولا على نفسه وثانيا على باقي طقم العمال والتمريض والأطباء المعالجين، واتخاذ الإجراءات اللازمة وفقا لذلك.

طبيب أول مقيم

عبدالسلام محسن

(١١)*

هل هذا ما يسمونه باضطراب الموس، لنكن مثقفين أكثر حتى يرضى عنا السادة الجهابذة النقاد مثل الماريشال بهيج نصار الذي نسي أصله وفصله وأخذ يهاجم مسرحيتي "آه يا ليل يا قمر" بدعوى الابتذال الفني (بينما في الحقيقة وجود بهيج نصار وأمثاله في الحياة هو أساسا أكبر ابتذال في التاريخ)، لنقل Mania فيرضى عنا أمثال بهيج نصار من النقاد ولاد القحبة. هل ما أنا فيه يندرج تحت هذه الحالة؛ أتجول في فناء المستشفى الأجرد العابس، الأشجار العارية البائسة والمنظر الجاف التعيس، أحيانا تسيطر عليّ حالة من الرضا، حالة من التفاؤل غير المبرر، أتذكر مشهدا كتبته في مسرحية أو نظرة عين مندهشة من متفرج بين مقاعد المتفرجين، منبهرا بمشهد خلقته. أتذكر عبارة تشجيع صادقة من مشاهد عادي يستوقفني ويشد على بعد العرض أو يكون قد رآني في التلفزيون، سُقيا لتلك الأيام التي كنا نطلع فيها في

---

* نجيب سرور، طبق الأصل.

التلفزيون، أيام قال من هو أخوك بحقد فشل في إخفائه "يا نجيب انت ناقص تطلع لنا من الحنفية" يوم كنا ولا تسل كيف كنا، مسرح وإذاعة وشعر وكتب وتحقق بما تعنيه الكلمة وكلمة صادقة تصل للناس فيقبلون عليها مكتوبة في كتاب أو مسموعة في مسرحية، تاركين مقاعد المزيفين خالية وكتب المدعين الكاذبين على الأرصفة والأرفف لا تجد من ينظر إليها. يستولي علي اليقين أنني موهوب وأن هذه الموهبة لا يمكن لها أن تتبدد في العدم، وإلا فما معنى وجودها من الأساس، أشعر بالاطمئنان قليلا، المطمئن لا يصل أبدا، (من الذي قال هذه العبارة من المتصوفة، الجيلاني أم ابن عربي أم ابن الفارض، أصبحت ذاكرتي بالغة الرداءة هذه الأيام، يلعن أبو الأطباء النفسيين على أبو العلاج بالكهرباء على بهايم أمن الدولة الذين لا يفرقون بين متطلبات العمل ومتعتهم الشخصية في التعذيب). ولكن، في أحيان أخرى تسيطر علي حالة من العدم والخواء. تسيطر علي فكرة أن حياتي كانت مجرد أكذوبة كبيرة، ربما لست موهوبا أصلا ، ما الذي حققته حتى الآن غير خلاف دائم مع كل الناس من ابي وأخي في أخطاب وصولا لموسكو ومرورا ببودابست وانتهاء بالقاهرة. مسرحيات لن ينشرها أحد، إشفاق من الجميع، زوجة مخلصة بعيدة وزوجة أخرى طلقتها بعد أن تركت ذكرى هي اسوأ من أي ذكرى، وشكا في كل شيء، لا يزول. من الذي قال إنني وسيم؟ من الذي قال إنني جذاب؟ أو إنني قوي جنسيا؟ أفكرُ أنه حتى تأوهاتها

تحتي ونحن نائمين معا، ربما كانت مجرد تمثيلية هي الأخرى، فتقتلني الفكرة وأوشك أن أذبح نفسي بنفسي قبل أن يفعلوها هم. من الذي قال إن المشاهدين الذين كانوا يحضرون المسرحية ليسوا إلا رجالا من رجال المباحث؟ أو حتى مواطنين عاديين متعاطفين مع نجيب سرور الفقير، فجاءوا لدعمه بقروشهم القليلة؟ نجيب الذي يظن نفسه موهوبا وهو ليس أكثر من متسول يشحذ على صفحات الجرائد. هل هذا هو الاضطراب الوجداني ثنائي القطب الذي درسناه في مناهج علم النفس ونحن ندرس علوم النقد والمسرح أيام كنا في موسكو. يا مولانا يا أبا العلاء ، صعبانة عليّ نفسي ، مضى زمن كنا نقول فيه بملء العزيمة والطموح، وإني وإن كنت الأخير إلخ إلخ إلى زمن نردد فيه قولك:

فيا موت زُر إن الحياة ذميمةٌ .. ويا نفس جدّي إن دهرك هازل.

كيف أكون مريضا نفسيا وأنا واع لطبيعة ما يدور في ذهني من أفكار، أعرف أنها حالات نفسية دورية ، مجرد عدم استقرار ، (ومن أين يأتي الاستقرار طول ما الدكتور ثروت عكاشة وطيزه الطرية مستقرة على مقعده، وطول ما المديوكر يوسف السباعي يواصل دهن شعره بالفازلين وكتابة الروايات على التوالي) دولة التعريص ليست بحاجة لدون كيخوتة، ولا بحاجة لفيلسوف معرة النعمان، دولة اليهود والشواذ والعاهرات بحاجة لمسيح جديد يحمل عنهم إصرهم والأغلال

التي في أعناقهم. هاملت بإمكانه أن يوظف جنونه في خدمة الفن لكنه لا يستطيع أن يوظفه في خدمة الإصلاح.يمكنني الان أن أفهم عبارته المغلقة "ثمة عفن في الدانمرك" المترجم الحمار ترجمها ثمة فساد في الدانمرك، وهو لا يدرك الفرق بين العفن الذي لا يمكن معالجته سوى بالإزالة، والفساد الذي يمكن إصلاحه، هنا يمككنا أن نشير للفرق بين المترجم وبياع الكفتة إننا نصرخ في فناء بلا أي جدوى دون أن نملك القدرة على إزالة عفن الدانمرك ودون حتى أن نجد المسرح الذي كان هاملت يمارس الجنون عليه، وأنا هنا أتمشى أنا هنا بهذه الأسمال الحقيرة ورأسي الحليق وسط المجانين ووسط ضحايا نظام *"ناصر كلنا بنحبك ناصر"* تتعبني قدماي من السير في الفناء الترابي فأجلس في ظل شجرة عارية ألعب بغصن وأفكر فيما كان وفيما هو كائن، ألمح هذا المريض الذي يشاركني مادة أربعة ويشاركني قسم الحالات الخطرة المبارك، أتأمله وأفكر ما إذا كان شكلي قد صار هكذا ، تعيسا وكابيا ومهزوما ، تصيبني الملاحظة بالحزن ثم أفكر أن هناك شيئا ما بداخلي لا يمكن لأحد ان ينتزعه مني ، مهما بلغ من سطوة الكهرباء أو من سطوة أمن الدولة فإن خيالي ملكي وحدي ، المريض ينكمش حين أقترب فافكر أنني قد أكون هزلت أو فقدت ملامحي الجذابة لكني يستحيل أن أكون مهزوما بهذا القدر ، منكمشا على نفسي، وواثق أن نظرتي ليست فارغة

تماما مثل هذا المسكين الذي يبدو جثة بلا روح. ألقي عليه السلام فلا يرد، أسأله:

- مخابرات ولا أمن دولة؟

هل أبدو كذلك؟ كتلة من اللحم المجرد دون تعبير. أقترب منه فيزداد انكماشا، ابتسم له واسأله في إشفاق:

- أنا آسف.

ينظر لي بذات النظرة الفارغة ، وإن كان يشوبها شيء من الاستطلاع ، ويظل على انكماشه لكنه لا يتحرك من مكانه.

- يعني المفروض أننا زملاء عنبر خطرين واحد، المفروض أن أعزم عليك بسيجارة وكوباية شاى حتى يطيب التعارف لكن . . .

وأشير بذراعي من حولنا وأنا أهمس :

- لا شاى ولا سجائر . ليس في الكانتين هنا غير الـ ٢٥٠ فولت.

وأضع إصبعيّ على جانب رأسي وأؤدي مشهد الكهرباء :

- إززززززززززززززز

وتلوح في شفتيه ابتسامة باهتة أقتنصها وأنا أقترب منه:

- عزيزي المستمع، نحب نعرف رأيك في نظام التعذيب بالكهرباء في أمن الدولة؟

نصبح على أعتاب الصداقة وأنا أردد..:

- وفي نهاية البرنامج ، ماذا تحب أن تسمع؟

وأقول في نبرة أسيانة، واثقا أنه سيفهمني:

- "يا ناس أنا متّ في حبي" لسيد درويش . . .

وأبدأ أنشده بصوتي الأجش، والذي يبدو أنه يطربه على أي حال ...

وتلتمع عيناه بالدمع، ونضحك سويا، ربما من فرط مسخرة الموقف الذي نحن فيه.

***

نصبح أنا والدكتور إمام أصدقاء، أعرف أنه كان أستاذا للجامعة بكلية العلوم - هذا ما فعله رجال عبدالناصر بعلماء مصر. لا يتكلم كثيرا، نتمشى في فناء المستشفى ونتجاور في جلسة الغداء الحقير الذي تقدمه لنا مباحث أمن الدولة (مستشفى العباسية للمجانين سابقا) تمر أيام هادئة، أتكلم معه وأحادثه، يمكننا اعتبارها خلوة أو محبسا

كمحبس أبي العلاء، ويمكنني أن أتصوره ساشو بانثا تابع دون كيخوتة، أسأله :

- ما هي حكايتك يا دكتور إمام، كيف جئت إلى هنا؟

فيحكي حكاية مملة، مملة لدرجة أنها لا يمكن أن تكون حقيقية. أشعر بالرثاء. إنه يحكي الحكاية البائسة التي رددوها على مسامعه وظلوا يلقنونها للمسكين حتى حفظها وحسبها واقعا المسكين نظرته كابية فارغة، أقنعوه أنه تعب فجأة وأن مزاجه تغير وأنه أصبح يخشى الناس، أقنعوه أن زوجته أرسلت به لهنا حتى يتم علاجه وتتحسن حالته ويعود إليها طبيعيا كما كان، يا عزيزي الدكتور، النص جاهز ومكتوب لك ومتفصل، والدور كده تلبسه وتنام عليه وتقوم. أي جبروت أن تجرد الإنسان من الإنسان، ولكنني أعلم الحقيقة، وأفكر، هل أفاجئه بالحقيقة مرة واحدة، أم أتمهل في كشفها، واحدة واحدة.

يكررني ليفهمني رجال .. كما كررت معنى مستعادا

في مستهل لزوم ما لا يلزم وبعد تمهيد قصير يرسم به أبو العلاء صورة العصر كاشفا تناقضاته وموحدا أحيانا بين المتناقضات ممهدا بذلك نفس وعقل القارىء للتلقي والفهم وبعد أن يقول :

وما نُوب الأيام إلا كتائب .. تبث سرايا أو جيوش تعبأ

ثم يوضح قانون الشفرة السرية التي سيتبعها مع ابناء الكتيبة الخرساء التي ستتكفل بانتقال أفكاره عبر الزمان والمكان (أنه لا يُسأل، فإن سئل تعيّن ألا يجيب، فإن أجاب ففرضٌ على السامع ألا يسمع منه، فإنْ خالف باستماعه ففريضة ألا يكتب ما يقول، فإن كتبه فواجب ألا ينظر فيه، فإن نظر فيه فقد خبط خبط عشواء) هذا هو القانون وهذا هو المشترط، ثم يؤكده بقوله:

يرتجي الناس أن يقوم "إمامٌ" .. ناطقٌ في الكتيبة الخرساء.

هل هي محض صدفة أن يكون رفيقي في رحلة العباسية هذه، هو دكتور يدعى "إمام"، إن أبا العلاء يقولها صراحة - أن هذه الكتيبة تتخذ من مصر بالذات مركزا لها، يشير إليه في نقله لقول معاوية "هل رأيت من دنانير مصر شيئا (الدنانير يقصد بها هنا رجال الكتيبة) فهذا ولا ريب من دنانير مصر" إن أبا العلاء قائد كتيبة وصاحب دعوة وفيلسوف ومنظم لتلك الحركة السرية التي كان عليها منذ ألف عام أن تلتزم بالتخفي والسرية..

فما هو تكتيك هذه الحركة؟ وما استراتيجيتها؟ وما تعاليمها ومبادئها وأسسها ومنطلقاتها؟ وأين يا ترى هي هذه الكتيبة الآن؟ هل صفيت على مدى ألف عام من الخيانات أم ما زالت تتحرك تحت الأرض؟ ومن أنت يا دكتور إمام، هل أنت الناطق المنتظر في الكتيبة

الخرساء، هل أنت السيد المسيح الذي سيقوم ليغسل الأرض من الدنس والنجاسة التي ملأتها حتى ما عدنا نطيق المشي فيها، هل سنمضي يدا بيد، جيشا تتقدمه أنت ودون كيخوتة وفيلسوف معرة النعمان، ومعنا كل المرضى الذي يحيطون بنا في هذا المكان التعيس الفقير.

***

بعد تناولنا لما يطلقون عليه وجبة الغداء، نتمشى أنا والدكتور إمام، ولا يتكلم. بعد قليل يجلس في استكانة يستمع لما أقول ولا يعلق. نجلس في ركن في الفناء العاري، ثم يضع هو تحت رأسه فردتي الشبشب الذي يلبسه، وكأنه يريد أن ينام. الجو الحار والمعاملة القاسية وفقرة الكهرباء المتكررة كفيلة بالقضاء على رجل ولو كان في صحة صلاح ذو الفقار شخصيا. أضع رأسه على ركبتي وأردد له - علّه يستطيع النوم...

نم يا صديق

من حق قلبك أن ينام

فلطالما حرموه أن يغفو هو القلب الرقيق

كانوا هنالك شاهري الأنياب والأظفار

في كل منعطف على طول الطريق

نم يا صديق

مدونـــــة رفايـــــع

(١٢)

بيان متابعة حالة

بخصوص حالة المريض المذكور نجيب محمد نجيب هجرس،

* تحسن نوعي في حالة المريض بخصوص الهلاوس السمعية والبصرية، بحيث توقف تقريبا عن ترديد عبارات التآمر والاضطهاد التي كان يرددها عند دخوله المستشفى، وبدأ يستجيب للعلاج بالكهرباء والمهدئات الكبرى بخلاف رد فعله في البداية (وإن كان لا يزال يظهر سلوكا عدوانيا نوعا ما تجاه الأطباء المعالجين وفريق التمريض، ويمكن رد ذلك إلى طبيعة شخصية trait غير متعلقة بالفصام أو البارانويا التي تم تشخيصها)

* كذلك بالنسبة للحالة المزاجية فقد تحسنت عما قبل، بالنسبة للثبات الانفعالي وبالنسبة للحالة العامة للمزاج، فالمريض يظهر قدرا كبيرا من الهدوء وتقبل فكرة وجوده في المستشفى، وأيضا تقبل فكرة العلاج حيث قال للطبيب المعالج بالأمس شكوى (أنه لا يستطيع

الكتابة) وقد تصورت في البداية أنه نسي القراءة والكتابة كما يحدث نادرا كأثر جانبي لصدمات الكهرباء، ولكن حين طلبت منه كتابة اسمه وعدة أشياء أخرى كتبها بسهولة، فيما يعني احتفاظه بقدرته على القراءة والكتابة سليمتين.

* كان المريض يطلب في بداية العلاج بعض الأوراق والأقلام، ولم أجد في ذلك خطورة - مع الحرص على المراقبة المستمرة كي لا يؤذي أحدا - وحين اطلعت على هذه الأوراق مؤخرا وجدت بعضها يحوي شتائم وبذاءات بلا معنى، والبعض الآخر يتكلم عن شعراء ومؤامرة يهودية وما أشبه، وأود أن أستفسر عما إذا كان ذلك يساهم في دعم العلاج - حسب نظرية التفريغ القديمة في تخلص المريض من هلاوسه بكتابتها - أم يساعد في تعميق المرض وتركيز الهلاوس؟

* كذلك هناك ما يشبه حالة صداقة بين المريض المذكور وحالة أخرى هو/ إمام محمد إمام، ويبدو أن هذه الصداقة مفيدة لكليهما لأنهما يتحدثان كثيرا ويضحكان بما يوحي بتحسن حالتهما. ولكني أستفسر كذلك عن تأثير هذه الصداقة إيجابا أو سلبا، لا سيما أن هناك ما يعرف بالضلالات المشاركة Shared delusions والمعروفة بجنون الاثنين Folie a deux فهل يتم إدراج هذه الحالة تحت هذا البند أم يتم إبعادهم أفضل.

طبيب اول مقيم

عبدالسلام محسن

(١٣)*

أين تبدأ الهلاوس وأين تنتهي الحقيقة. إلى أي قانون يمكننا إسناد اللحظة التي دخلت غرفة الكواليس في المسرح لأجد مؤخرة روائي عظيم عارية بين فخذي المدام المفرشحين ، أو اللحظة التي صدر فيها قرار استبعادي من وزارة الثقافة، من معهد الفنون المسرحية، تختلط الصور فلا تتذكر بالضبط كيف خرجت من بيتك أستاذا جامعيا لتجد نفسك بقدرة قادر مشردا في الشارع ثم سجينا في زنازين مستشفى العباسية، الطبيب السخيف معدوم الخيال والحس والتجارب الذي سيكتب في تقريره أنني أعاني من هلاوس لا يعرف إلا الملازم الصفراء التي يذاكر منها والكم دواء الذين يحفظ أسماءهم، هل يمكنني أن أحدثه عن الكتيبة الخرساء، عن ابي العلاء وعن المؤامرة التي تطل

---

* تجريب سرور، طبق الأصل.

برأسها من كل جانب. إننا عميان نضرب بأيدينا هنا وهناك ولا أحد يفهم. حين أعلنت اعتزالي للإخراج كنت أتصور أن الجميع سيعرفون قيمة هذا الاحتجاج. كم كان نجيب سرور ساذجا؛ هذا الطبيب المحترم أصلا لا يعرف من أنا، ولا ألومه، ولا ألوم غيره. إنني أتجرعُ الهزيمة في رضا يائس. أنظرُ للدكتور إمام في يأس ...

- هل شاهدتني، أو شاهدت لي شيئا من قبل ...

ويقذف نظرته في الأرض ويقول بصوت خفيض :

- ياسين وبهية.

ويقول بنبرة أسيانة دون أن ينظر نحوي :

- هكذا تبدو الليالي في بهوت (هو حر، وله في الحق عذر)

وأفكر أين هو الآن بهيج نصار أو أحمد عباس صالح أو باقي النقاد الأغبياء الذين قالوا إن الشعر في المسرحية بمثابة عائق بينها وبين المتلقي!

أين هو الخيال، أين هي الحقيقة، من أين تأتي الهلاوس، أين تذهب بعد ذلك؟ لو كان دون كيخوتة أو السيد المسيح أو هاملت بيننا الآن لكانوا شبعوا علاجا بالكهرباء، لو ظهر محمد الآن لنجح العلاج

بالكهرباء في ما فشل فيه أبو لهب وأبو جهل وباقي كفار قريش مجتمعين، وأقول للدكتور إمام:

- وأنت السيد المسيح!

ولا يجيبني السيد المسيح.

***

ما هي المشكلة الحقيقية التي تسببت في مأساة السيد المسيح ؟ أنه كان مهذبا أكثر من اللازم. السيد المسيح ابن ناس، رقيق وعذب ومهذب مثل كل المرتبطين بأمهاتهم. سمات الشخصية الأساسية هي المحرك المحوري للأحداث. وبالتالي أخلاق السيد المسيح المهذبة كانت هي البداية التي جعلت الدراما تتحرك في الطريق الذي سينتهي به مصلوبا ينتهي بالعالم إلى مأساة تحرك خيوطها بني إسرائيل كيف شاءت. سنعود خطوات للوراء ونجعل السيد المسيح قويا، بعض اللحظات بحاجة للبطش، للقسوة، لا يمكنك أن تتحدث عن الرحمة وانت تتعامل مع شخصيات مرهقة ومجهدة مثل بني إسرائيل.

- لماذا تسكت لهم ؟

يهز كتفيه بطريقته المسالمة وهو يقول :

- وماذا أفعل ، يعني أكيد هم يعرفون ما يفعلون.

بقدر ما أشعر بالتعاطف نحوه بقدر ما يتملكني الغضب من منطقه أحيانا :

- ماذا يعني أنهم يعرفون ما يفعلون؟ يعني لو طلبوا منك أن تدير لهم مؤخرتك ليدسوا فيها أزبارهم فلن تتأخر بدعوى أنهم يعرفون ما يفعلون.

ينكمش داخل نفسه ويلوح في وجهه الرعب. كم يؤثر في وجهك الوديع وملامحك الطيب يا معلم، لكنك مهذب وخجول، مهذب وخجول أكثر مما ينبغي. لا أريد لهذه الدراما أن تصل بنا ثانية حيث وصلت بنا من قبل، لا أريد أن تحدث بدل النكسة مائة نكسة.

- هذا المخطط قديم، لا يوجد علاج في الدنيا يسبب من الألم أكثر من المرض نفسه. المزيفون ملأوا حياتنا والسكوت لهم جريمة، الوضع الذي جعلك تقول قديما "أدر له خدك الأيسر " تغير يا معلم....

وأنظر لأجد سيارة - ماركة تاونس - تركن في طرف الفناء البعيد، اوعدنا يا كريم. ويسيطر عليّ شعور غامض لا أعرف مصدره

فأنطلق نحو السيارة، في اتجاه الشاب الصغير النازل منها، وتقترب خطواتنا، وأجدني أمامه، شاب نحيل صغير السن، وأسأله:

- يا حضرة، معك سيجارة؟

ويتفحصني كأنه يريد أن يسألني عن شيء، ولا يرد، فأقول مكملا:

- سيجارة سيجارة، ليست لي، إنها للسيد المسيح، هناك...

وأشير بذراعي تجاه الدكتور إمام، ثم أكرر النظر لذلك الشاب النحيل الذي يتفحصني بذلك الاهتمام الغريب.

الجزء الثالث:

١٩٧٣ - ٢٠١٠

طلال فيصل

أدركُ من وقع خطواته الثقيلة أنه قادم نحوي، ولا ألتفتُ. أبالغ في انهماكي في قراءة "السبعينة" الواردة توا من قسم الإخراج الفنّي؛ أضع عليها التصويبات النهائية قبل إعطائها لسكرتير التحرير ومنه للطباعة، ولا ألبث أن أشعر بكفه الممتلئة على كتفي الناحل فلا أجد بدًّا من الالتفات؛ أشاهد ابتسامته اللزجة و أترقب سماع صوته المرهق للأعصاب. أعرفُ أنني لست محبوبا تماما، وأن الجميع في الجريدة يقولون إن ملامحي جامدة، إني ثقيل الدم، مغرور، بل وقد يصل بعضهم بالأمر أن يقول إنني مريض نفسيا، لكن بالله عليك، عندما يكون عليك أن تستمع لهذا المخلوق - الذي يظن نفسة فلتة زمانه و أنه مثقف لا قبله ولا بعده - أي مشاعر تلك يمكن أن ترسمها على وجهك. يقول كلاما كثيرا أفهم منه أنهم يريدون أن يعدوا صفحة عن الشاعر نجيب سرور. يذكرني - بارك الله فيه - أن الأسبوع القادم ٢٤ أكتوبر ذكرى وفاته،

يبتسم كثيرا ويعزم بسيجارة ويتحدث عن دور الصحافة الثقافي. يؤكد لي أن الصفحة التي أعددناها من قبل عن ذكرى صلاح جاهين كانت "هايلة" و "كسرت الدنيا" وأنه يريد مني أن أكرر مثل هذه التجارب "المهمة" وألا أترك نفسي لعزلة الديسك ثم يؤكد في النهاية أنه "وحشنا قلمك الجميل يا أستاذ"

أغمغم برد ما فيخبط على كتفي ثانية لينصرف مؤكدا أنه لا يريد أن يعطلني أكثر من ذلك!

ولا يحضرني وأنا أراقب مؤخرته الممتلئة تبتعد عني رويدا رويدا إلا قول نجيب سرور، في تلك النصوص المجهولة التي منحها لي الدكتور جلال الساعي (والتي لا أعرف حتى الآن ماذا سأفعل بها)

" .. ثم لو قلنا بعد ذلك أنه معرص يتهموننا بسوء الأدب أو بالجنون .."

أي والله يا عم نجيب، سوء الأدب أو الجنون!

حضرته مدير التحرير (والمسمى الوظيفي مستحدث، لا يوجد إلا في الصحافة المصرية ويختلف باختلاف الجريدة) وهو الشخص

المكلف بالتواصل بين السيد رئيس التحرير، الإله الذي لا ينبغي أن نكلمه إلا من وراء حجاب، وبين باقي القطيع بدءا بنا ووصولا إلى صغار المحررين - ذلك الجيل الذكي والطموح والتعيس، والذي ولد بكامله في زمن مبارك، الحالمين بالتعيين وبدل النقابة، معظمهم لا يشرب، إلا أني كثيرا ما أشعر - رغم ذلك - أنهم أكثر جرأة و انفتاحا من جيلنا الحزين الذي ضيّع حياته دون أن يحقق شيئا. شباب ذكي وجذاب؛ أحب الكلام معهم كثيرا، فلديهم على صغر سنهم طموح هائل ويقين مدهش أن هذه الحياة تستحق أن نحياها، وأن الثورة قادمة لا محالة! شاعرهم المفضل، والذي لا يكفّون عن الاقتباس منه، محمود درويش - رحم الله نزار وبهجة أيامه الخالية. يقرأون مقالات إبراهيم عيسى بحماس ويصنعون من بعضهم البعض نجوم كتابة في عالم المدوّنات الافتراضي، يتحدث الأولاد عن الكرة و أفلام أحمد حلمي الموبايلات والآي باد وماذا جرى على الفيسبوك بالأمس إلخ إلخ، وترتدي البنات الحجاب والبنطلون الجينز والبادي الكارينا إلخ إلخ...

ماذا حدث، لماذا رجعتُ للكلام بهذه الطريقة الكئيبة مثل عجائز الفرح الممتلئين بالحقد والكراهية؟!

منّه لله مدير التحرير اللزج، جعلني أنسى بهجة وطمأنينة الأيام الماضية.

صحصح يا عم طلال، أنت لا تزال شابا، وقد عُدت للكتابة. أنت تكتب شيئا مهما عن تجيب سرورهذه الأيام، وبين يديك كنز - حتى وإن كنت حتى الآن لا تعرف ما ستفعل به!

أنتهي من ضبط السبعينة وأعطيها لسكرتير التحرير. أجتهدُ في شرح مكان التصويبات وما سيفعل بالضبط وأظن أنه هو - من جانبه - اجتهد في الفهم!

ولو لم يفهم، هل ستفرق يعني؟

ألملمُ أشيائي وأنزل. أدندن "يا مسهرني" كما يغنيها سيد مكاوي رحمه الله على العود؛ وقد ظللت أستمع إليها طوال اليوم - اليوتيوب هذا معجزة العصر بلا شك؛ لا أعرف كيف يعثرون على هذه التسجيلات العجيبة ولا من الذي يهتم برفعها على الإنترنت.

عمنا سيد متسلطنا تماما، وأنا معه. يا مسهر النوم في عنيّا .. سهّرت أفكاري وياك .. ترالملم!

أنا في مزاج رائق ولن أسمح لأحد بأن يفسده. أبدا أبدا أبدا.

أستقلُّ التاكسي متوجها لشارع الجلاء. القصر العيني مغلق كالعادة لسبب ما مجهول؛ يسيطر عليّ التوتر أني قد لا ألحق بموعد إمضاء الفترة المسائية في الأهرام - لظروف معقدة ويطول شرحها ينبغي عليّ أن أوقع بالإمضاء مرتين يوميا في جريدة الأهرام؛ حيث أنا مُعيّن رسميا - ثم يسيطر عليّ الضيق بسبب تفاهة سبب توتري؛ إمضاء وأهرام وجريدة وصحافة ومدير تحرير وصفحة عن نجيب سرور، *يا معرصين اختشوا مجاذيب وفيها نجيب*. أتذكر أنني مضطر (لارتكاب) هذه الصفحة شئت أم أبيت وأنه بعد يومين سيسألني عليها، وبعد يوم سأكون مضطرا لتقفيلها ورسمها وتسليمها تسليم مفتاح. أنا لما حبيتك خطر عل بالي .. إللي جرالي واللي راح يجرالي. لا والله يا ستّ. ما خطر على بالي أبدا أن الطريق الذي بدأته طفلا صغيرا مولعا بالشعر واللعب والموسيقى سينتهي بي إلى هذا الفراغ اللانهائي الضخم؛ ما خطر في بالي أن الدرب الذي بدأ مع ديوان "يوميات امرأة لامبالية" لـ نزار؛ أول ديوان شعر أقرؤه في حياتي، وأن الحيرة بين أدونيس وامرؤ القيس، بين أنسي الحاج ودراويش قصيدة النثر، أن كل تلك المناقشات والمساجلات والخلافات والطموحات ستنتهي لتصير دربا مسدودا، مثل طريق القصر العيني الذي يبدو كابوسا لا أمل في الخروج منه...

في المصعد يحييني عم جلال - عامل المصعد والشخصية التي يعرفها جميع العاملين في جريدة الأهرام:

- حبيب القلب، فين الاصطباحة؟

لست في مزاج طيب تماما يسمح لي بتحمل تحية عم جلال ولكني لا أحب أن أكسر خاطره. أفتح علبة المارلبورو وأناوله سيجارة فيمد يده ويأخذ سيجارة أخرى قائلا:

- ودي للمدام والأولاد فضلة خيرك!

المفترض أن هذه عبارة مرحة! أبتسم ويقف المصعد في الدور الثالث فأهرول للحاق بالإمضاء. أضع إصبعي فوق جهاز البصمة (نحن في مؤسسة الأهرام يا افندم، الإمضاء بجاز البصمة لامؤاخذة) فيضيء اللون الأخضر.

براءةٌ من الله ورسوله... هكذا تم احتسابي "حضور" لهذا اليوم.

أشعر ببهجة لحظية ثم يحل على روحي فراغ أسود مقيم أعرف أنه سيستمر لأيام وأسابيع، وأذكر نفسي أن لدي مشروعا الآن ينبغي أن أنتهي منه، وأن ثمة معنى ما، وأنه - في النهاية أيضا - ثمة صفحة ينبغي تسليمها للأسف.

من آفات خبرة العمل الطويل في الصحافة أن كل تلك المسلسلات القديمة صارت محروقة بالنسبة لك؛ لم يعد هناك مجال للدهشة ولا مساحة للترقب. حين تحدّث معي مدير التحرير عن صفحة نجيب سرور أدركتُ فورا شكل الموقف الذي انتهى بهم لذلك الاقتراح؛ ثمة ملف ما - سياسي - لم يعد مناسبا للنشر، أو مقال رأي مُطول اعتذر عنه كاتبه أو أي موقف آخر من مواقف اللحظة الأخيرة في الصحافة تلك ترتّب عليه وجود صفحة خاوية على عروشها، وفورا، يتم استحضار اسم أحد الحمير الكتّيبة في الجريدة (عدة أسماء لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة وأغلبها معنا في الديسك) ثم يُطلب ملء فراغ هذه الصفحة بطريقة تختلف باختلاف الشخص: لو كان من رجال الشعر الأبيض - قدامى المحاربين كما أصبح يطلق علينا - فإما أن يطلبك رئيس التحرير ليناقش معك طريقة ملء هذه الصفحة ويعمل باقتراحاتك - هذا لو كنت من المقربين لسيادته، وإن لم تكن فيكون التعامل بالطريقة السالف ذكرها - تكليف صارم، واضح ومحدد، ولكن بصيغة مهذبة ومن خلال شخص تافه مثل مدير التحرير.

هكذا أنفقت عمري وبهجة أيامي في جرائد، قوميةً كانت أوحزبية أومُستقلة، في ضبط همزات الوصل والقطع لصحفيين - أو من يفترض أنهم صحفيون - لم يتعلموا أبسط قواعد الإملاء، وفي إضافة

"أشار" و "أضاف" و"أكد" و"في سياق متصل" لتقارير عن وضع لا ولن يتغير، ثم أخيرا في ملء صفحات فارغة بملفات تحت دعوى أنها دور الصحافة الثقافي..

أفكر، لو كانت نرمين لا تزال في حياتي، لكانت قالت بصوتها النحيل المسرسع والمستفز "انت تجيب سرور بتاعك ده بوّظ لك دماغك.."

الصنعة بسيطة وسهلة. لن أكتب حرفا في هذا الملف؛ ربما أكتب مقدمة لا تزيد عن سطرين، بخلاف ذلك سأربط الخيار حيث يريد صاحبه. موضوع من ثلاثة أو أربعة مواضيع - حسب الاتفاق مع من سيقوم برسم الصفحة - كل منها من ٥٠٠ لـ ٦٠٠ كلمة. أحدها تقريري، بعض المعلومات من على الإنترنت يتم صبّها في صيغة صحفية، وهذا يمكن لأي شخص أن يكتبه وسأكتب له المقدمة والقفلة. موضوع ثان عن شعراء اصطدموا بالسلطة؛ أو اصطدموا بالسلطة والمجتمع، أو أصطدموا بالمجتمع فقط، أي شيء من هذا القبيل. سأنادي على أحد المحررين الشباب وأطرح عليه الفكرة ليقول فورا: أمل دنقل، محمود درويش، أحمد فؤاد نجم، مُظفر النواب. سيشعر أنه ذكي ومثقف وهو يردد تلك الأسماء، وأنا سأشعر بالإشفاق

الحنين. غالبا سينسى نجيب سرور. سأذكره به وبشاعر آخر مجهول هى عبدالحميد الديب. سيفرح المحرر الصغير السن بالتكليف يقضي طول اليوم يكتب في الخمسمائة كلمة ثم يبتهج بنزول اسمه على الموضوع عند نشره. ثم يضاف إليهما موضوع ثالث ما نتصل فيه ببعض أساتذة الجامعة وبعض النقاد نسألهم عن أي شيء ونتلقى أي إجابات ثم نربط الكلام ببعضه ونضع له مقدمة وخاتمة، وكان الله على كل شيء قديرا ...

أين ذهبت بهجة الأيام القديمة؟ يقولون إن البهجة تزول وتحل محلها الحكمة، لكن أين هي الحكمة. يقول المغفور له عبدالحليم نقلا عن الأبنودي عليه السلام "أدبكي عمري بحاله يا بوي واديني لانت الفرحة يا عين" وأجدني أتساءل كلما سمعت تلك الأغنية: ما جدوى الفرحة إذا كان العمر قد انقضى ...

هذا الملف سيقتلني غمًا قبل أن أنتهي منه!

وأعود لأذكر نفسي أنني أكتب شيئا رائعا هذه الأيام، وأنه لا يصح لمن كان بصدد هذه المهمة الجليلة أن يترك مزاجه لتفسده تلك الأحداث التافهات.

اتصال تليفوني. صوت مهذب (يذكرني بصوت سكرتيرة الدكتور عبدالسلام محسن؛ والتي افترضنا أن اسمها بسنت)

- أستاذ طلال فيصل؟

وأعرف أن ترجمتي لكتاب "جنون المتاهة" صدرت وأنه بإمكاني الذهاب في أي وقت للحصول على العشرين نسخة الخاصة بي، والشيك لصرف مستحقاتي المالية.

يا فرج الله. هكذا يمكنني الذهاب للإسكندرية عدة أيام ألتقي فيها بالبحر، وبالأصدقاء القدامى، وبأقارب لم أرهم من زمن، ثم قبل كل ذلك وبعد كل ذلك، بالدكتور كمال الفوال، ثالث الثلاثة الذين أشرفوا على علاج نجيب سرور من الأطباء النفسيين، والذي أوصتني ساشا - وكذلك الدكتور جلال الساعي بزيارته.

آخذ نفسا عميقا تستعيد به الرئة هواء الإسكندرية النقي، والذي لن أستطيع الوصول إليه إلا عبر غبار أروقة هيئة الكتاب الكالحة.

وأجد في نفسي شيئا من الشجن، وأعود أذكر نفسي أني أكتب شيئا رائعا هذه الأيام!

في عام ١٩٧٤ كتب نجيب سرور مسرحية نثرية ذات طابع ملحمي باسم "النجمة أم ديل" كان ذلك في فترة السنوات الثلاث التي قضاها في الاسكندرية - في مصحة المعمورة للطب النفسي - وبرعاية الدكتور كمال الفوال. عام ٧٤ في حد ذاته مثير للتأمل؛ إنه العام الذي تبدأ فيه مرحلة المسخرة السياسية برعاية السادات الرئيس المؤمن (والتي تأبى أن تنتهي حتى الآن) وهو ذات العام الذي يعقب دخول "سرور" مصحة المعمورة، وهو هو نفس العام الذي تمّ تعيين نجيب سرور فيه مديرا للمسرح القومي (اسميا فقط، دون ممارسة اختصاصات حقيقية) وذلك كشكل من أشكال المساعدة؛ ليس حبا في سواد عيون نجيب سرور كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكن عقب استغاثة زوجته السيدة ساشا بوزير الثقافة يوسف السباعي، والتي لم يسمح لها رجال مكتبه بالدخول إليه إلا لاعتقادهم أنها صحفية أجنبية جاءت لتجري حوارا معه! الرجل الطيب يوسف السباعي منحها كارت توصية لمحافظ الإسكندرية ليخصص لهم أحد شقق المحافظة ولكن تغيير المحافظ حال دون تحقيق هذا الحلم! المهم، في أحد مشاوير انتقال ساشا و شهدي - ابنه الأكبر - بين القاهرة والاسكندرية يستقلان تاكسي لاستلام مرتب نجيب من المسرح القومي - ولا داعي لتكرار أنه كان مبلغا هزيلا ليس له أي قيمة. تنزل ساشا من التاكسي ويتبعها شهدي. يغلق الباب بينما هي تحاسب السائق، يعطيها السائق الباقي

وينطلق، ومع انطلاقته تدرك أنها نسيت فيه مخطوط مسرحية "النجمة أم ديل" المعد للنشر...

وهكذا تكون قد ضاعت هذه المسرحية للأبد.

وأذكر أنني في لقائي بزوجته ساشا في مقهى ريش لم أسألها عن رد فعل الراحل نجيب سرور على ذلك؛ لم يسمح لي بكاؤها وهي تحكي تلك الحكاية بأن أسأل اي أسئلة من أي نوع.

في ذلك الزمان القديم، كنتُ لا أزال متزوجا من نرمين، أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أستعيد علاقتنا وأن أحافظ على ذلك الزواج. أتذكر أني قلت لها - وكانت تقشر البرتقال وهي تتفرج على مسلسل ما، لعله العائلة أو الجزء الخامس من ليالي الحلمية - إنني بدأت أقتنع أن ثمة مؤامرة فعلية كانت ضد هذا الرجل، وأن هذه المؤامرة لا تزال قائمة للآن. حكيت لها عن لقائي بسميحة أيوب - والتي كانت مديرة المسرح القومي ذلك الوقت ورفضها للكلام عن نجيب سرور بشكل واضح، واكتفائها بأنه "الله يرحمه عذب نفسه وعذب من حوله معه" ثم تعللها بمشاغل ما وانصرافها مسرعة. أتذكر أني توقعت أي رد فعل، اهتمام، سؤال، لا مبالاة، ربما حتى سخرية من اقتناعي بفكرة مثل أن هناك

مؤامرة كونية ما لمحو نجيب سرور من التاريخ، لكني لم أتوقع أبدا أن يكون رد فعلها:

- هي سميحة أيوب لسة عايشة؟ شكلها ايه دلوقت؟

لا أجد تعليقا مناسبا. أجدني غاضبا بشكل غير مفهوم – حتى بالنسبة لي. أخرج للبلكونة لأدخن سيجارة – كنت قد عدتُ للتدخين، وكانت هي – بدورها – قد توقفت عن مطالبتي بعدم التدخين حرصا على صحتي، كما كانت تفعل قبل ذلك. غريبٌ هو أمر الذاكرة. كيف أتذكر بكل هذا الوضوح تلك الوقفة في البلكونة بعد كل تلك السنوات، أي الخواطر مرّ وقتها بالذهن، اي مشاعر انتقامية حمراء – تبدو الآن مضحكة وأنا أطلّ عليها من شرفة الزمان البعيد. لماذا تبدو الذاكرة دوما مثل المرأة صاحبة المزاج، تأتي بلا سبب وتغادر بلا سبب. لا أذكر توقيت الحوار إطلاقا، لكني أذكر الحوار نفسه بكل تفاصيله، وأذكر أن صوتها وهي تقشر البرتقال كان يستفزني، وأني أدرك الآن أن هذا ليس ذنبها...

أفكر أنها ربما في تلك اللحظة البعيدة كانت هي من يستحق الشفقة؛ وحيدة ضعيفة جالسة على الكنبة بمفردها، هل كان ذلك الحوار بيننا عقب فقدان الطفل أم قبلها؟ هل كانت بدأت تشكو من

انشغالي عنها وأني لم "أعد أحبها مثل الأول"، قبل التعيين في الأهرام أم بعده، وهل كان ذلك قبل مشكلة أيتن أم بعدها؟

ماذا كنا نقول؟ فُقدت مسرحية "النجمة أم ذيل" للأبد. أمر سخيف؟ أليس كذلك؟ لكن الموقف بكامله يمكن أن يوضع تحت بند القضاء والقدر. السخيف حقا هو ما سيحدث لمسرحية "بابات قمرالدين محمد بن حنتيال في خيال الظل وظل الخيال" والتي نشرت في مجلة "مسرحنا" منذ عامين أو ثلاثة بشكل مختصر - ومُخل تماما. لم تنشر النسخة الكاملة لتلك المسرحية إلا في مجلة المسرح حين كان يرأس تحريرها صالح سعد. حاولت العثور على عدد المجلة الذي نشرت به تلك المسرحية - وبعد تيه وضياع لا يستهان به في أروقة هيئة الكتاب أصل لموظفة محجبة مسئولة عن المجلة. أستفسر عن العدد فتنادي على شخص ما بعصبية:

- عشان تعرفوا لما اقول لكم. الأرشيف اللي قلت مفتاحه يفضل معايا، أهو الناس بتسأل عن الأعداد القديمة، نعمل ايه دلوقت؟

يدور نقاش عبثي ما بينها وبين ذلك الشخص أدرك منه أنني لن أعثر على المجلة. أسأل يائسا:

- طيب هو رئيس التحرير وقتها كان صالح سعد، لو ممكن طريقة أوصل له بها؛ أكيد هو محتفظ بالأعداد.

لحظة صمت. تنظر المرأة المحجبة للشخص ما، ثم تجيب:

- صالح سعد مات في حريق بني سويف. الله يرحمه.

لا حول ولا قوة إلا بالله. كيف غابت عن بالي في تلك اللحظة تلك الحقيقة الموجعة، والموحية، والتي لا تخلو من دلالات بعيدة.

وأجدني أبتسم، وألقي عليها السلام مغادرا مبنى الهيئة إلى دار الكتب، لعل حظي هناك يكون أفضل حالا.

هل هو أينشتين الذي قال إن الغبي هو من يقوم بنفس الفعل في نفس الظروف وينتظر نتائج مختلفة؟ على كل حال، غبائي ليس في حاجة لشهادة السيد أينشتين. لم أعثر في دار الكتب إلا على كتاب واحد لـ نجيب سرور هو كتابه حاد اللهجة - "هكذا تكلم جحا" أمّا باقي الكتب النقدية "حوار في المسرح" و "هموم في الأدب والفن" فلا أعثر عليهما هناك. يُظهر لي محرك البحث على جهاز دار الكتب العتيق أكثر من ست مرّات الدراسة الرديئة التي كتبها خيري شلبي عن نجيب

سرور ومسرحه! رحم الله إلحاحه حيًا وميتا. ما علينا. أحاول مع قسم الدوريات في الدور الرابع - متوقعا أن يكون حظي هناك أفضل حالا - راجع تعريف الغباء. أحاول العثور على دراسته "تخطيطات في المسرح المصري" وهي من أوائل ما كتب نجيب سرور في النقد المسرحي؛ المفترض أن ملخصا وافيا نشره بنفسه في مجلة الآداب عام ١٩٥٧. يأخذ مني الموظف رقم الدورية، اسمي، تاريخ العدد المطلوب ويغيب في سرداب مظلم. يخرج لي بعد ربع ساعة:

- للأسف يا افندم التركيبة عطلانة.

- بمعنى؟

- العلب التي تحفظ هذه الأعداد تلفت ولم تعد صالحة للاستخدام.

- يعني كل أعداد مجلة الآداب غير موجودة؟!

- لا، السنة التي طلبتها حضرتك فقط. الباقي سليم!

.

في حياة أخرى، سأجد كل حرف كتبه نجيب سرور، وسيكون هناك تسجيل لكل المسرحيات التي قام بتمثيلها أو تأليفها أو إخراجها.

كل الكتب المفقودة، والمسرحيات التي ضاعت بفعل الإهمال، أو بفعل فاعل، كلها ستكون موجودة، وأنا، سأقرأ كل ذلك وأشاهده. سأشاهد كيف تعامل مع رواية "ميرامار" لـ نجيب محفوظ وقام بتحويلها لنص مسرحي، حقق نجاحا مدهشا وقتها - كأغلب أعماله المسرحية. سأشاهد مسرحيته "المصيدة" التي أعدها عن أحد أجزاء هاملت وقدمها على نطاق ضيق لطلبته في معهد الفنون المسرحية - وقال حماي السابق أنه شاهدها (وأغلب الظن عندي أنه يكذب) وطبعا، طبعا سأشاهد آخر دور لعبه على المسرح، قبل وفاته بشهور قليلة، دوره في مسرحية أوكازيون. الجميع يؤكدون أن أداءه في هذا الدور كان شيئا لا مثيل له، لن أنسى محسنة توفيق وهي تحكي لي، باكيةً، كيف كان يقوم بدور مشاهد مخمور يجد نفسه فجأة في مسرح ويبدأ يتعرف بالتدريج على المكان، ثم يكتشف، متذكرا، أنه فنان، أنه مؤلف ومخرج مسرحي فُرضت عليه البطالة أكثر من عشر سنوات. ثم يبدأ يناشد الفرقة الجوالة أن تأخذه معها وتعيده للمسرح أو تعيد المسرح إليه، ويصرخ مرتجلا: "رجعوني بيتي وبلاش الانتحار البطيء بالسبرتو ولا الانتحار السريع بسيانور البوتاسيوم اللي بيتباع في كل الأجزخانات. بلاش. خدوني معاكم بس بشرط. لا بيع ولا شرا ولا رشوة ولا دعارة ولا مزادات ولا أوكازيون"

في حياة أخرى لن يكون هناك هيئة كتاب ولا موظفات محجبات ولا مدير تحرير ولا تركيبة عطلانة و لا حريق بني سويف.

على باب هيئة الكتاب يطلب مني الموظف أن أترك بطاقتي؛ أعرف أني سأحتاجها بالداخل وبعد عدة مفاوضات يوافق أن أترك له رخصة القيادة بدلا من البطاقة. بعد السير في عدة دهاليز أصل لما يُسمى بإدارة العقود، وهناك تصف لي موظفة ممتلئة كيف أصل للخزينة - حيث ينبغي لي تحصيل الشيك. أفكر في تلك الفقرة التي يصف فيها نجيب سرور تفاصيل تحصيل أجره عن أحد الحلقات الإذاعية. أتأمل تساؤله الدقيق الموجع (قال يعني بلد بجد وفيها نظام بجد). يطلب مني الموظف بطاقتي! وأن أضع اسمي الكريم في دفتره ثم يناولني باقي مستحقات ترجمتي لكتاب "جنون المتاهة"

أتأمل الشيك والمبلغ المُدون بالقلم الجاف على سطح ورقته. شكرا لك عزيزي آدم فولدز. هكذا يمكنني تدبير أمر سفرية اسكندرية.

* * *

أعشقُ أسكندريّة،

واسكندريّة تعشقُ رائحَةَ البَحرِ،

والبحرُ يعشق فاتنة في الضفاف البعيدة!

***

أغادر المحطة المزدحمة، أعبر الميدان المتسع وأسير في شارع النبي دانيال. أتأمل باعة الكتب القديمة، يخطر في بالي أني قد أجد كتابا مجهولا ما لنجيب سرور، أو ربما مسرحية ما بخطه، ربما وجدها سائق التاكسي وتناقلتها الأيدي لتستقر بين يديّ في النهاية. ثم أكتشف أنني لو كنت من الأشخاص الذين يحالفهم الحظ بهذه الطريقة لكنت الآن في مكان آخر. أتمشى على البحر. أتأمل. أشعر بطمأنينة ما لم اشعر بها منذ زمن، ثم أسأل عن شارع جمال عبدالناصر. بعد ربع ساعة تقريبا، وبعد عدة استفسارات أخرى وعدة شوارع خطأ أجدني أمام العمارة.

أتأمل الرقم. مضبوط. أصعد السلم على قدمي ولا أستخدم الأسانسير. تفلت دقات قلبي من موضعها وأنا أتأمل اللافتة على باب الشقة. أدق الجرس.

أترقب، يفتح لي الدكتور كمال الفوال باب الشقة، وأدخل.

يرحب بي بابتسامة طيبة بشوش. أجلس على كنبة حمراء اللون. يغيب بالداخل لإحضار شيء ما - شيكولاتة، شاي، عصير أو أي شيء من هذا القبيل - وألمحُ أنا بطرف عيني الكتب المستقرة على المنضدة الزجاجية أمامي، وملزمة أوراق ما، أظن أنها تخصني ...

ويقتحمني صوت الدكتور قائلا ببرود: أهلا أهلا يا أستاذ، سكر حضرتك ايه؟

كمال القوال

- محضر أسئلة؟

- آه طبعا.

- يعني بس عشان أعرف أجاوبك بوضوح ...

- تمام، طبعا يا فندم.

- قلت لي بقا انت بتحضر كتاب عن نجيب سرور؟

- يعني هو في البداية كنت أخطط لعمل دراسة نفسية أو نقدية عنه، لكن بعد ما قابلت كل الشخصيات التي عاصرته بافكر ...

- كل الشخصيات؟

- يعني معظمها..

- بس برافو عليك والله، في سنك الصغير تخطط لكتاب مهم زي ده.

– الله يخليك يا فندم، المثير أيضا اختلاف الروايات باختلاف الأشخاص عن الحادثة الواحدة، وكمان الفترة العجيبة التي قضاها في العباسية ...

– شوف هو بلا شك كان شخصية غير عادية.

– تقريبا هذه هي المعلومة الوحيدة التي اتفق عليها الجميع!

– طبعا، هو كان مؤلفا ومخرجا وممثلا ومسرحيا، شخصية موهوبة مافيش كلام ...

– حضرتك كنت تعرفه قبل مجيئه للمستشفى؟

– كنت أقرأ له قبل أن أراه في المستشفى، ولكني لم أكن أعرفه بشكل شخصي. هو كان مشهورا جدا في فترة الستينات الله يرحمه، وكنت قرأت له كتاب أو اثنين.

– شاهدتَ له مسرحيات وقتها طبعا؟

– يعني، أنا وقتها كنت نايب صغيّر في مستشفى العباسية فلم يكن هناك وقت، فترة النيابة في حياة الطبيب مثل السجن، بالعافية يجد وقتا لينام أو يتناول لقمة قبل أن يعود لطاحونة الشغل. أيضا في هذه الفترة كان العمل في العباسية قاسيا جدا، وكانت النبطشية الواحدة تمتد

أحيانا لثمانية وأربعين ساعة في ظروف سيئة، عدد النواب كان محدود، كنت تقريبا أنا ونايب أو اتنين كمان، بالإضافة لمرضى حالتهم متدهورة...

- تمام، هو المفروض نجيب سرور دخل المصحة عند حضرتك، مصحة المعمورة، في اسكندرية بعد ٧٣؟

- آه تقريبا، يعني التواريخ بقا اعذرني صعب الواحد يتذكرها بدقة، بالذات التفصيلات الدقيقة يعني.

- أيوة طبعا. طبعا. طيب حضرتك تفتكر دخوله للمستشفى، يعني ملابسات اللقاء الأول بينكم في اسكندرية؟

- شوف، هو كانت مشكلته الرئيسية مشاكل في الكبد والجهاز الهضمي، طبعا أنت تعرف قصة الشُرب وإفراطه فيه في تلك الفترة وبعد ذلك أيضا، حتى وفاته كانت بسبب قصة الكبد هذه. الله يرحمه كان عنده تليف كبدي ودخل في غيبوبة كبدية هي التي أودت بحياته.

- في مستشفى الحسين، هو توفي في مستشفى الحسين حسب ما أعرف.

- ما اعرفش والله؛ لأن أخباره انقطعت عني تقريبا بعد مغادرة المستشفى. يعني ما كانش فيه على أيامنا موبايلات وفيسبوك والكلام

اللي عندكم دلوقت (يضحك) يمكن كمان كان عنده بلهارسيا، لأن انت عارف هو من أصول ريفية ودي ينتشر فيها مشكلة البلهارسيا والعوم في الترعة والكلام ده! بالإضافة طبعا للشُرب، هو كان كل ما يصطدم بالسلطة يتعب ويكتئب ويروح يشرب. المهم، أذكر جدا أنه جاء إلينا في المعمورة وقتها، وكان الذي جاء به الفنان سعيد عبدالغني، حضرتك تعرفه طبعا، الله يرحمه نجيب جاء وكان في حالة يُرثى لها، كان حطام إنسان؛ لدرجة أني لم أتصور أن يكون في هذه الحالة الصحية ولا يزال على قيد الحياة! وقتها خُفت يموت عندنا وتبقى مشكلة. المهم، ربنا سهّل وعملنا له الفحوصات اللازمة وكان بيتابعه طبيب كبد، وهو الله يرحمه كان عنده عزيمة قوية جدا، وفعلا، أفاق وبقى ماشاء الله أحسن بكتير مما جاء إلينا.

- يعني لم تكن المشكلة نفسية في الأساس؟

- لا، هو سبب تدهور الحالة كان قصة الكبد التي حكيت لك عليها، لكن كان فيه مشكلة نفسية طبعا. هو كان عنده دائما أفكار عن السلطة وعن اضطهادها له؛ جزء منها حقيقي وجزء منها بسبب المشاكل الذهانية التي كانت عنده. هو تشخيصه صعب جدا الصراحة، لأنه يتراوح بين الـ Bipolar disprder والضلالات الذهانية. يعني، أنا لا أريد الدخول في مصطلحات طبية معقدة ولكن ربما يكون أفضل

تشخيص، حسب علمي وقتها، لما كان لديه هو الـ Alcoholic psychosis.

- جنون الخمر؟

- جنون الخمر (يبتسم) يعني أنا بقا ما اعرفش المصطلحات الأدبية طبعا بتاعتكم، لكن آه ممكن تمشي كده برضو.

- انها مش سكيزوفرينيا؟

- لالالا مش سكيزوفرينيا، فصام؟ بعيدة جدا. لا أظن.

- تشخيصه في العباسية كان سكيزوفيرنيا، فصام في الشخصية؟

- (يهز رأسه في استنكار) لا يعني العباسية في الوقت ده طبعا كان فيها مشاكل كتير. شوف، العباسية كانت بتعتبر منفى للمغضوب عليهم اجتماعيا أو سياسيا. الله يرحمه كان كلامه متماسك، وقادر يتواصل ويهزر، شخصيته كانت جذابة جدا، أما الضلالات أو الأوهام التي كانت عنده فغالبا متعلقة بالكحول، post drug psychosis، أو جنون الخمر زي ما حضرتك تفضّلت وسميتها، والله ظريفة جنون الخمر دي (يضحك)

- يعني الأفكار التي كانت تسيطر عليه أن السلطة تطارده وما إلى ذلك كانت أفكار حقيقية مش أوهام؟

- بعضها أوهام وبعضها حقيقة يبالغ هو في تصورها. بيبقا من الصعب في الحالات اللي زي كده تقول فين الحقيقة وفين الوهم. لكن هو كان تعبان طبعا مافيش كلام.

- طيب، تحويله لمصحة نفسية في الوقت ده مش غريب شوية؟ هو خرج من العباسية سنة سبعين تقريبا قبل الدخول عندكم بتلات سنين، ومشاكله الصحية متعلقة بالكبد، يعني كان يفترض تحويله لمستشفى باطنة، على حد علمي، ليه مصحة نفسية؟

- شوف، هي مدام ساشا جاءت لي، وهي سيدة محترمة جدا ووفية لزوجها لأبعد حد وكانت في حالة انهيار تام، وطلبت مني رعاية حالة نجيب سرور خاصة أنه لم يكن معه أي نقود إطلاقا، وطبعا أنا تفهمت خصوصية حالته. ثم جاء به سعيد عبدالغني وبدأ العلاج. هو كان بيتصور أن الأدوية النفسية دي مؤامرة ضده وانها لمنعه من الكتابة وما أشبه، ولكن هو كانت أهم صفة فيه أنه إذا وثق فيك يسلمك نفسه تماما، ويبدو أنني حزت هذه الثقة لأنه بعد ذلك بدأ يستجيب للعلاج وينتظم في أخذ الدواء.

- هو يمكن تجربته مع الطب النفسي السابقة في العباسية كانت مؤلمة جدا، وده سبب عداؤه لكل ما يتعلق بالطب النفسي؟

– ما انا زي ما قلت لك، العباسية كانت مستشفى كبيرة بلا تنظيم والأمور كانت ملخبطة جدا هناك، عارف انت الفيلم بتاع نور الشريف، اللي بيغنوا فيه سلم لنا عالتورماي (يضحك) تقريبا دي كانت العباسية، يعني أنا مش عارف الدكتور أبو العزايم الله يرحمه ازاي كان قادر يمشّيها وبالتالي كل الأخطاء واردة جدا، عشان كده أنا لما انتقلت للمديرية ومسكت مستشفى المعمورة تجنبت كل هذه الأخطاء، ليه، لأني أسستها على النظام الانجليزي، النظام والانضباط وتوظيف الإمكانيات ...

– تمام، هما في البداية عالجوه بالكهرباء، لو حضرتك تعرف؟

– (باستنكار بالغ) ECT، ليه طيب؟ شوف، هذا يؤكد كلامي؛ تشخيص العباسية كان مش دقيق. العلاج بالكهرباء في حالة مثل هذه ليس له أي داع ...

– يعني كان فيه خطأ في التشخيص مثلا، ولا المؤامرة التي كان يتصورها ضده كانت حقيقة؟

– لا مؤامرة ضده بالشكل الذي كان يتصوره لا أظن، انما هو كان فيه وقتها وضع عام سيئ في مستشفى العباسية، وفي البلد بشكل عام. يعني كان أي شخص يقول أي كلام مش مضبوط يخبطوه علاج

كهربا و major tranquilizers، معلش اعذرني لاستخدام المصطلحات الطبية، دي اللى هي المهدئات الكبرى، طبعا دي مؤذية للجسم جدا، وتحول البني آدم لكتلة من اللحم الهامد، وده رجل مبدع يعني ما ينفعش تعمل فيه كده.

– حتى هو اشتكى وقتها من عدم قدرته على الكتابة؟

– ده عكس ما حدث عندنا في المعمورة؛ عندنا كان بيكتب وتمام، دا كتب في المعمورة آخر مسرحيتين كتبهم "منين أجيب ناس" و مسرحية تانية (يهرش في رأسه محاولا التذكر) يعني ما علينا. آه، مسرحية "النجمة أم ديل" المسرحيتين دول كتبهم في المعمورة. شوف، أنا محضّر لحضرتك نسخة من "منين أجيب ناس" عليها إهداء لي، بخط اليد. (يزيح ملزمة الأوراق ويتناول الكتاب) شوف، هو دخل العباسية بالبوليس إنما عندنا دخل بإرادته وكان مدرك ان ده لمصلحته. هو ده الفرق.

– طيب، حضرتك قل لي كيف كان يومه في المعمورة، يعني في الفترة التي قضاها عندكم؟

– هو أول شهر طبعا كان سيء جدا، يعني كل أعراض فشل الكبد، وكان نحيلا لدرجة مرعبة يمكن لم يكن يزيد عن خمسين

كيلوجرام حتى أني خفت أن يموت عندنا، فضلا عن أن دخوله كـان مصحوبا بزفـة ...

- زفة من اي نوع؟

- زفة إعلامية، أمثال، سعيد عبدالغني كان دائما ما يكتب عنه في الأهرام وعبدالوهاب مطاوع وغيرهم.

- مع أنه كان يشكو من التجاهل الإعلامي طول الوقت؟

- لا لا كتب عنه سعيد عبدالغني وعبدالوهاب مطاوع، وبعد دخوله المستشفى زاره الكثيرون، الله يرحمه صلاح قابيل ومحسنة وتوفيق وغيرهم. كذلك سعيد عبدالغني لم ينقطع عن زيارته. يوم الجمعة كان هو اليوم المخصص للزيارات وكان الكثيرون يزورونه. أذكر أنه كثيرا ما كان يردد أنه زعلان من كرم مطاوع وجلال الشرقاوي لأنهما لم يقوما بزيارته. طبعا هم كانوا مع بعض في البعثة في روسيا - حيث تعرف على زوجته الروسية.

- تمام، وبعد الشهر الأول؟

- بعد استقرار الحالة الصحية بدأنا العلاج النفسي. بدأنا نعطيه دواء يدعى سباريل، مضاد للجنون Antipsychotic، طبعا احنا قلنا له

وقتها انه مهدئ عشان مزاجك يبقا رايق، وهو الراجل تقبله جدا، وبعد ستة شهور وحالته اتحسنت تماما.

- بدأ يستقر صحيا ونفسيا بعد العلاج؟

- جدا، حتى أنه قال لى انا مش عاوز اخرج، ، طبعا أنا كنت مخصص له غرفه لوحده وعلاج درجة أولى، خدنا إذن من وكيل وزارة الصحة، كان وقتها الدكتور اسماعيل بدرالدين رحمة الله عليه، وقعدناه في درجة أولى مجانا، تتولى خدمته الممرضات. وهو بعد الضهر كان يحب يقعد يتكلم مع الدكاترة النبطشيين أو الممرضات والعمال، وهو كان شخص يتحب بصراحة وكانت له تفانين ظريفة ويكتب شعر وقصايد وحاجات كده يعني، الله يرحمه كان ظريف جدا.

- حضرتك كنت متفهم طبيعته وظروفه؟

- أكيد، حتى هو طلب مني بعدها أن يريد أن يفعل شيئا؛ لأنه لا يريد البقاء هكذا. واقترح أن يعمل مسرح، قلت له فعلا فيه مسرح في المستشفى، عمل فريق من الدكاترة والعمال والمرضى، طبعا فيه مرضى أهلهم بينسوهم وبتبقى اقامتهم في المستشفى شبه دائمة، هو اختار اللى غاويين تمثيل وعمل بهم مسرحية فعلا وكانت حاجة لطيفة قوي وقتها.

- طيب هو بعد استقرار الحالة يعني كان المفترض يخرج؟

- هو كانت مشكلته الأساسية وقتها؛ طب أخرج أروح فين؟! إحساسه انه مطارد من الدولة، فضلا عن أنه كان بلا عمل تقريبا، وبلا أي مصدر للدخل.

- بمعنى أن تلك الأفكار كانت لا تزال موجود عنده حتى بعد العلاج؟

- شوف، لا تستطيع بشكل قاطع أن تصنف هذه الأفكار باعتبارها ضلالات - بالمعنى المرضي، وبعدين هو نجيب سرور كان متعايش مع كل الضلالات دي وبيكتب عنها، فمن الصعب تخلصه منها تماما، لكن من الممكن السيطرة على حالته المزاجية والصحية وده الأهم، عشان كده حالته اتحسنت عندنا في المعمورة ما فيش كلام. أنا فاكر وقتها كمان أثيرت قضية مستشفيات الصحة النفسية في مجلس الشعب، وقتها كان الدكتور كمال الجوجري، متهيألي ممكن يكون لسة عايش لو دورت عليه ممكن يفيدك، هو كان أستاذ تخدير وكان عضو لجنة تقصي الحقائق، وبعدين ثارت ضجة في الجرايد حوالين مستشفيات المجانين، هو راح العباسية والخانكة وما إلى ذلك وطبعا اتكتب تقرير زي الزفت، لأن وضع العلاج النفسي في مصر زي ما باقولك كان حاجة مزرية جدا، وجاءوا هنا المستشفى المعمورة وكتبوا تقرير رائع، وبالمناسبة قالوا لي احنا سمعنا عندك نجيب سرور عاوزين نشوفه، كان

وقتها معاهم صحفية بس مش فاكر اسمها بالضبط، واتبسطت جدا لما شافته كويس، وقالت لي: ؤمال ايه اللى بيقولوه عليه ده؟ بيقولوا عليه مجنون؟ قلت لها لأ ده بياخد علاج. طبعا هو كان متزن وفي حالة صحية جيدة، وطبعا أمن الدولة والدولة وعبدالناصر والكلام الفاضي ده كله كان بطل يقوله. فضلا عن أنه لم يكن مريضا عدوانيا ...

- لكن هو كان عدواني جدا في العباسية، وفي مواقف كثيرة تانية؟

- عشان الشرب، انما احنا في المعمورة كان فيه نظام دقيق فكان ما فيش شرب تقريبا. يعني ساعات كان يزوّغ من الدكاترة ويخلط السبرتو بالبيبسي عشان يشربه، لكن في العموم كنا مسيطرين على قصة الشرب دي. عارف حضرتك يا أستاذ، هُمّ الجماعة الفنانين من هذا النوع لو وجد الاهتمام الكافي والرعاية، حاله ينصلح تماما. لكن للأسف لم يكن هناك من يهتم به، يعني حتى مراته ما كانتش بتقدر عليه، هي تعبت معاه جدا في الفترة دي وقبلها. لكن هو المؤكد انه هناك لغز ما جعل حالته تتدهور بهذا الشكل السريع ليدخل في دائرة مغلقة بين الشرب والمرض النفسي، يقال النكسة ويقال الخيانة وربما الاتنين معا، هو كان يرفض الكلام تماما في هذا الأمر.

– طيب ماالذي جعله يخرج؟ يعني يخيل لي أحيانا أنه لو استمر عند حضرتك في المستشفى واستمر في الإنتاج ربما لم يكن ليتعب ثانية، ربما كان لا يزال حيا بيننا للآن؟

– يعني هي الأعمار بيد الله طبعا، لكن هو بعد ثلاث سنوات من الرعاية رأى أن ظروفه استقرت وانه المفروض يخرج، حتى مع خروجه كرمته الدولة وأخذ لقب فنان قدير وبدأ في صرف مرتبه من المسرح القومي وبعدين رجع شرب تاني وتعب تاني...

– طيب ايه السبب، يعني ليه بعد ما استقرت الأمور رجع تاني؟

– يعني تقدر تقول هو أقرب لشخص مدمن، يعني يبطل ويرجع ويبطل ويرجع، وصعب تتحكم فيه أو تسيطر عليه. وبعدين يبدو حصل شيء تاني ما مجهول كان السبب في تدهور حالته ثانية. مراته كمان حاولت ترجعه المستشفى وماقدرتش، وبعدين اضطرت تسافر روسيا هي وولاده ولقى نفسه لوحده، ورجع يشرب تاني وبمشي في الشوارع تاني، وللأسف كان ما فيش وسيلة اتصالات بيننا. خسارة طبعا أنا كنت مرحب بيه وكان ممكن يقعد تاني لكن أمر ربنا بقا...

– سؤال أخير، يقال أيضا أنه ما جرى له وقتها، كان بسبب خيانة الفنانة التي تزوجها؟

- طبعا، هو كان بيعزها جدا، وكان يرى أنها سبب من أسباب اندماجه في الشرب، وأنها تخلت عنه. طبعا انت عارف الفنانين دول شخصيات حساسة ويتأثروا جدا بالعلاقات العاطفية والكلام ده.

- أفهم من ذلك أنه ظل يتحدث عنها، حتى بعد أن جاء المعمورة، رغم مرور عدة سنوات على تلك الحادثة؟

- طبعا، و رغم أنه كان متزوج من السيدة الروسية ساشا، وهي سيدة فاضلة جدا. أقول لحضرتك حاجة. هو كتب عندنا مسرحية اسمها "منين أجيب ناس"، وصمم يقرألي مرة مشهد، تقريبا على ما أذكر، نعيمة المصرية مع السحرة أو حاجة كده، يعني دي حاجة فات عليها سنوات. يومها قراه كاملا وبعدين قال لي "المشهد ده مكتوب عن مراتي المصرية" وبعدين قال كلمة كده مش تمام، وقعد يبكي. الله يرحمه كان مرهف وعاطفي جدا. كان أنا محضر لحضرتك حاجة متهيألي تهمك ... (يمد يده إلى المنضدة ويتناول رزمة الأوراق) ده نص كتبه في المعمورة بيحكي فيه حكايته مع زوجته الفنانة. والله مسرحية لطيفة جدا. هو كان عطاهالي وقتها وكتب لي إهداء برضو عليها. لا أظن أنها نشرت أو عرضت من قبل. متهيألي دي تفيدك برضو في الكتاب اللي انت بتعمله ...

- ....

– حتى انت تلاحظ حاجة، لو قرأت المسرحية بعناية، مرتين في المسرحية بيغلط ويكتب اسمها الحقيقي. مشيرة (يبتسم) الله يرحمه كان راجل رقيق وفنان.

– ....

– ألا بالمناسبة صحيح، انت عثرت في جلال الساعي، قابلته بتقول؟

– ايوة قابلته في العيادة.

– يا سلام، جلال فتح عيادة؟! طول عمري اقول له انت خسارة في الطب، ركز في الكتابة والحاجات الأدبية دي. جلال أصل طول عمره غاوي تفانين وشعر وحاجات كده ...

– ورأيه أن نجيب سرور لم يكن مريضا أصلا؟

– (يضحك) لا ما هو بقا مبدع زيه وبيكتب فلازم يدافع عنه، والله لو معاك رقمه ابقا اديهولي ما شفتوش من حوالي عشرين سنه ...

– طبعا يا فندم، اتفضل

– طب ثانية واحدة. (يفتح درج المنضدة ويخرج قلما ومفكرة صغيرة) كام الرقم؟

نجيب سرور

الزوج والكلاب

مشهد ١

الزوج : بتحبيني؟

الزوجة: موت ..

الزوج : بقولك بتحبيني؟

الزوجة: بقولك موت

الزوج : وايه دخل الحب في الموت

الزوجة: الحب أقوى من الموت

الزوج : أنا فاكر اني شفت فيلم بالاسم ده ..

الزوجة: نفسي .. نفسي في دور زي ده ..

الزوج : قوليلي ..

الزوج : أيوة

الزوج : لو قالولك تخونيني .. وتلعبي دور زي ده .. تلعبيه؟

الزوجة: لو قلت لك العبه هاتصدقني، لو قلت مالعبوش هاتكذبني

الزوج : بقول يعني لو..لو

الزوجة: لو دي حرف شعبطة

الزوج : يعني .. لو .. تعملي ايه؟

الزوجة: أنا صحيح نفسي في فرصة .. بس ..

الزوج : بس ايه؟

الزوجة: بس لازم اخوض التجربة الأول .. لازم حد يقول لي .. حد يعرض علي فرصه زي دي .. ساعتها بس هاعرف

الزوج : يعني فيه احتمال؟

الزوجة: احتمال ايه؟

الزوج : انك تقبلي؟

الزوجة: أقبل ايه؟

الزوج : تخونيني؟

الزوجة: أنا..؟

الزوج : مانتي مترددة في الإجابة .. يبقى مترددة بين القبول والرفض .. بين الخيانة والأمانة .. يبقى فيه احتمال انك توافقي .. يعني فيه استعداد للخيانة .. شروع في الخيانة.. خيانة مع وقف التنفيذ .. يعني أنا بغل!

الزوجة: الله الله .. انت حاتقلبها غم ولا ايه؟

الزوج : أبدا .. بس .. بس ماكنتش أتصور انك تترددي بالشكل ده .. تجربة ايه اللي انت عايزة تخوضيها؟

الزوجة: وطي صوتك احنا في المسرح ..

الزوج : (يصرخ) تجربة ايه اللي انت عايزة تخوضيها .. هي جوازة ولا مسرح تجريبي.؟

الزوجة: يا أخي تجربة الاختيار

الزوج : اختيار ايه؟ هو فيه محل للاختيار؟ الاختيار لازم يكون قبل التجربة مش بعدها .. لازم الإنسان يكون شريف أولا ويصمم على أنه يعيش شريف مهما كانت التجارب اللي

يتعرض لها، لازم أولا يختار الشرف وساعتها ما يهموش ايه التجارب اللي ممكن يمر بيها، إنما لو كان مستني التجربة عشان يختار يبقى لسة بيشاور عقله..يبقى لسة ما بقاش شريف..تبقى خيانة مؤجلة..وعشان كده أنا باكتشف دلوقت ان انا بغل

الزوجة: انت هتعمل م الحبة قبة؟

الزوج : مش أحسن ما اعمل م القبة حبة؟

الزوجة: انت هتفضل طول عمرك كده عصبي من غير مبرر؟

الزوج : عصبي؟ (يضحك بمرارة) ازاي، ازاي يكون فيه اختيار بين الشرف والخيانة؟

الزوجة: بس انا ما اخترتش الخيانة ..

الزوج : ولا اخترتِ الشرف

الزوجة: أنا ما وافقتش ..

الزوج : ولا رفضتِ

الزوجة: أنا بافكر معاك بصوت عال، فيها ايه دي؟

الزوج : فيها كتير.. أيوة.. فيها كتير.. التلميذ بيذاكر الأول وبعدين يدخل الامتحان مش يدخل الامتحان وبعدين يذاكر..الانسان بيكون شريف أو غير شريف قبل الامتحان..قبل التجربة اللى انت عاوزة تخوضيها..وعشان كده ينجح أو يسقط. واضح اني كنت مغفل..يعني سيادتك مستنية أول فرصة، أول فرصة حقيقية تعرض عليكي عشان تضحكي على الناس ..دي ما تبقاش جوازة ولا حب..دي تبقى محطة قطر..استراحة..نقطة انطلاق..تعسيلة لا مؤاخذة.

الزوجة: يا حبيبي وطي صوتك فيه ناس حوالينا

الزوج : اسمعي ..صحيح احنا ساكنين في لوكندة..وصحيح ما فيش معانا فلوس..وصحيح ما فيش أمل تيجي بكره فلوس...ولا بعده...ولا بعده..كله سلف..سلف ودين..وصحيح فيه زيك وأقل منك..أقل منك في الجمال..وأقل منك في الموهبة..راكبة دلوقت عربية شيفروليه وفي شنطتها على الأقل ميت ورقة .. وفي البنك ما تعديش ... وأفلام .. وريبورتاجات ... وهدايا ...وعربيات ... وفساتين ... وصورتها على أغلفة الموعد والشبكة والصياد ... لكن بذمتك .. وحياة عمرنا اللى ما اعرف امتى هينقصف عمره... عمرك ما بتتمني تكوني زيهم؟

الزوجة: يعني هو فيه حد يحب الشقا؟

الزوج : يعني انتي كارهة العيشة معايا

الزوجة: ما قلتش اني كارهة العيشة معاك

الزوج : بس مش راضية عن عيشتنا؟

الزوجة: من حق كل إنسان ان يعيش.. ويعيش في مستوى كويس

الزوج : تبقي كارهة العيشة معايا؟

الزوجة: كارهة العيشة ... بس مش كارهاها معاك

الزوج : يعني نفسك ربنا يعدلها ونعيش زي خلق الله

الزوجة: ربنا كريم

الزوج : يعني عايشة عالأمل .. ان ربنا يعدلها.

الزوجة: طبعا..هو فيه حياة من غير أمل؟!

الزوج : يا أمل روحي .. طب ولو ما تحققش الأمل؟

الزوجة: يبقى أمرنا لله .. نصيبنا كده.

الزوج : وهاتفضلي عايشة معايا

الزوجة: أمال هاعيش مع مين؟

الزوج : باقول نفرض..نفرض ان ما فيش أمل..وماعادش قدامنا غير واحد من اتنين...الجوع أو الخيانة..الموت أو الخيانة ... تختاري ايه؟

الزوجة: طب ولزومه ايه اليأس ده؟

الزوج : عاوز أعرف..

الزوجة: تعرف ايه؟

الزوج : انت ممكن تخونيني ولا لأ ..

الزوجة: انت ما تبطلش كلام في الموضوع ده؟

الزوج : لأن ما فيش موضوع دلوقت عندي غيره .. بقيت قاضي بفضل اصحابك من الحركة الفنية زي ماانت عارفة ... وكل أبواب الرزق مقفولة .. فراغ بقا تعملي ايه

الزوجة: انت السبب.

الزوج : أنا السبب.

الزوجة: مش راضي تلين شوية

الزوج : قصدك مش راضي اطاطي .. عشان ما نعلى ونعلى ونعلى ... لازم نطاطي نطاطي نطاطي

الزوجة: لازم تتعلم السياسة .. الدنيا عايزة سياسة ... المعايش عايزة سياسة

الزوج : البركة في الاتحاد الاشتراكي..أنا بطلت سياسة من زمان

الزوجة: وده عيبك اللي مخليك مش واخد حقك.

الزوج : وهي السياسة في موضوعنا ده يبقى شكلها ايه؟

الزوجة: تبقى أخذ وعطا .. كلمة طيبة .. مجاملة .. هدية .. بطاقة معايدة ... عزومة

الزوج : عزومة ايه يا مشيرة دا احنا بننام من غير عشا

الزوجة: ما انت اللي بترفض الشغل

الزوج : يعني هوانا بارفض بمزاجي ...

الزوجة: انت دماغك ناشفة .. دون كيخوتة وهاملت بتوعك بوظوا دماغك

الزوج : يعني دماغي كمان مش عاجباكي ... هاملت ودون كيخوتة ماعرفوش يقبلوا بالمساومة .. فيه ناس طبعا كده ... ما

بتعرفش تساوم.. ولا بتعرف الحل السلمي ... ما بنقدرش .. ما ينفعش نشوف شغلنا وخلاص .. لازم يعني تراشق العزومات .. تراشق الزوجات والأعراض.

الزوجة: (تقترب منه وتحتضنه) ولزومه ايه الكلام ده كمان ... يا حبيبي أنا باحبك

الزوج : بس خد امتا؟

الزوجة: نفسي تبطل شك.

الزوج : لما نعرف ناكل كويس ونلبس كويس ونسكن كويس .. هاعرف ازاي ابطل شك

الزوجة: ليه .. انت مش مؤمن بالحب ..

الزوج : انتي عارفة اني باحبك .. بس مشكلتي اني ما باعرفش اخدع نفسي .. وعارف انهم هايغلبوني هايغلبوني

الزوجة: هم مين؟

الزوج : بتوع الفرص ...

مشهد ٢

الزوجة: هي المرأة عندك جسد بس؟

الزوج : لأ يا روحي ... المرأة جسد وروح ... واللي بيعري الجسد يبقا بيعري الروح ... واللي بيعري الروح يبقا بيعري الجسد ... الروح برضو لها سيقان وركب ووسط وصدر ورقبة .. بس لوتفهميني. إيزيس سرقت سر رع لما كشفت له عن عورتها ... عشان كده ما فيش ولا رع واحد من خمس تلاف سنة

الزوجة: بس دي كشفت عورتها لرع عشان تنقذ جوزها أوزوريس ... عشان تحيي جوزها.

الزوج : ياريتها كانت سابته ميت

الزوجة: يعني تفضل الموت على كشف العورة؟

الزوج : أفضل الموت ع الخيانة.

الزوجة: بس دي مش خيانة..الغاية تبرر الوسيلة

الزوج : مافيش حاجة في الدنيا تبرر الخيانة

الزوجة: لكن دي كانت بتحب جوزها

الزوج : اللي يحب ما يخونش .. واللي يخون ما يحبّش.

الزوجة: ما كانش قدامها إلا كده عشان جوزها يرجع للحياة

الزوج : انشا الله ما رجع .. تبقا بتخونه تاني .. الرجوع بالشكل ده هو الموت .. ألعن م الموت. مش ممكن ... مش ممكن تكون الخيانة هي طريق الرجوع للحياة ... الموت نفسه بدأ بخيانة يبقا ازاي الحياة ترجع بالخيانة؟

الزوجة: يعني لو انت مكان جوزها..؟

الزوج : ما كنتش أرجع.

الزوجة: ولو رجعت..كنت تغفر لها؟

الزوج : ما اغفرش

الزوجة: انت بتحبني

الزوج : جدا

الزوجة: ولو خنتك؟

الزوج : يخونك العيش والملح ... أنتحر

الزوجة: ولو حبيت أرجعك للحياة؟

الزوج : اقول يفتح الله

الزوجة: ولو ثبت إني خنتك مخصوص عشان أرجعك للحياة.

الزوج : هاقولك متشكر..ميت أحسن..مش عاوز أرجع تاني..شوفيلك أوزوريس تاني..في شارع كلوت بيه!

مشهد ٣

(الزوج الذي سبق أن رأيناه في المشهدين السابقين، نراه هنا أعمى يضع نظارة سوداء وإلى جواره كلب وبالقرب منك بيك أب تدور عليه اسطوانة حزينة يستحسن أن تكون أغنية جي كيتي. تظهر ساقان نسائيتان من باب الغرفة المواراب هما ساقا سلوى. يزوم الكلب في قلق ملحوظ)

الزوج : (مناديا) عثمان. يا عثمان

الكلب: (يزوم)

الزوج : أيوة يا ركس. فيه ايه؟ مالك؟ عثمان لسة ما رجعش.

الكلب: (يزوم)

الزوج : فيه حاجة يا ركس؟ انت شايف حاجة؟ شايف حاجة بس مش قادر تتكلم..وأنا قادر اتكلم بس مش شايف. معلهش، نكمل

احنا الاتنين بعض. احنا الاتنين إنسان كامل..إنسان مش ناقصه حاجة. ولا يمكن مش عاجباك الاسطوانة. انت ودنك حساسة يا ركس..فعلا..سمعتها زمان يوم ما سلوى طلبت الطلاق الحقيقة مش هي اللي طلبت الطلاق..كان جوايا صوت بيطلبه زي ما هي بتطلبه..كنت حاسس ان حبنا ابتدا يموت .. ولما الحب يبتدي يموت مافيش قوة في العالم تقدر تنقذه..ابتدا يموت يعني انتهى..يعني مافيش فايدة..يعني الأيام تفقد معناها وتصبح مجرد انتظار للجنازة..وساعتها يبقا إكرام الحب دفنه.

الكلب: (يزوم)

الزوج: مالك يا ركس .. مش عوايدك..فيه نفس غريب في البيت .. رجل غريبة..ضل غريب..فيه اي حاجة غريبة؟ أنا عارفك كويس. عارفك بتزوم امتا ولما بتزوم باعرف عايز تقول ايه..بس المرة دي بتزوم بطريقة غريبة لأن فيه حاجة غريبة..مين هناك؟ (يقف) عثمان ..انت يا عثمان؟ (يتحسس الهواء بيديه قليلا ثم يجلس يائسا) بيقولوا سلوى بقت نجمة قد الدنيا. أخيرا لقت فرصتها. الجرايد بتكتب عنها والمجلات بتنشر صورها وخصوصا الأغلفة الشفتشي. صورها العريانة يا ركس في

مجلات الشبكة والموعد والصياد وألف ليلة. يمكن من رحمة ربنا إنه خد نغلري عشان ما اشوفش سلوى لحمة حمرة في دكان الجزارة الجزارين بيبطلوا دبح تلات تيام إنما المحررين في مجلات الفن ما بيبطلوش. أراهن.. أراهنك يا ركس انك تكره اللحمة وتبطل تاكلها وتقلب نباتي زي برنارد شو لو اتفرجت على تلات أعداد ورا بعض من المجلات اللي ما تتسماش والمجلات اللي تتسمى. عارف بقا ايه الحاجة اللي تفطس من الضحك ومن القرف .. إن الستات اللي بتتصور عريانة في المجلات دي بتلبس مكسي في البيوت وبتستحي تكشف عن ركبها لأ وبتستحي من مين؟ من أجوازهم. ما هو ما دام الحرام يبقا حلال الحلال لازم يبقا حرام. يعني أجواز الستات دول بيعرفوا أجسام ستاتهم من المجلات. تصور يا ركس.

الكلب: (يزوم)

الزوج : انت فاكرني باهزر؟

الكلب: (يزوم)

الزوج : يعني مصدقني؟

الكلب: (يزوم)

الزوج : عثمان عامل أرشيف للست. تلاقيه هنا ولا هنا. جمع فيه كل حاجة اتكتبت عنها من يوم طلاقنا كل خبر وكل صورة وكل غلاف. دور كده وبُص وشوف عوامل التعرية اللي عمالة تخرب البيوت. تصور يا ركس انهم أقنعوها إن الجواز عقبة في سبيلها وبأني أنا اللي ياما حاولت اساعدها بقيت أنا كمان عقبة في سبيلها.. إني كنت محتكر جمالها وان جمالها لازم يبقا ملك لكل الناس..وصدقتهم..وكدبتني. عثمان بيقول انها ابتدت تدبل وتعصعص وانها عملت تلات عمليات تجميل عشان تداري التجاعيد اللي ابتدت تفرش وشها من يوم ما جمالها بقا ملك الجميع. أنا خدتها من الشارع وأنقذتها من عوامل التعرية. عامل التعرية تعبير جغرافي والصور العريانة عامل فوتوجرافي ... كانت تايهة ودايخة زي العصفورة اللي فقدت عشها في ليلة حريقة وكنت أنا زيها تمام عصفور تايه ودايخ راح منه عشه في ليلة حريقة وكانت زي الوردة بس صفرا ودبلانة، عنها، عنها وخدتني جلالة الفروسية والشهامة. أنا عارف ان ده عيبي، الشهامة والفروسية، طبع الفلاح اللي هيفضل طول عمره فلاح، هو ده السبب في كل اللي حصل لي قبل سلوى ومع سلوى وبعد سلوى، لكن ما باليد حيلة. الفروسية في دمي تمام زي ما السُكر في دمي، مش قادر اتخلص منها ولا منه..ده داء ما لوش علاج.

معلش بقا يا ركس فوتهالي دي، انت كمان فيك عيب ما تقدرش تخلص منه؛ داء مالوش دوا، الوفاء. تقدر ما تكونش وفي؟ تقدر تغدر بي وتسهيني وتعضني؟ تقدر تغطرش لو دخل البيت حرامي؟ تقدر تخلي تعبان ولا حية تقرب لي؟ أنا باكره التعابين يا ركس قد ما انت بتكرهها وباخاف منها قد ما بتخاف انت منها، ده كمان داء مالوش دوا. آه يا ركس من لدغة الحية، بيقولوا التعابين بتطلع من السيرة، يكونش البيت فيه حية، لكن لأ، مش ممكن يكون فيه حية وانت هنا. انت راخر بتاخدك الجلالة، جلالة الوفاء، زي مانا خدتني جلالة الفروسية وقلت أنا رسول العناية الإلهية لإنقاذ الست دي.. الست الفنانة سلوى

الكلب: (يزوم)

الزوج: معلش، أرجوك ما تسخرش مني. مغفل؟ يمكن.. مجنون؟ ما كلهم بيقولوا كده.. عبيط؟ زي بعضه. زي ما تقول قول. المهم إني صممت أنقذ الوردة الدبلانة من تحت رجلين الدواسين تمام زي مانت ممكن تضحي بنفسك عشاني لو قربت مني حية دلوقت وأنا أعمى، وعاجز ومش قادر أدافع عن نفسي. انت

كمان مغفل ومجنون وعبيط يا ركس، وفلاح، يبقا لا تعايرني ولا اعايرك، الهم طايلني وطايلك. هم الشهامة يا ركس

(يمد يده ويتحسس الجهاز والاسطوانات إلى أن يضع اسطوانة أخرى ويديرها)

الزوج : مافيش أقسى من موت الحب، لأن مافيش أجمل من الساعة اللي بيتولد فيها حب، لحظة غريبة، بتتولد فيها مشاريع، مشاريع كتيرة وكبيرة لسعادة مشتركة، لمليون الف ليلة وليلة ولقاء متبادل، لحظة بينكتب فيها عهد أو حتى عقد يتعهد في كل طرف انه يعيش ويموت عشان التاني، لكن يا خسارة، كل المشاريع دي بتدوب وتتبخر في لحظة غدر، في لحظة خيانة

عارف ان انت بتكره الخيانة، حتى لو بجرد كلمة، آه يا ركس، لو انا طردتك من البيت دلوقت وقلت لك مش عاوزك ولا جبت كلب تاني ولا سبت لك البيت ورحت بيت تاني، يا ترى هتعمل ايه؟ هاتضيع في شوارع المدينة زي صرصار بين العجل، عجل العربيات والترمايات والأتوبيسات والطوب، كل عيال المدينة هايحدفوك بالطوب، ماحدش هيديلك لقمة ولا حد هايحط ايده على ظهرك بحنان مش هاتسمع غير كلمة امش، امش، وهتفضل ماشي، منين لفين ما تعرفش إنما

تفضل ماشي ليل ونهار ونهار وليل لا الليل بينتهي ولا النهار له آخر. جوع وضياع وغربة. تركن بجسمك جنب حيطة، تقعد في خرابة، وتلحس جرح الخيانة والغدر

سلوى بالنسبة لي كانت شهرزاد لما قابلتها أول مرة، مش لأنها كانت فعلا كده، وإنما لأني كنت في أزمة. كنت بانتظر شهرزاد، وبادور عليها، واسأل عنها في الشوارع والبيوت والوجوه. كنت تعبان ومطحون ومجروح، كنت الطير اللي من غير وليف، ودي طبّت عليا، مع ذلك قلت لها ابعدي عني. كنت خايف من التجربة مادام فيه دايما احتمال لفشل التجارب خصوصا مع امرأة لها ماض، كنت عارف يومها بعض تفاصيله، ثم التجربة هي قبل كل شيء تجربة وأنا ما كنتش عاوز أجرب، كنت عاوز أرتاح، عاوز أي شط ارتاح عليه بعد الدوامات اللي لفت بي سبع بحور، وجايز قلت لها ابعدي عني لأنه كان جوايا صوت بيقول لي اوعى، إوعى من دي، دي شهرزاد المزيفة. اوعى تعمل بيجماليون، إوعى تعمل أرماندوفال، إوعى تعمل دون كيشوت، ابعد عنها دي اللي هتجيب لك العمى، دي الحية المتدارية تحت الفرو الناعم، دي السم المدسوس في العسل، آه يا ركس، كأني كنت عارف، قلت لها ابعدي عني، جايز لأني

ابتديت أحبها، يعني ابتديت أخاف من اليوم اللي هنفترق فيه وارجع تاني زي كل مرة أدور على شهرزادي التايهة في أغنية، في كباريه، ولا عازف عود في خمارة ..ولا .. ولا...

الكلب: (يزوم)

الزوج : هاحكيلك كل حاجة يا ركس. شفتها أول مرة قدام المسرح، كان بعد العرض وكانت مستنية تاكسي وكانت مجموعة من أصدقاء الصدفة عازميني على العشا في ملهى ليلي، وقتها كنت باتعزم يا ركس، وقتها كنت نجم ملو الجرائين، لقيتني معرفش ازاي باقول لها: انت حلوة قوي الليلة يا بت، قالت لي: عارفة، رايحة فين؟ مش رايحة حتة. طب ما تيجي معانا؟ وجات فعلا، وطلعنا كلنا على الملهى. صحيح ما كنتش أول مرة أشوفها فيها، أنا شفتها كتير قبلها، كتير جدا ويوميا كمان، لكن قصدي اني كنت ليلتها باشوفها أول مرة بعين العطشان، العطشان للحب أقصد، كان جويا النداهة اللي بتدور على شهرزاد في ليالي الغربة والوحدة، مش عارف ليه يا ركس ليلتها بالذات، في الكباريه واحنا قاعدين على الطرابيزة سيطرت على مخي لوحة العشاء الأخير، ما فارقتش خيالي.

يومها حاولوا كل اللي على الطرابيزة يعزموا سلوى على الرقص، بس هي رفضت ترقص مع اي حد فيهم، رفضها ده أسعدني زي العيل الصغير، اعتبرته دعوة منها ليا فقدمتها وأنا واثق انها هتقوم معايا، وقامت فعلا، بالحركة دي بس اشبعت غروري، لأنها فضلتني على كل الموجودين. سلوى ذكية، ذكية وخبيثة ومجربة ولها ماضي طويل وحافل، مع نجوم السينما والمخرجين والسواح العرب، عرفت الوتر اللي تضرب عليه وتشدني ليها، مش لأني مغرور ولكن لأني شديد الاعتزاز بنفسي، واعتزازي بنفسي ده يا ركس كلفني كتير وعذبني كتير لانها غالية عليا، تعمل ايه؛ فلاح بسيط لف الدنيا لكن فضل فلاح متوقع انه يضيع في أي لحظة في وسط المدينة الواسعة. يا عيني على الولد لما تيجي بنت المدينة تختاره من وسط الافندية المنشيين. مانت أكيد فاهم يا ركس يعني ايه حد يتوه في المدينة، المهم، كانت رقصة جولي جيتار، أنا ما باعرفش ارقص، رغم انه جات لي مليون فرصة في حياتي عشان اتعلم الرقص لكن شيء ما جوايا كان بيرفض يتعلم الرقص بالذات، مش عارف ليه، كنت باحس دايما انه فيه قيد على رجلي زي بتوع اللومان، باحس بشيء في عمودي الفقري، في قلبي في عروقي في إيدي مكلبشني، مكتفني ومحنطني ومخليني ما اعرفش اتحرك واذا اتحركت باحس اني أتقل

من جبل وإني شايل جبل على كتافي، خجل؟ يجوز. ويمكن إحساس بالشيخوخة المبكرة ناتج عن مرارة التجارب اللي خضتها في حياتي، الأب الظالم والأخ الحاقد والزملا اللي عنيهم كلها كره. صحيح الفلاحين بيرقصوا، لكن رقص ناشف، رقص رجالة، رقص زي رقص الخيل مش زي الرقص الافرنجي اللي ما نعرفش نفرق فيه بين الراجل والست. كنت دايما ابص للشباب والبنات وأقول ان فيه عصر أنا ما عشتوش، مرحلة في حياتي قزحتها ماعرفش ازاي زي ما يكون كام متحرم علي أعيشها لأن ما يصحش اعيشها، عيب،عيب وانا شاب أعمل زي شباب البندر ما بيعملوا. أنا مثلا يا ركس عمري ما عاكست بنت في الشارع ولا عمري بدأت قصة حب ولا عمري اتجرأت على دعوة واحدة للرقص مع إني جرئ في كل شيء، حتى يوم ما اتجرأت على دعوة سلوى كانت هي اللي دعتني في الواقع لما رفضت ترقص مع كل اللي كانوا سهرانين معانا ليلتها، سلوى كانت مجربة يا ركس

الكلب : (يزوم)

الزوج : وغبنا يا ركس في الرقص، ولأول مرة أحس اني خايف، ولأول مرة أحس ان القيد اللي في رجلي انفك ولأول مرة احس اني ابن

عشرين سنة، ولأول مرة اكتشف اني فعلا حريف في الرقص من غير ما اعرف. طب ليه كنت دايما فاكر اني ما باعرفش ارقص؟ أهو، طبع الفلاح اللي خايف يضيع وسط شبان البندر

قطع/ (الزوج والزوجة يرقصان)

الزوج : بوسيني يا بت

الزوجة: (تقبله)

الزوج : احضنيني يا بت

الزوجة: (تحضنه)

الزوج : تتجوزيني يا بت؟

الزوجة: إيوة آه.

قطع/ (الكلب يزوم)

الزوج : قالتها بنفس اللهجة الفلاحي، إيوة آه، وما كدبتش خبر، تاني يوم كنت كاتب كتابي عليها وأنا باقول وجدتها زي أرشميدس. وعشنا في تبات ونبات، وكان ناقصنا صبيان وبنات، لكن اللي قالت إيوة آه هي نفسها اللي حكمت على

الصبيان والبنات بالإعدام. أجهضت خمس ولاد يا ركس عشان شوية سهرات تلفزيون وفيلمين. تخيل، وحكمت بالإعدام الأبدي على أي ذرية منها يوم ما خانتني، خانتني ليه؟ عشان ظروفي بقت صعبة، انها يوم ما قالت إيوة آه كانت الفلوس زي الرز وانا كنت نجم ملو السمع والبصر، بعدين بقينا ناكل يوم ونجوع يومين يا ركس، الحب ما بيملاش المعدة الفاضية ولا يجب سباق الفرص، عنها ويبدأ الاختيار المر بين الحب والقرش، والحقيقة التاريخية بتقول ان عمر الحب ما دخل معركة ضد القرش وانتصر. يا خسارة الحب لما ينزل السوق الحرة ولا السوق السودا. تحبيني يا بت. أيوة يا بيه، بكام؟ باللي تقول عليه. انسحبت انا من المعركة، يومها فكرت يكون لي صديق، وكنت انت الصديق يا ركس، خدتك من الشارع وانت لحمة حمرة، وطلعت وفي، لكن لو جبت ديب وربيته زي ما ربيتك وربيت سلوى هل كان هيبقا وفي؟ تجربة عمرها ما نجحت، لكن ليه أنا مغرم بالمعارك الخسرانة؟ بالتجارب والتحديات الفشنك الفاشلة؟ ليه لسة جوايا طبع الفلاح الخام البكر، المثقف اللي لسة رجليه في طين الغيطان الخضرا زي حزمة السريس، ويا عيني على ولاد الريف، بيبيعوهم التورماي في البندر، يا خسارة يا ولاد.

الكلب: (يزوم)

الزوج: عندك حق يا ركس. سلوى ما خانتنيش، سلوى باعتني، بس نفسي أعرف باعتني بكام؟ نفسي أعرف تمني في نظرها ونظر المحَافظ بتمن رخيص، ليه؟ يا ترى فيه في الخيانة تمن رخيص وتمن غالي، ياترى فيه للإنسان، أي إنسان، تمن؟ يا ترى فيه فرق بين جنيه وألف ومليون لما يكون الفصال على بني آدم مش ممكن يا ركس، لأن الإنسان هو الشيء الوحيد اللي ما ينباعش ولا ينشري إلا في السوق السرية، راحة الضمير والعدل والشرف والإنسانية.

تصفيق حاد .

الجزء الرابع :

١٩٦٩

هكذا تحدث نجيب سرور

في أوائل الثمانينات كنت قد عدتُ من فرنسا - والتي أتيح لي التدريب في أحد مصحاتها؛ (وهي مصحة لابورد الشهيرة، والمُتخصصة في العلاج النفسي غير التقليدي، والقائم على فلسفة التعامل مع نفس المريض وروحه قبل التعامل مع جسده بالعقاقير والأدوية، ودون فهم لطبيعة هذه النفس البشرية التي هي نفخة مقدسة من روح الله سبحانه وتعالى!) عدةُ أعوام قضيتها هناك أتعلم أنماطا مختلفة من العلاج غير الطبي؛ العلاج بالموسيقا والفراسة والشعر والفلسفة. تجربة ضخمة لا أعرف متى يتاح لنا أن نطبقها في مصر (هذا إن كان يمكن تطبيقها أصلا!). ثم كان الاضطرار للعودة، ويا وطَني لقيتُك بعد يأسٍ كما يقول شوقي، عدتُ بالفعل واستلمت العمل بمستشفى الحسين - وتجربة العمل مع مستشفيات وعيادات الطب النفسي في مصر تجربة تستحق

تدوينا منفصلا لما بها من حكايات يشيب لهولها الولدان. سنترك هذا كله جانبا الآن؛ فالمقصد والغرض من الكتابة هو ما جرى ذلك اليوم، حين يلعب القدرُ - أو المصادفة، حسبما يروق لك التعبير - تلك اللعبة المتكررة المدهشة؛ وأجدني أمامها وجها لوجه: ساشا، زوجة الراحل العظيم نجيب سرور!

أتعرف عليها من أول نظرة، رغم أنها كبرت كثيرا (ولم أكن قد رأيتها منذ أعوام حين كانت تقوم برعاية العظيم الراحل في تلك الفترة في السبعينات، والتي قضاها في مصحة المعمورة بالإسكندرية عند كمال الفوال) ملامحها الأوروبية تبدو كالنغمة النشاز بين ملامح المرضى المصريين الفقراء الداخلين والخارجين من مستشفى الحسين. أستوعبُ تلك المصادفة الشبيهة بما يحدث في الروايات، وأهتفُ:

- مدام ساشا. أهلا وسهلا.

ترفع بصرها نحوي، وجهها المنهك وشعرها الأشقر المللوم خلف رأسها في جديلة قصيرة. تفكر للحظة وكأنها تتذكرني ثم تنطلق في الكلام بلكنتها المميزة. أعرف منها أن الراحل العظيم توفي هنا، في مستشفى الحسين. أعرف منها أنه تعب كثيرا في تلك الأيام الأخيرة. أعرف منها أنها تعاني الآن مع فساد وبيروقراطية موظفين لا قيمة لهم ولا يعرفون من هو نجيب سرور ولا يعرفون قدره!

أفكرُ وأنا أنظر لتلك المرأة الروسية، وأشعر بالإشفاق لملامحها المنهكة والاحترام لإخلاصها المدهش. مات نجيب سرور. ليرحم الله الشاعر المبدع والخالد. طالما خطر في بالي أنه لن يتبقى منّي بعد ذلك إلا شهادتي على حكايته، أني رأيته وعرفته وصاحبته (وهل أقول عالجته؟) وهاهي الدائرة تنغلق على نفسها، هاهي الأسطورة تكتمل. سيستدعونني للحوارات الصحفية والإذاعية والتلفزيونية لأتحدث عنه باعتباري صديقه القديم وطبيبه المعالج. لكن ليس من سمع كمن رأى. الأستاذ مات ليعبر نحو الخلود الذي يستحقه. أما أنا، فسأبقى هنا لأحكي عنه، علّ أحدا يرغب في معرفة الحكاية ... وأفكر، أفكرُ أنه ربما كان كل ما فات من حياتي من طب نفسي وسفر وشهادات وادعاء للكتابة ليس إلا تدريبا على هذه المهمة المقدسة، أن أكتب سيرتي مع ذلك الراحل العظيم!

* * *

يقولون إن هناك موضة الآن أن يكتب "العاديون" سيرتهم الذاتية. أقرأ في مجلة "العربي" التي تصدر في الكويت (متى تصدر مجلة ثقافية محترمة في مصر؟ سؤال لا إجابة له!) أن مئات من السير الذاتية طبعت العام الماضي في فرنسا وحدها. كل شيء حولي يأمرني أن أكتب، الرغبة في الكتابة، اللحظة الحائرة بين هزيمة قاسية ونصر مأمول،

مدونـــــــة رفايــــــع

الطموح الذي تبدد، شعوري أن زهرة العمر قد ولت، ثم المنطقة الفاصلة التي أعبرها، تاركا مرحلة وبادئا مرحلة جديدة في مشوار عملي الجديد، بعد أن قررت التفرغ للحرية التي طالما اشتقت لممارستها؛ التفكير والقراءة (ثم الإبداع، من يدري؟) ومكتفيا بعيادتي الشخصية عن أي نشاط آخر.

كنتُ - ولا زلتُ - مقتنعا أن الأطباء النفسيين - والذين أرجو أن أضيف شيئا إليهم في مصر - هم في مكان خاص، وفي منزلة مختلفة، لأنني أعتقد أنهم/ أننا يجمعون/نجمع بين العلوم التطبيقية ممثلة في الطب، والعلوم الإنسانية ممثلة في علم النفس، وهذا حسبما أعتقد وأرجو أعلى درجات الإبداع، ولكن هذا يجعل السؤال لا يزال قائما ...

لماذا أكتب، وماذا أكتب؟

يقول توفيق الحكيم في روايته "يوميات نائب في الأرياف" أن "صاحب الحياة الهائلة لا يدونها، بل يحياها" وهذا حق، ولكنّي كثيرا ما أجد أني إزاء تجربة ضخمة تستحق التدوين، لكني لا أعرف ماذا أكتب، رواية، وقائع، أحداث، أكتب يوميات أمزج فيها الحاضر بالماضي والأحداث اليومية بالذكريات القديمة - المبهجة منها والمؤلمة. يقولون اكتُب، اكتُب ولا تفكر ...

الأمر محبط، فلا أحد يقرأ في هذا البلد، والذين يكتبون لا يفعلون سوى أن يريحوا أنفسهم من "احتقان إبداعي" لا أكثر، إن صح هذا التعبير، أما الذين يستفيدون من الإبداع فهم الذين يبيعون هذا الإبداع - إذا اعتبرناه إبداعا - لمسلسلات الإذاعة والمسرح أو ربما شاشة السينما.

تخطر في بالي ألف فكرة وفكرة. أشعر أن حياتي كانت حلم يقظة طويل يقتحمه من آن لآخر الواقع بسخافته، بقسوته لكن لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم، كما يقول فولتير. الألم، الحب، الموت، الحزن، الفراغ، العذاب، الانتظار، الحيرة، الشك، العبقرية، الحقيقة، مفردات ملأت حياتي و شكلت وجداني ولابد من أن أجلس إلى الأوراق وأكتب، غير عابئ بما قد يحدث، وغير متوقع أن يحدث شيء. ويكفيني أن أدون تلك التجربة التي شاء القدر أن أكون شاهدا عليها في النصف الثاني من عام ١٩٦٩.

فيا أيتها الأوراق التي لا أعلم ما سيكون مصيرها. احتفظي بالسر، وكوني على مقدار حجم المهمة.

جلال الساعي

اكتوبر ١٩٨٧

المنيل - القاهرة

سبتمبر ١٩٦٩

كما هي العادة، أقدم رجلا وأؤخر الأخرى. أتهيب دون مبرر واضح، وأبتهج دون سبب ظاهر. أفكر أني على أعتاب تجربة جديدة فأجد أنها تستحق أن أوليها الانتباه والاهتمام، حتى وإن لم أجد في نفسي من الحماس ما يلزم أو يبرر ذلك.

إنه اليوم الأول لي في مستشفى العباسية للصحة النفسية، وإنه اليوم الأول لي طبيبا نفسيا معتمدا من وزارة الصحة، وإنه في الخامس عشر من سبتمبر، من عام ألف وتسعمائة وتسعة وستين، ومابين مقدمات برنارد شو التي قد تفوق حجم الكتاب نفسه، وبين صمت نجيب محفوظ الذي لا نعرف عنه شيئا غير شخصيات رواياته، أجدني مترددا كيف أبدأ هذه اليوميات الحائرة، حيرة صاحبها نفسه..

أبتسم وأنا أطل على نفسي وأوراقي التي كتبتها، هناك، في ذلك الزمن أتساءل في وجل:

(هل أنا ممثل، فنان، كاتب مسرحي، روائي، شاعر، أم شخص لا يجد الوسيلة المناسبة للتعبير عن مشاعره وأفكاره، أم أنه جو الهزيمة القاحل يلقي بظلاله على كل شيء حتى على قدرتنا في التعبير عن أنفسنا..

ها أنذا ألقي بخيبتي على شماعة الهزيمة كما يفعل الجميع الآن، وهاأنذا لا أجد تعريفا مناسبا أقدم به نفسي لنفسي، أو أقدم به نفسي للناس!)

في تلك الفترة من العمر تكون الأسئلة ضخمة والإجابات صغيرة. تكون لديك مهارة اختزال الأشياء وتفرقتها إلى اختيارين؛ إما أبيض أو أسود. في تلك الفترة من العمر يسهل أن تطمئن نفسك قائلا: ولمَ الحيرة، إن لي صفة يعرفني بها المجتمع الآن، صفة الطبيب الذي يمارس المهنة، أو المفترض كذلك بدءا من اليوم، طبيبا مقيما في مستشفى العباسية، يذهب اليوم لاستلام عمله، مستعدا لاستقبال عمله الحكومي بصدر نبيل يليق ببطل تراجيدي على مسارح اليونان، أو كاتب (يظن نفسه كاتبا) يستعد للتجارب والشخصيات التي سيتاح له رؤيتها في هذا المكان الذي تختلط فيه الحقيقة بالأساطير، والحكايات بالأعاجيب..

أركنُ سيارتي التاونس – موديل ١٩٥٥ والتي كان والدي الشيخ عبدالمجيد السماعي اشتراها لي بمبلغ ٥٠٠ جنيه وقتها – في ذلك الفضاء الأجرد الذي يفترض أنه فناء المستشفى، أتأمل المباني الصفراء الكالحة التي سأقضي فيها – على الأقل – الأعوام الخمسة القادمة من حياتي. أستنشق النسمة الخريفية الجافة وأفكر أنه ما زال هناك أمل، وأن الحياة التي لم تتوقف رغم ما رأيته في تلك الوحدة الصحية النائية من جهل وبؤس وتعاسة، لن تتوقف أبدا، وأن الإنسان – على حد تعبير سلامة موسى – هو أصل كل المعجزات.

أذهبُ لموظف ما وأسلمه ورقة إخلاء الطرف من تلك الوحدة النائية التعيسة. يحدق في الختم كما تحدق شخصيات تشيخوف في الأوراق الرسمية، 'يبربشُ' بعينيه الضيقتين ويطلب مني التوجه لمدام فلانة يا "دكتُر" والتي بدورها تبعث بي لموظف آخر يبعث بي لموظف في آخر الطرقة، ثالث أوضة شمال، كل وظيفته أنه يحمل ختم النسر، الوريث الشرعي لحامل أختام الملك الفرعون الإله، يختم لي الورقة والتي يفترض أن أتوجه بها صباحا للطبيب المقيم الأول، لأستلم منه العمل بشكل رسمي..

أقرأ في أوراقي التي دونتها في ذلك الزمان البعيد:

(لا أعرف لماذا أدون هذه اليوميات الآن، بل و لا أدري حتى تحت أي صنف يمكنني إدراجها، أشعر أنه سينتهي رواية بما تعنيه الكلمة، أضمنه مشاهداتي طبيبا للصحة العقلية، وشاهدا على تلك اللحظة التي يفقد فيها الإنسان ما يميزه كإنسان ويتحول - على حد تعبير العبقري يوسف إدريس في مجموعته الأخيرة الباهرة - كتلة من اللحم تتحرك دونما وعي او إرادة - أو يردنا إلى ما قاله نيتشة: الإيمان بالحقيقة هو الجنون ذاته! أم أنه هذه الأوراق ستنتهي - من يعلم - لتكون رسالة طبية لا أكثر، أو مجرد خواطر ومحاورات عقلية. لتكن صيحة عاجز ضاقت به السبل في لحظة ما، أو مجرد قصة، أو رؤية علمية لبست هذا الثوب الروائي، وعلى من يقرؤها أن يكون مسئولا عما يصله منها... كل بطريقته.)

وبعد كل هذه الأعوام، أقبض على هذه الأوراق القديمة محاولة صناعة شيء ما منها، فيما والحيرة لا تزال هي الحيرة!

أنزلُ من المبنى الإداري متأهبا للانطلاق والعودة في الغد لمباشرة عملي كـ "طبيب مقيم نفسية وعصبية" بمستشفى العباسية. أعبر ذلك الفناء الكالح وقبل أن أصل للسيارة، ألمح اثنين من المرضى يتجولان معا. أتأملهما مفكرا في عمق واتساع التجربة التي أنا مقبل عليها بدءا من الغد، ثم أجد واحدا منهما يتحرك ناحيتي، بجسده ضخم الهيكل، الناحل، يرتدي فانلة داخلية وبنطلونا من القماش ويعبث في شعره

مدونـــــــة رفايـــــع

الناعم الغزير بعصبية. أشعر بشيء من الخوف وهو يقترب، ويسيطر عليّ شعور ملحّ أني رأيته من قبل. يباغتني بسؤال لا أتوقعه:

– ممكن سيجارة يا دكتور؟

أتفحصهُ، أين رأيت هذا الرجل من قبل، إنه قريب في ذاكرتي، إنه يطل من مكانٍ ما، مكانٍ ما له علاقة بالمسرح أو الشعر أو الأدب...

– سيجارة، سيجارة واحدة فقط. ليست لي. إنها للسيد المسيح، هناك..

ويشير بامتداد ذراعه للناحية الأخرى من الفناء.

مسرح الجيب. ياسين وبهية. أمّا يا أمّة شُفت حِلم، غريب يخوّف. أتأمل الفنِلة البيضاء المتهالكة التي يرتديها وألاحظ الثقوب فيها من أثر السجائر. نعم. إنّه هو..

– أستاذ نجيب، حضرتك أستاذ نجيب سرور؟

لا يرد، أنظر نحو ذلك المريض الآخر البعيد الذ يشير إليه ثم أعيد البصر إليه، أحدق في ملامحه الكابية وأتذكره بوضوح تماما، وأتأكد من كل شيء حين أرى الدموع التي تملأ عينيه!

وهكذا، هكذا كان هو يومي الأول في مستشفى العباسية...

* * *

يأخذ لنا رُكنا في فناء المستشفى ويحكي لي كيفية مجيئه لهذا المكان! بدءا من لقائه برجاء النقاش ثم ركوبه التاكسي والقبض عليه عند مدخل الهرم - بتهمة التشرد و السُكر (!) ونقله إلى قسم الهرم. مشاجرته مع الضباط في القسم والمؤامرة المبيّتة ضده من البداية، تحويله إلى نقطة الشرطة العسكرية والتي قامت بتحويله للعباسية. أسأله:

- ولماذا يتم تحويلك لنقطة شرطة عسكرية من أصله؟

فيهزّ يديه مطلقا لفظا نابيا، أكتشف بعد أن يقوله أنه ليس له أي بديل مهذب بالفعل!

كنا في تلك الأيام - والتي سيطلق عليها عصر ما بعد النكسة. كنا ندرك حجم الهزيمة الثقيلة التي انفرط على إثرها عقد نظام طالما روعتنا مهابته. يسيطر الوجوم على الجميع ويصبح الكلام مُتاحا لكن لا قدرة ولا طاقة لأحد عليه. في تلك الفترة كنتُ أتابع أخبار نجيب سرور الغريبة وأنه يسير حافيا بملابس الشحاذين في الشارع. كنت قد قرأت كذلك مقالة الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي - في مجلة روز اليوسف - مطالبا بإنقاذه، كانت المقالة مؤثرة وصادقة، ولكني كنت أدرك أن البلد بكاملها تحتاج للإنقاذ وليس نجيب سرور فحسب، وأن ما يفعله هو ما بالضبط فعله من قبل في مسرحياته؛ مكاشفتنا بالواقع المفزع القبيح الذي نعيشه دون تزويق أو مواربة.

أسأله عن تفاصيل نقله إلى المستشفى. يأخذ نفسا من السيجارة ثم يقول:

لهم حيلٌ في حربهم ما اهتدت لها / جَديسٌ ولا ساست بها الملك جرهمُ

أبتسمُ سائلا:

- أبو العلاء المعري؟

- ومن غيره يا دكتور؟ تم تحويلي إلى هنا بمعرفة زبانية الشرطة العسكرية ثم قام بالقبض عليّ دكتور يدعى عبدالسلام محسن ....

عبدالسلام محسن! أحاول تأمل هذا اليوم الدرامي بامتياز. لعبة الأقدار التي لا تكف عن خلق المصادفات. عبدالسلام محسن. لم أكن أعرف أنه هنا. أفكرُ في الحياة التي قال عنها يوسف بك وهبي أنها ليست سوى مسرح كبير، أو سيرك كبير، من يدري؟

- ... وقام هذا الطبيب المخابراتي باحتجازي هنا، بل وقام بتحويلي لمادة أربعة؟

- ماهي مادة أربعة؟

يشرح لي تقسيم المرضى وفقا للخطورة في العباسية ثم يسألني:

- هل هو دكتور فعلا، أم أنه مدسوس من جهة عليا للوصول لهدف ما لديهم؟

أهز رأسي. أؤكد له أنه طبيب فعلا، وأنه دفعتي. أضيف أنه صديق قديم وأن ثمة خلطا أو خطأ ما وأنني سأستلم العمل رسميا في الغد وأفهم أصل الحكاية. أحتضنه وأسلم عليه - فيحتضنني بشدة كالطفل - وأنطلقُ منتظرا الغد، وما سيكون في لقاء الغد.

***

لماذا لا تكون مثل عبدالسلام محسن؟

هذا هو المختصر المفيد لعلاقتي به؛ ومن ثم علاقتي بأبي، بالمجتمع، بالقوالب الثابتة التي تريد أن تُكسَرها فيحالفك التوفيق حينا، أو يخيب في أحيان أخرى كثيرة. إنه هو المختصر المفيد لعلاقتي - أو علاقة أي شخص مختلف -بالآخرين. هل هو سارتر من قال أن "الجحيم هو الآخرون"، أليس كذلك؟

منذ تعرفنا لأول مرة في مدرسة القربية الابتدائية - بشارع السلطان حسين (شارع الشيخ ريحان حاليا) وهو نموذج للطالب المجتهد المنتظم. دائما ما كنت أفكر أن هناك أشخاصا اختصتهم الأقدار بمحاباة من نوع خاص - استغفر الله؛ فصار ما يريدونه لأنفسهم هو

بالضبط ما يريده لهم المجتمع، وهو بالضبط ما يريده منهم إمام المسجد على الأرض والله سبحانه في السماء. لا صراع ولا قلق ولا حيرة ولا دراما كالتي يعيشها أولئك الذين يحاولون الخروج من هذا النظام المُحكم، والحياة على هامش تلك الحياة الرتيبة البليدة التي يعيشها عموم البشر، *العاديون* إن صح ذلك التعبير.

* * *

في مدرسة القرية كان البدروم يستخدم كمطعم - وكان يسمى اليمخانة، وكانت هناك وجبتان يوميا، إحداها وجبة ساخنة تتكون من طبق من الأرز والخضار وقطعة لحم! ذات مرة كنت نازلا - أنا وعبدالسلام - من الطابور لذلك المطعم. كنت أتحدث إليه، وفقا لطبيعة السلوك الإنساني والذي كان ممنوعا حسب نظم المدرسة وقتها، لسبب ما مجهول. كنتُ أحادثه وهو لا يرد، ولم ألاحظ أن الناظر كان يقف فوق السلم. بمجرد نزولنا استوقفني الناظر، وتلقيت أول صفعة على وجهي في تلك المدرسة؛ مكررا ذلك السؤال الأثير:

- لماذا لا تحترم القواعد مثل زميلك؟

لماذا لا ينبغي أن نتحدث في الطابور؟ لماذا يحترم زميلي القواعد ولماذا أحاول أنا الإفلات منها؟

لماذا لا تكون مثل عبدالسلام محسن؟

لماذا أنا طبيب؟ ولماذا نجيب سرور محبوس في هذا المكان الآن؟

❊❊❊

انتقلت بعد ذلك لمدرسة الإبراهيمية الثانوية والتي كان مبناها الضخم يقع في حي جاردن سيتي في بقعة بالغة الجمال والهدوء. كانت تلك المرحلة ذات أهمية بالغة لأنها تؤهلك للحصول على التوجيهية – التي يطلق عليها الآن الثانوية العامة – وكنت أنا مع عبدالسلام محسن وعدة زملاء آخرين من أصغر الطلاب سنا وقتها فقد كان المكان يعج بطلاب كبار السن رسبوا عدة سنوات منشغلين بالحياة أو بالعمل الوطني والحزبي. كانت هناك – كما لا تزال الآن – قوتان كبيرتان؛ الإخوان المسلمين والثانية هي ما سمي بهيئة التحرير وهي نواة أول حزب أنشأته الثورة. (المؤسف أننا بعد كل هذه السنوات لا نزال بين قبضة تيارين لا ثالث لهما، تيار الإسلام السياسي أو الإخوان المسلمين، وتيار السلطة أيا كان اسمه، ولا عزاء للقوى المدنية الحقيقية!) أتذكر من تلك الأيام حكاية قد تبدو ذات دلالة الآن؛ ذات يوم في الفسحة يقترب منا – أنا وعبدالسلام – طالب يبدو أكبر منا بسنتين أو ثلاثة. يتحدث إلينا عن سعادته بدخولنا تلك المدرسة العريقة ويثني على اجتهادنا في سننا الصغير هذا ثم يسألنا لماذا لا نحضر لمسجد المدرسة. (ولم يكن

مسجدا بالمعنى المعروف ولكنه زاوية صغيرة في حوش المدرسة تغطيها الحصر وجوارها حنفية مياه للوضوء) لا أشعر بارتياح لكني أجد عبدالسلام متحمسا للذهاب فأسلم أمري لله ذاهبا معهم. يتحدث إلينا عن الإسلام ومبادئه وعن دولة الخلافة التي لا بد أن تعود من جديد - والحق أنه كان متحدثا بارعا شديد الإقناع والجاذبية. نحضر معه عدة مرات ثم يتنحي بنا جانبا ذات مرة ويحدثنا عن ضمّنا لخلية الإخوان المسلمين المكونة من خمسة تلاميذ ويخبرنا باسم تلميذ سيكون مسؤول هذه الخلية، وأنه ثمة مخاطر وأنه لا ينبغي أن نتحدث إليه أو نسلم عليه لو شاهدناه في الفسحة! بعد انصرافه كان أول تعليق لعبدالسلام، والذي يتبخر حماسه فجأة:

- لا علاقة لنا بهذا الكلام؛ السياسة لها أهلها. يكفينا نحن الانتباه لدروسنا ومستقبلنا.

أما أنا فلا أهتم بالأمر برمّته، لقد كنتُ - وحدي - في وادٍ آخر.

***

كنت بالطبع طالبا مجتهدا - وقد أهلتني درجاتي للالتحاق بكلية طب قصر العيني مباشرة عقب الحصول على التوجيهية، ولكني كنت قد بدأت التعرف كذلك على الأدب والسينما والمسرح؛ ذلك الشغف

الذي لن ينقطع بعد ذلك (وأرجو ألا ينقطع حتى أموت) بدأتُ القراءة لتوفيق الحكيم وطه حسين ثم قرأت رواية لكاتب لم أكن سمعت به من قبل يدعى نجيب محفوظ؛ هي رواية "زقاق المدق" ففتنت بها أي افتتان وبذلت كل مصروفي لشراء أي رواية جديدة تحمل اسم هذا الرجل. ثم بدأت أعرف الطريق إلى سينما سان جيمس بشارع الألفي. كانت الحفلات الصباحية باسعار مخفضة وكنت أحيانا ما أزوغ من المدرسة حتى أشاهد فيلما لفاتن حمامة أو عبدالحليم حافظ أو شادية، هذا بخلاف الأفلام الأمريكية؛ وقد كان تأثير هوليود على جيلنا هائلا. ابتسم وأنا استدعي تلك الذكريات البعيدة؛ يهددني عبدالسلام - بين الجد والمزاح - بأنه سيخبر والدي - الشيخ عبدالمجيد أنني أذهب للسينما وأني لا أذاكر معه - حسبما أدعي ولكني أذهب لمشاهدة المسرحيات، أسأله:

- ألا تحب عبدالوهاب وعبدالحليم وشادية؟

يهز كتفيه، ولا يجيب ...

- ألا تشعر بالرغبة في مشاهدة فيلم لمارلين مونرو؟

يهز كتفيه، ولا يبدو عليه اهتمام...

- ألا تشعر بالملل من المذاكرة؟ ألا تقرأ؟ تخرج؟ تفعل شيئا خلاف الجلوس في البيت أو الذهاب للمدرسة؟

- أقرأ جريدة الأهرام؛ والدي يشتريها كل يوم فأعرف منها أخبار البلد!

ويمتزج في صدري نحوه الشعور بالغيظ، والشعور بالإشفاق.

* * *

أطرق الباب فيأتيني صوته من الداخل، اتفضّل، أفتح الباب وأدلف خطوتين للداخل، يكون هو منهمكا وسط كومة من الملفات والأوراق. يرفع رأسه وما يلبث أن يصيح:

- يا نهار أبيض. الدكتور جلجل شخصيا في مستشفانا المتواضع...

يحتضنني بحماس. لا يزال كما هو. نحل قليلا، ربما من أثر العمل المنهك في هذا المكان الكئيب.

يسألني عن أخباري، ويسألني، كعادة الأطباء حين يلتقون ببعضهم البعض، ما إذا كنت تزوجت أم لا. نمرّ مرورا سريعا على السياسة وحديث السياسة. نتذكر الوالد الراحل ونترحم عليه. أخبره أنني جئت لاستلام العمل في العباسية طبيبا مقيما، ولا يبدو مندهشا كما أتوقع، يقول:

- أخيرا بعثوا إلينا بطبيب. اليوم تمر عليّ سنة وحدي في هذا المكان، بما فيه من مرضى وممرضين واستشاريين و كافة شيء...

ويضيف:

- حين جاءت النشرة بوصول طبيب تكليف في حركة النيابات الأخيرة فكرت، من هذا الطبيب المغامر الذي قرر التخصص في النفسية والعصبية، وحين وجدت اسمك فهمت كل شيء...

ويضحك ضحكته العالية. لا تزال له ذات الضحكة المطمئنة الصافية الرنانة. أفكر في الخبرة وموضعها من حياة صديق طفولتي القديم. أتذكر قول شخصية الدكتور في رواية نجيب محفوظ "الشحاذ" : "لا وقت عندي للتساؤل عن معنى الوجود، وما دمت أؤدي خدمة كل ساعة لإنسان هو في حاجة ماسة إليها فما يكون معنى السؤال"

ليرحم الله القلوب التي لم تدرك الطمأنينة بعد. أعقبُ على قوله:

- أنا أيضا تعجبت من اختيارك لتخصص النفسية؟

- وعصبية، نفسية وعصبية لو سمحت. يعني تستطيع أن تقول أن فرصتي في التعيين في الكلية مؤكدة لأني سأكون الأعلى درجاتٍ بين نواب النفسية - وذلك حين أنتقل للجامعة - فضلا عن قناعتي بان

الطب النفسي قريبا سينتقل لعلم طبي خالص، بعيدا عن خرافات يونج وفرويد، تلعب فيه العقاقير والتشخيص المنهجي الدور الأول، مثله مثل أي تخصص طبي آخر...

ويبتسم مضيفا:

- طبعا أنت لا يعجبك هذا الكلام؟ أخبار الشعر والكتابات ايه، ألاتزال تكتب القصص والمسرحيات؟

- ... يعني، ولماذا لم تستلم العمل بالجامعة مباشرة كما يحدث دائما؟

- تعللوا بعدم وجود درجة مالية متاحة الآن؛ وهكذا قضيت السنة الأولى هنا في العباسية!

- لكنها على الأقل أرحم من تلك الوحدة الصحية التي تكفلت تقديراتي المتواضعة بإرسالي إليها، على الأقل هنا عملك له علاقة بتخصصك بعد ذلك، أما شغلي في الوحدة في الصعيد كان المصالحة بين مشاجرات الأسر وتوزيع حصة الدقيق بين أهل القرية!

يعود الحديث بنا للسياسة ثم لا يلبث أن يقطعه بسرعة ليشرح لي طبيعة العمل وكيف سيتم توزيع النوبتجيات بيننا؛ يبدو أن الوقت المسموح به للدردشة عنده انتهى، ولذا قرر الانتقال بشكل مباغت

للعمل وتفاصيل العمل. إنه كما عهدته منذ طفولتنا لم يتغير قيد أنملة. أفتحُ الموضوع الرئيسي الذي كنت أود الكلام فيه...

- طيب، قبل أي شيء، بالنسبة للمريض "نجيب سرور"....؟

يهرش في رأسه:

- نجيب سرور؟ تمام، مريض الفصام المحجوز مادة أربعة...

- نجيب سرور، حضرتك، شاعر ومؤلف ومخرج مسرحي. أكيد فيه غلطة ما..

يبتسم، وأشعر بالغيظ لابتسامته تلك ولكني لا أعلق.

يمد يده ويتناول ملفا ما، يعلق وهو لا يزال يحتفظ بتلك الابتسامة:

- طبعا، طبعا، ما هو فنّان مثلك ولا بد أن تهتم بشأنه ...

ولا ينتظر إجابةً، ويأخذ يشرح لي الموقف، والذي أكتشف أنه أكثر تعقيدا مما توقعتُ، ومما ينبغي.

* * *

صباح اليوم الثاني، أذهب لاستلام عملي بشكل رسمي. أتجول مع عبدالسلام – وبمعاونته لأبدأ العمل بشكل فعلي؛ آخذ حصتي الرسمية – عدد اثنين بالطو وكوبونات الوجبة اليومية لصرفها من المطعم، التوقيع في دفتر الحضور وكذا التوقيع باستلام عهدة الأدوية المخدرة. عندما يتذكر المرء تلك الفترة يشعر بشيء من الحنين للحقبة الناصرية التي كانت تسعى لتوفير الاحتياجات الرئيسية للمجتمع، وربما كانت خطيئة عبدالناصر الوحيدة – والتي كانت السبب في كل أخطائه بعد ذلك – هي الاستبداد بالرأي وعدم تفعيل جو من الديمقراطية التي تتيح رؤية الواقع بوضوح والارتقاء به، لكن ما رأيناه بعده جعلنا نردد مع الشاعر الصعلوك أحمد فؤاد نجم:

عمل حاجات معجزة، وحاجات كتير خابت

وان كان جرح قلبنا، كل الجراح طابت.

بمجرد إنهاء تلك الإجراءات أسرع فورا لعنبر مادة أربعة – الخطرين – حيث نجيب سرور. تفزعني الرائحة الكريهة المكتومة للعنبر من الخارج وما ألبث أن أكتشف أن الرائحة هي أهون ما في الأمر! مجموع من الكتل آدمية متراصة على أسرّة متهالكة في غرفة كئيبة كالحة مجرد منظر جدارنها يصيب بالاكتئاب والجنون. حوالي عشرين أو ثلاثين مريضا في قاعة لا تتجاوز مساحتها مائة متر، ويبدو من نظراتهم الذاهلة

أنهم تحت تأثير المهدئات الكبرى أو العلاج بالكهرباء. مشهد ليس أدق من تصويره إلا قول الشاعر صالح جودت:

أوّاه من عزلة كالسجن مغلقة .. على جراح وآلام وأرزاء

ما هذه الجثثُ الملقاة في سرر .. أنصاف موتى على أنصاف أحياء!

أرى - بين أنصاف الموتى والأحياء - نجيب سرور وذلك المريض الآخر الذي شاهدته معه بالأمس - (والذي سأعرف لاحقا أن اسمه الدكتور إمام، وحكايته مع نجيب سرور تستحق التأمل والتدوين) نجيب يحدثه بحماس في موضوع ما، ويمسك في يده عدة أوراق مهترئة. بمجرد أن يراني يقفز عن السرير ويقدمُ نحوي:

- دكتور جلال ...

آخذه ونتمشى خارج القاعة. يتركنا المرض الضخم نخرج بعد مناقشة قصيرة. في فناء المستشفى أمنحه سيجارة وأحاول شرح الموقف - بوضوح وترتيب اختصار كما فعل عبدالسلام:

- نتيجة وضع البلاد الحالي؛ إعلان حرب الاستنزاف وإجراءات التعبئة والموقف على الجبهة، تنتشر نقاط الشرطة العسكرية في أكثر من مكان وتدير بعض المرافق التي ليس لها بها - في الظروف الطبيعية -

مدونـــــــة رفايـــــع

علاقة مباشرة، ومنها بعض نقاط المرور. لما حصلت مشكلة قسم الهرم وتشاجرت معهم، قرروا أن يريحوا دماغهم هناك فجرى تحويلك لنقطة الشرطة العسكرية والتي قررت هي أيضا أن تريح دماغها - نتيجة جهلها بحضرتك أو أي سبب آخر - وأرسلت بك إلى هنا لتقييم قواك العقلية. زميلي للأسف الشديد لم يتعرف على الاسم - وبيني وبينك حتى لو كان تعرّف على الاسم لم يكن ليعرفك؛ فليست له علاقة بالثقافة أو الفنون من قريب أو بعيد، وقرر احتجازك. المشكلة الآن أن خروج حضرتك من المستشفى - ولنفس الظروف المعقدة التي شرحتها مسبقا، يتطلب توقيع ثلاثة أشخاص. استشاري من المستشفى واستشاري آخر من مستشفى تعليمي وتوقيع ضابط من الجيش! لم يعد في سلطة النواب الآن أو حتى استشاريي المستشفى فحسب إخراج مريض من العباسية - نتيجة قانون الطوارئ وإجراءات الحرب ....

يصمت طويلا، يتناول من الأرض حفنة تراب ويظل يفركها في يده وهو ينظر لنقطة ما بعيدة، ثم يعلق في النهاية:

- عارف يا دكتور، ما الفرق بين العاقل والمجنون؟

ابتسمُ، مدركا أنه يبدأ الآن يقول ما يهمني، ما سأدونه حين أعود لدفتري وقلمي في المساء:

- أن العاقل ليس مجنونا. بسيطة؟ صح. اقول لحضرتك حاجة. لو أن النبي محمد أرسل الآن للأمة المصرية. ووقف في ميدان عابدين قائلا أنه يوحي إليه؛ أن ملكا من السماء يدعى جبريل يأتي إليه ويبلغه كلاما من رب العالمين، وأنه يرتعد عند سماعه، وزملوني زملوني، دثروني دثروني إلى آخر هذه القصة التي لا بد أنك تعرفها. تخيل معي، كيف سيكون رد فعل الناس الآن. ستحمله الشرطة العسكرية بدعوى ظروف الحرب التي لا تسمح بظهور أنبياء في هذا الوقت. سيرمون به في مصحة يثرب للصحة النفسية حيث سيتكفل به الدكتور عبدالسلام أبو لهب ويظل يكهربه ويعطيه العقاقير المنوّمة حتى يهد حيله. سينسى محمد أنه نبي، سينسى جبريل ووحي السماء وكافة شيء بينما سيواصل الراقصون رقصهم، ويواصل المخرجون إخراج الأعمال التافهة الرخيصة وتواصل الممثلات الزنى - وهو الآن سيد الأخلاق - مع نجوم السينما أو المنتجين. وفي الآخر نجيب سرور هو اللي قليل الأدب ولازم يتحبس.

لا أملك إلا أن أبتسم - رغم مرارة وصحة ما يقول. أتأمل في دقة تعريفه للمشكلة؛ كيفية التفرقة بين العاقل والمجنون، عند أي نقطة يمكن بوضوح أن نحكم على شخص بأنه مريض نفسيا، وما هو تعريف الصحة النفسية بالأساس. من هو العاقل، من هو الطبيعي؟ أسئلة اكتشفت بعد عملي بالخارج أن الإجابة عليها ليست بالخفة ولا

بالسهولة التي يتعامل بها الأطباء هنا مع مرضى الصحة النفسية، فما بالك بالتعامل مع شخص مختلف واستثنائي وملهم بحجم نجيب سرور. يجيبه الصبيّ الذي كنتُه وقتها - والذي لم يتجاوز الثالثة أو الرابعة العشرين من العمر:

- المسألة فيها لبس يا أستاذ نجيب، لكن لا تقلق. سأفعل كل ما في وسعي لننهي هذا الوضع السخيف. لا يمكن لمبدع بحجم نجيب سرور أن يبقى في هذا المكان. المسألة كلها مسألة وقت. لا تقلق.

الحق أقول لكم، كان نجيب سرور متشككاً طوال الوقت، وفي الجميع. طبيعة الفترة القاسية التي عاشتها مصر - بالإضافة لطبيعة ظروفه الشخصية المعقدة ساهمت في دعم هذه الشكوك الدائمة، لكنه كان إذا وثق في شخص ما يسلمه نفسه تماما، مثل طفل صغير يحتاج يدا حانية تحتضنه وتربت عليه.

أحدثه عن مسرحية "ياسين وبهية" وكيف شاهدتها في المسرح وقتها - عام ٦٤ - وكنت لا أزال في كلية الطب؛ شغفي بها وشغفي بالتمثيل منذ شاهدتها وحفظي لمقاطع منها. أردد له ذلك الجزء الذي تحكي فيه بهية - لأمها - عن الحلم الذي رأته، أحكي له ضاحكا كيف حاولت احتراف التمثيل وقتها ومحاولاتي الخائبة في مسرح الجامعة. تفاجئني الدموع التي تملأ عينيه قائلا:

- هو ده رصيد الفنان الحقيقي. بعد سنوات من العمل لا تزال تذكره وتذكر مقاطع كاملة فيه، هذا رغم كل محاولات التجاهل والهجوم والهدم التي تعرضت لها على مر مشواري الطويل.

يحكي لي عن هجوم النقاد عليه وقتها. غيرتهم من نجاحه وغيرة زملائه منه. يكرر أكثر من مرة أنه كان يعرف أن الهزيمة قادمة بلا شك، وأن كل الذي أبصروا ذلك قبلها تم إسكاتهم أو حبسهم، وها هي النتيجة.

أحدثه عن مسرحيته "ميرامار" والتي كنت قد شاهدتها منذ عام تقريبا - قبل ذهابي للصعيد بالضبط - وكيف عبّرت المسرحية - كما عبرت رواية نجيب محفوظ من قبل - عن الحالة المزرية التي نعيشها دون أن يجرؤ أحد عن التعبير عنها. شعرت أنه لم يرتح لذلك التعليق تماما لكنه لا يعلق مكتفيا بهز رأسه، ثم يعود بنا للموضوع الرئيسي:

- طيب، حضرتك بتفكر في ايه للخروج من هذا المأزق الذي نحن فيه؟

أقول له ما انتويته بشأن ذلك. سيكون تحت إشرافي في تلك الفترة، وسأحاول إخراجه من ذلك العنبر الكئيب لمكان أفضل نسبيا. ثم نرى كيف يمكن ترتيب مسألة خروجه من هنا تماما.

يهز رأسه ولا يبدو عليه الاطمئنان تماما، يغمغم بنبرة يائسة:

- وكيف أرجّي من زماني زيادةً، وقد حذف الأصلي حذف الزوائد!

- ابو العلاء المعري أيضا يا أستاذنا؟

- ومن غيره يا دكتور، هو الوحيد الذي كان مدركا لما يجري تدبيره بليل لهذه الأمة من ألف سنة، لكن أحدا لا ينتبه أو يقرأ!

بشكل أو بآخر، ورغم دقة الموقف، كنت مستمتعا بالتجربة بكاملها. وعكس تشاؤمه كنت واثقا تمام الثقة أنه سيخرج من هنا عاجلا أو آجلا، وأن هذه التجربة الثرية ستنتهي للأسف. يقطع أفكاري مباغتا:

- معك علبة سجاير؟!

نضحك، أمنحه علبة السجائر ويستمر بنا الحوار ويُشرق ويغرب. رحم الله ذلك المبدع الذي جاء بالخطأ لهذه البلاد التي لم تعرف قيمته.

* * *

في الثمانينات تذهب الروائية الفرنسية ماري ديبوسي Marie Depussé لتقيم في مصحة لابورد النفسية وتشهد تلك التجربة

الإنسانية عن كثب، وذلك برفقة ومعاونة أحد الزملاء وقتها هناك. تعيش ماري تلك التجربة الإنسانية بكل جوارحها وانفعالاتها، تمضي لأعمق الأعماق وتفتح عدسات مشاعرها لالتقاط الكائن البشري في أدق وأرق لحظاته الوجودية، لتكتب عن كل ذلك كتابها المرهف المعذب *"الله يسكن في التفاصيل" "Dieu gît dans les details"* وهي العبارة التي كان يكررها أحد مرضى اضطراب الفصام العاطفي Schizoaffective - والذي كنت أحد المشرفين عليه وقتها، وكان أستاذًا للفلسفة بجامعة نانت، ولعله أحد أغرب المرضى الذي شاهدتهم في حياتي حتى الآن. حين أقارن هذا بما جرى لـ نجيب سرور في العباسية وقتها أدرك ضخامة الفارق بين دولة متقدمة تعرف قدر المبدع وتحترمه وتتفهم خصوصيته وتوفر له الوضع المناسب للإنتاج والإبداع والإضافة، ودولة تعيسة تحاصر المبدع رقابيا واقتصاديا ومعنويا وتهينه حتى ينهار ثم تلقي به في مصحة الأمراض العقلية دون رعاية ودون فهم، وتقوم بعلاجه - لو أطلقنا على ما حدث له في العباسية علاجا - بالكهرباء والمهدئات الكبرى حتى يتحول لكتلة ذاهلة من اللحم لا تستطيع التفكير ولا الكتابة - وهي مبرر الوجود عند شخص مثل نجيب سرور أصلا - وبعد ذلك يهتفون في سعادة: لقد شُفي، لقد شُفي؛ كفّ عن المشاغبة وها هو صامت ومهذب هناك الآن!

إنها نفس الصفعة التي نزلت على خدي لمجرد أني مارست طفولتي وتحدثت وأنا نازل على السلم مع زميلي، هي ذاتها الصفعة التي

وجهها مجتمع كامل بنظامه بطبائه بغنائه، وبأطبائه، لنجيب سرور على مرّ حياته القصيرة الحزينة...

لكن - في عالمنا العربي المُكبل بالقمع والإرهاب والكبت - من يشعر و من يفهم؟

لا يعنيني - في شهادتي هذه وتدويني لسيرتي مع الرجل ما إذا كانت هناك مؤامرةٌ سياسية مباشرة من المخابرات أو غيرها لإسكات الرجل - على تعدد الشواهد التي ترجح ذلك، فقد كانت هناك منظومة اجتماعية قائمة على إقصاء المبدعين، والتخلص من كل شخص مختلف لحساب سياسة القطيع. لا بد من تدجين المجموع لحساب المستبد - سواء كان هذا المستبد سياسيا أو دينيا أو أي مستبد آخر.

كان لا بد أن يدخل نجيب سرور مصحة الأمراض العقلية، ويتم علاجه بطريقة تجرده من الشيء الوحيد الذي يملكه؛ إبداعه وخياله. لا يعنيني هنا إن كان الأمر خطأ تشخيص، أو عدم تقدير لطبيعة نجيب سرور الاستثنائية كمبدع، أو حتى مؤامرة سياسية.

في بلاد يسبّح فيها الشعب باسم الحاكم الإله، وتتفشى فيها الأمية بدرجة مفزعة، ويتوارى فيها صوت العقل لحساب التخلف والجهل والمحسوبية؛ كان لابد أن يحدث كل ذلك لنجيب سرور!

***

حين أقترحُ على عبدالسلام في اليوم التالي أن يكون نجيب سرور تحت إشرافي يجيب بلهجة بين السخرية والجد:

- ولماذا لا تصير مسئولا عن مادة أربعة بكاملها؟

ذلك القسم، الذي يضم بين جدرانه حالات الطوارئ في المستشفى، أغلبها من حالات الإدمان أو محاولات الانتحار - باختلاف الأسباب أو مرضى الفصام أو غيره في المراحل المتأخرة، والتي تتسم عادة بالعنف والخطورة على نفسها أو على من حولها. حين أتذكر ما كنّا نفعله وقتها في المرضى - متصورين أننا نساعدهم - يقشعر بدني من هول ما كنّا نرتكبه باسم العلاج! كان الطب النفسي في مرحلة مبكرة كما أن الإمكانيات في العباسية كانت متواضعة جدا، جدا. لم يكن يشغل بالي وقتها سوى نجيب سرور وكيفية إنقاذه من تلك الورطة:

- لا، كفاية نجيب سرور فقط! الرجل مبدع كبير ووجوده هنا فضيحة غير مقبولة.

- يا سيدي طيب، مبدع كبير على عيني وراسي. لكنك لم تتابع تطور حالته من البداية. الرجل كان في حالة هياج واضحة وكان التعامل معه مستحيلا ...

- لأنه وجد نفسه في ظرف غير مفهوم ولم يجد فرصة لا ليشرح الموقف ولا ليشرح من هو.

- كل كلامه كان عبارة عن هلاوس مرضية خالصة. تعليقاته وتفاعله مع العلاج والتمريض. ثم تلك الأشياء البذيئة التي كان يكتبها ويشتم فيها الجميع بأقذع الألفاظ.

يتناول من الملف بضعة أوراق ويناولها لي. أقرأ وأجدني رغما عني أبتسم مما أقرأ. (تلك الأوراق التي سأستنقذها وأعيدها لصاحبها، فتصير بعد ذلك أشهر قصيدة هجائية - رغم ألفاظها الفاحشة التي لا أوافق عليها تماما - في الأدب الحديث، وسيتم اختزال نجيب سرور للأسف فيها، وتجاهل مشروعه الشعري والمسرحي الكبير) يستكمل عبدالسلام كلامه:

- يعني يا جلال اعذرني أنا لا أفهم في مسائل الشعر والأدب، لكن يستحيل يكون هذا الكلام شعرا أو أدبا. إنه رجل مريض يشتم كل زملائه. وحتى لو تجاوزنا عن كل شيء، ومع كامل احترامي للفن، ولا أريد أن أناقش ماذا قدم هؤلاء للوطن قبل أو بعد الهزيمة، لا يصح أن يعامل معاملة خاصة لمجرد كونه رجل مشهور أو فنان كما تقول ....

- لن يعامل معاملة خاصة ولا كذا. وكونك ترى أن الفنانين هم المسئولين عن الهزيمة فهذا شيء يخصك وحدك...

يبتسم ويقول في هدوء - مُلطفا الموقف:

- ألا تزال تذهب لسينما سان جيمس في شارع الألفي؟

ولا ينتظر مني إجابة؛ ويكمل قائلا:

- يا جلال، لقد ظللنا نسمع أم كلثوم وعبدالوهاب ونشاهد مباريات الأهلي ونشرب الحشيش حتى استيقظنا على حقيقتنا المؤلمة في خمسة يونية. هذا شعب يعشق تخدير نفسه بنفسه. هل تستطيع أن تقول لي ما الفارق بين الحشيش وفيلم "أبي فوق الشجرة" بما فيه من عُري وهلس، والذي لا حديث للناس غيره هذه الأيام ...

ثم يختم الحوار مناولا إياي البالطو الخاص بي:

- على كل حال، ليس في يدنا شيء واضح نفعله للرجل. ننتظر مرور الاستشاريين ونعرض عليهم المسألة. كما شرحت لك - بقاؤه أو خروجه، وبعيدا عن رأيي مرتبط بتصريحات معقدة نتيجة تعقيد الوضع الحالي. وليكن تحت إشرافك كما تحب..

ثم يبدأ يحدثني عن العمل في المستشفى وتقسيم النبطشيات، ولا ينسى قبل انهماكنا في العمل أن يقول أخيرا:

- وليتك تقنع لصاحبك أن يترك الدكتور إمام في حاله؛ إنه لا يكف عن القول له أنه السيد المسيح الذي جاء لينقذ العالم!

ثم يضحك ضحكته القصيرة المميزة؛ ولا أجد ردا مناسبا، ونبدأ العمل.

* * *

بعد هذه السنوات، حين أفكر في حجم المسؤولية الذي كان مُلقىً على عاتقنا – ونحن لا نزال أطباء حديثي السن وبلا خبرة – في ذلك المكان الهائل، ودون أي مساعدة من أي نوع، أدركُ مدى الفاجعة! كان الأمر أشبه بأن تلقي طفلا صغيرا في المحيط وتطلب منه أن يتعلم السباحة. نحن بلا خبرة و معرفة علمية، ودون إشراف تعليمي حقيقي – اللهم إلا ذلك المرور البائس للاستشاريين كل أربعاء ونادرا ما تتاح لك فرصة لتعلم شيء فيه، مسئول عن مستشفى هائل حوالي ستين فدانا يضم قرابة الألف مريض، وممرضين يتحولون لمراكز قوى – باستخدام مصطلحات تلك الأيام – لقلة عددهم وسيطرتهم على المرضى وعهدة تضم أدوية مخدرة. لا أذكر كيف تعاملنا وقتها مع كل ذلك؟ هل كنا مدركين حجم الكارثة التي كنّا فيها. أتمّ ما يفترض أنه مهمتي في المستشفى – من متابعة للمرضى ومواجهة ملاوعة التمرجية وتفحص مخازن الدواء والإمضاء على العهدة وعمل متابعات للحالات المستقرة وتفويض الأمر لله في الحالات الأخرى وما إلى ذلك، ثم أنطلق إلى صديقي العزيز، أجده كالعادة مع رفيقه الأثير، المريض، دكتور إمام في قسم الطوارئ. أخرج به من القسم، يشير هو للدكتور إمام أن يخرج

معنا لكن الآخر لا يبدو راغبا. نخرج سويا وفي الفناء الواسع أسأله باسما:

- تبدو مهتما بشأن الدكتور إمام يا أستاذ؟

- الدكتور إمام؟ السيد المسيح تقصد...

- كما تريد...

- بل كما تريد الضرورة الفنية؟

- هل تعرف حكايته؟

- هل تعرف أنت حكايته؟

(حين أتذكر تلك الحوارات الآن، والتي كنت أعود لأدونها بإخلاص في مفكرتي أشعر بالحنين لتلك التجربة العظيمة التي أتيح لي في ذلك السن الصغير أن أعيشها!)

- أظن ذلك.

- حدثني إذن عما تعرف، لنطابق الحق بالحقيقة ونرى أينا يكون من الصادقين.

أحدثه عن المثبت في الأوراق لحالة ذلك الأستاذ الجامعي المسكين؛ أستاذ في كلية العلوم بجامعة الإسكندرية يصاب بما يشبه الاكتئاب. ثم تتدهور الحالة شيئا فشيئا - مع ظهور أعراض هلاوس

وضلالات سلبية، ولا تلبث الحالة أن تسوء تماما فيظل في البيت فترات طويلة ويصاب بحالة (فوبيا) هلع من الجميع ويبدأ يتشاجر مع زملائه وطلبته في الجامعة وأسرته في البيت. تستحيل الحياة معه وتحضره الأسرة للعباسية ومنها يتم حجزه في قسم الطوارئ عقب محاولته الانتحار ....

- ماهذه الحكاية المملة الشبيهة بأفلام حسن الصيفي يا دكتور.

يقاطعني نجيب سرور ولا يتركني أتمّ الحكاية ولا التشخيص الطبي المثبت في الأوراق.

- الجميع يتصورون أن أبا العلاء المعري مجرد شاعر قال كلمته ومضى. هراء. أبو العلاء المعري كان مبشرا برسالة كونية يورثها لأنصاره ومريديه في حياته وبعد مماته، رسالة يضرب لإنجازها موعدا مقداره ألف عام، وما أشعاره سوى شفرة سرية للتواصل بين أفراد هؤلاء المريدين الذين يجعل لهم اسم "الكتيبة الخرساء" إنها الكتيبة التي تضم بين أفرادها سيدنا الحسين ودون كيخوتة وهاملت وغيرهم من الواقفين في وجه المرتزقة وفي وجه طواحين الهواء، ومنهم - ولعلك تندهش لذلك - السيد المسيح الذي سيظهر في آخر الزمان ليرفع لواء الحق والعدل.

يصمت قليلا. ثم يقول وكأنه يخاطب نفسه:

- حين دخلت العنبر وجلست جواره وسألته عن اسمه، أجابني: إمام، قلت بيني وبين نفسي. يستحيل ان يكون هذا الاسم بلا معنى...

ثم ينظر لي مستكملا :-

- قد لا يبدو لك منطقيا أن يتبع النبي الشاعر، تظن أن الشاعر أدنى درجة وأنه مهما ارتفع فلن يكون أكثر من تابع مخلص لنبي مرسل.

يخطر على بالي ما قاله عبدالسلام توّا من رأي في الفن والكتّاب، ولا أعلق تاركا نجيب سرور يتدفق بتحليله المدهش:

- هذا لأن الذي رفعوا راية الشعر والفن في آخر الزمان قتلوا قيمتهما من حيث لا يعلمون. السبوبة يا دكتور والأوردرات في استديو مصر واستديو رفلة قتلت قيمة الاسم. أبو العلاء كان يعلم ذلك تمام العلم، فهو في أصل المؤامرة اليهودية الماسونية الضاربة بأذيالها على مر التاريخ بدءا من حركة الزنج أو حركة القرامطة ووصلا لليهود الذين سنجدهم وسطنا عما قريب على مقاهي القاهرة.

يأخذ نفسا عميقا ويستكمل:

- يُفشي أبوالعلاء سر هذه الكتيبة الخرساء في تلك الأبيات الشهيرة قائلا:

يرتجي النّاسُ أن يقوم إمامٌ .. ناطقٌ في الكتيبة الخرساءِ

كذب الظن لا إمامَ سوى العقل مُشيرا في صبحه والمساء.

ويضحك مضيفا:

هل ترى مساحة المسخرة، نحن نتحدث عن إمامة العقل في مصحة العباسية، وأنا محجوز مادة أربعة.

نضحك سويا. أنظر في ساعتي وأجد أن موعد الغداء قد حان.

– تفضل معي. ننطلق للمطعم، نتغدى سويا وتشرح لي باقي حكاية أبي العلاء المعري وعلاقتها بالدكتور إمام..

يظهر عليه شيء من التردد، ولا يلبث أن يجيب:

– لا،لا،لا، بلاش. هذا مكان مخصص للأطباء ولا أريد أن أحرجك...

أبتسم وأمسك بيده وننطلق معا. ياتلك الأيام. رحم الله الشاعر والمسرحي والعبقري نجيب سرور.

* * *

مدونـــــــة رفايــــــع

لماذا أكرر طوال الوقت أن التعامل بمنطق الطب النفسي التقليدي مع شخص مثل نجيب سرور تحديدا، يكاد يكون مستحيلا؟ لأن أيا من القواعد الموجودة في الكتب غير قابلة للتطبيق معه. يمكنك تصنيف بعض ما يقوله على أنه هلاوس لكن وعيه الحاد بها يلغي عنها تلك الصفة. يمكنك تصنيف بعض تصرفاته على أنها ردود فعل لضلالات الهوس لكن توظيفه لها في بُنى مسرحية متهاسكة يلغي عنها تلك الصفة، بل إنك لا تستطيع وضع شخصيته نفسها داخل أحد القوالب التي درسناها للشخصيات سواء عند ألبورت أو ماسلو أو غيرهم، فهو يتأرجح بمنتهى الحدة بين الريفي الخجول - الذي قد يرتبك حين تدعوه للغداء في مطعم الكلية - وبين الفنان الجرئ الذي يرقص ويمارس كل أنشطة الحياة بكل بهجة واستمتاع.

* * *

مطعم الأطباء هو مجرد اسم لغرفة حقيرة تعلو مبنى السموم علاج و الإدمان في طرف المستشفى. ملحق بالغرفة غرفة أضيق في المساحة - هي ما يفترض أنه المطبخ - يحتلها رجل تعيس - هو سماح التمرجي، والذي يشغل بالإضافة لوظيفته كممرض وظيفة طباخ في أوقات الفراغ (وهو ما يمكنه من الحصول على بعض التموين من

الزيت والسمن والسكر يذهب بها لبيته تحت بصر وسمع الجميع، ندخل أنا والأستاذ؛ ينظر لنا سماح بريبة ولكنّه لا يعلق:

- اتفضّل يا دكتُر...

نأخذ مجلسنا، ويبدو واضحا تماما من طريقته في تقديم الطعام انزعاجه من جلوس نجيب سرور معي في المكان. ينظر له نجيب متحديا - وأفكر أنا في رد فعل عبدالسلام حين يعرف بذلك، ولكني نملُّ تماما بالتجربة! يبدو واضحا أن سرور ينتقل بحدة من المزاج الخجول للمزاج الفني الصدامي؛ ينظر للوجبة التي توضع أمامنا - طبق أرز صغير وطبق فاصولياء وشيء يفترض أنه ورك دجاجة، يقول:

- هذه هي جنة الاتحاد الاشتراكي الموعودة؟

ويغني بصوته الأجش: على راس بستان الاشتراكية، فيضحك سماح التمرجي، ولا يلبث أن يشتبك في حوار معه. يسأله عن بلدته ويمازحه ثم يطلق نكتة بذيئة. أشعر بشيء من الحرج، ولكن دون أن يهتز إعجابي به ولا بقدرته على التواصل مع الناس وجاذبية الاستماع إليه. أظن أن في كل فنان عظيم جانبا استعراضيا ونرجسيا لا يمكن أن تتم عملية الخلق الفني بدونه. لعل هذا ما ينقصني؟ أنني طوال الوقت لا أخرج من عباءة الطبيب المهذب الخجول ولا أجيد ذلك التواصل

الجريئ - بما يتطلبه أحيانا من بذاءة - لو اصطلحنا أنها بذاءة - وجرأة في التعبير؟ هل يمكننا أن نتصور فنانا مهذبا خجولا؟ (فنانا من النوع الممتاز بالطبع؟!) على كل حال، وبعيدا عن تأملاتي تلك، يختفي سماح في غرفة مطبخه ويصيح في نجيب سرور بحماسة ضاحكة:

- منوّر والله يا دكتور...

ثم يواصل بحماس:

- ماذا كنّا نقول إذن؟ أنني أقول أن الدكتور إمام هو السيد المسيح؛ وأننا ابناء كتيبة خرساء يتزعمها أبوالعلاء المعري. يظن زميلك - والذي أزعم أنك لا تحبه تماما - انني حين أردد ذلك الكلام الغريب أني أحكم على نفسي بالجنون. حسنا، لنتفق أولا على الفارق بين المجنون والعاقل. إنكم تتصورون أن المريض النفسي هو ذلك الذي يخلط بين الحقيقة والوهم؛ يتوهم أن أصدقاءه يكرهونه، أن هناك مؤامرة ضده، أو - كما تقولون عني مثلا - أتوهم أن المخابرات تطاردني وأنهم يحاولون تدميري. لنتفق أولا على الفرق بين الحقيقة والوهم. الوهم هو فكرة داخل عقل صاحبها، معنى ذلك أنها توجد لديه بالفعل، معنى ذلك أنها ليست وهما بحال من الأحوال ...

- ولكنّ ثمة فارقا مؤكدا بين الواقع والخيال، بين الحقيقة والوهم؟

- صبرك عليّ يا دكتور، لا تكن متعجلا مثل صاحبك. استمع لي بعقل الفنان الموهوب الذي بداخلك - والذي تحاول كبته - لا بعقل الطبيب الذي يجري وفق أعراف المجتمع ...

أبتهج لملاحظته وتقع مني موقع تكريم تطرب له نفسي. أسأله باسما:

- ولكنّك لم تقرأ شيئا من إنتاجي يا أستاذ؟

يقضم قطعة من الرغيف أمامه قائلا:

- ولو، الموهبة مثل الجريمة. يستحيل إخفاؤها. أنت موهوب يا دكتور. فيك لسعة فنانين ظاهرة لأي عين؛ ولولا الجو الفني والأدبي الموبوء الذي نعيشه لكنتَ استطعت الحصول على فرصتك دون شك...

بعد كل هذه السنوات. أراني وأنا أكتب الآن لا أزال أجد الفرحة التي شعرت بها لحظة قال لي ذلك. لحظة اعتراف شخص ما بموهبتي وبأنني أصلح لأكون فنانا؛ يقدم فنّه للجمهور..

- المهم، الوهم هو حقيقة في عقل صاحبه، والحقيقة هي وهم اتفق مجموعة من الناس في لحظة ما على صحته؛ كنا نتصور أننا دولة عظمى سنلقي بإسرائيل في البحر، تبين أن ذلك مجرد وهم. كنا نتصور

أننا سنرقص في بستان جنة الاشتراكية، وها هي الفاصوليا الرديئة أمامنا تبين بوضوح الفارق بين الحقيقة والوهم...

ويأخذ نفسا عميقا - كعادته حين يهم بشيء شرح ما - كأنه يلقيه من على صدره:

- حين أقول أن هناك مؤامرة ضدي من زملائي ومن النقاد، هل يعني ذلك بالضرورة أنهم يلتقون ليلا محاطين بشياطين الجن والإنس يخططون بوضوح لتدمير نجيب سرور وقطع عيشه؛ ألا يكفي وجود مشاعر سلبية أو نظرة حاقدة أو تعليق مسموم ليكون كل توهم في عقل نجيب سرور حقيقة. حين أقول أن هناك مؤامرة من المخابرات لطاردتي، هل يجب أن يكون المقصود هو أن صلاح نصر يجلس مع ضباط مكتبه يخططون لاختطافي وإلقائي هنا، ألا يكفي أن تكون البلد كلها مختطفة وتحت المراقبة حتى يكون شعوري بالاضطهاد حقيقة واقعة لا مرضا يستوجب العلاج بالكهرباء..

ويتهدج صوته بتأثر وهو يقول:

- وحين أصرخ كالمجنون أن زوجتي خانتني - ودعنا الآن مما حدث بالفعل - هل يعني ذلك بالضرورة أنها فتحت رجليها لأي عابر ليدخلها، ألا تكفي نظرة ما ألمحها في عينها تجاه شخص، أو تعليق مفعم

بالرغبة يفلت منها فينخز قلبي شوكة من النار، ليكون خيانة مُكتملة الأركان.

يحل صمت ثقيل. لا أجد تعليقا مناسبا. أتأمل ما يقول - الآن بخبرة السنوات الطويلة - فأدرك كم كان ذلك الرجل قيمة كبيرة ضيعناها، كما يضيع في مصر كل شيء جميل.

ليرحم الله المبدع الخالد نجيب سرور.

***

على باب المطعم أكتشف أنه لم يعد يصلح - إطلاقا - أن يعود لعنبر الطوارئ. يسألني إلى أين سأذهب فأجيبه أنني سأرتاح قليلا في سكن الأطباء.

في لحظة واحدة ننظر لبعضنا البعض ونجد - دون كلام - أننا متفقين على نفس الفكرة.

سيأتي معي ليقيم في سكن الأطباء!

حين أكتب ما جرى الآن متذكرا، أجدني سعيدا - وربما مندهشا قليلا - من جرأتي في ذلك الزمن. كان إخراجه - رحمة الله عليه - من مادة أربعة في حد ذاته ثورة، فما بالك بدعوته ليقيم في الغرفة المخصصة

مدونـــــــة رفايـــــع

للأطباء! كان الأمر بمثابة تحدي لكل ما هو مستقر في مستشفى ذات طابع بطريركي محض (ولعل هذا هو السبب في تأخر تطويرها حتى الآن، بل وربما في استحالة تطويرها!!)

كنت في حقيقة الأمر مستقرا في منزل أسرتي ولم أكن أبيت في ذلك السكن - كلمة سكن هي بمثابة مبالغة لتلك الحجرة البائسة التي كانت مخصصة لنا وقتها - سوى في أيام النوبتجيات الـ ٢٤ ساعة والتي لم تكن تتجاوز بحال مرتين أو ثلاثة في الأسبوع.

أجدني الآن ممسكا بالقلم، أدون ما جرى في ذلك الزمن البعيد، في تلك الفترة العجيبة من حياة مصر، ومن حياتي. في الصيي الذي كنتُه، مقيما لشهر أو يزيد مع رجل استثنائي في كل شيء، كل شيء، موهبته وحضوره وتعليقاته وثقافته وذكائه. أتذكر تلك الحجرة الكالحة التي لم تكن تتجاوز مساحتها عشرين مترا، ولم يكن بها أكثر من سرير ضيق وراديو ترانزستر (أهداه لي والدي الشيخ عبدالمجيد الساعي عقب تخرجي من كلية الطب) وطاولة صغيرة عليها بعض الكتب الطبية (والأدبية أو الفنية بحكم تواجدي في المكان ولم تكن تسلم من تنذر الزملاء وعلى رأسهم عبدالسلام محسن) ثم خزانة صغيرة تضم أدوية المهدئات الكبرى (major tranquilizers) خوفا من متاجرة التمريض بها في السوق السوداء - ربما أكثر من باقي الأدوية المخدرة! أتأمل ما

دونته من حواراتنا في تلك الفترة، والتي تلوح لي الآن كأنها من عالم الأساطير، أو كأنها كانت تتنبأ بما ستكون عليه حياتي فيها بعد، أنني دائما "أوف سايد" بلغة كرة القدم - الساحرة المستديرة - متسللا سابقا لزمني، أو رومانسيا، وراء زمني بكثير.

أكتشف و أنا أنقل من تلك الأوراق القديمة مدى ثراء تلك الفترة، ومدى عذوبة الأحلام التي كنا نحملها على أكتاف ذلك الجيل المعجون بحب مصر.

رحم الله نجيب سرور. رحم الله مصر.

* * *

في أول ليلة له عندي في سكن الأطباء لا يخفي ابتهاجه كالأطفال بخروجه من ذلك العنبر التعيس. يقرأ قليلا. أقرأ له نصا مسرحيا كنت قد كتبته فيمنحني بسخاء بعض التعديلات الفنية - ويشهد له بالجدارة في الظهور إلى النور سواء مطبوعا أو على المسرح. يدور الشاي والدخان بلا انقطاع. يقول لي:

- حدثني عن نفسك يا دكتور...

أحدثه عن كل شيء. وفاة والدتي في الابتدائية. والدي الشيخ الأزهري الذي يتفرغ لرعايتي. شغفي بالفنون في التوجيهية. رأي الشيخ عبدالمجيد السلبي في كل ذلك - بدءا بالقصص والروايات وصولا للتمثيل. دراستي الطب، رغما عني، إرضاءً له. وفاته عقب تخرجي بشهور قليلة.

- الله يرحمه كان معاه حق يا دكتور. يعني تسيب الطب وتدور مع الرقاصات والمومسات في ذلك الوسط الموبوء.

وما يلبث أن يعقب موضحا - وقد تجسدت الدهشة في عيني من سماع ذلك الرأي، - ومنه هو تحديدا:

- هنا نفرق بين شيئين. بين الفن الذي نراه في الكتب أو على الشاشة. وبين الوسط الفني الذي لا يعرف شخص مهذب ومحترم - مثلك - عنه شيئا.

ثم يقول في شجن:

- ماذا تظن أنه جاء بي إلى هنا إذن، يا دكتور...

ويعود لبهجته، مستكملا:

هل تعرف فيلم نرجس. فيلم قديم من بطولة محمد فوزي ونور الهدى. في الأوبريت يقول فوزي لنور الهدى:

- يلا يا نِنّي قومي وغني. اوعي تكوني مكسوفة منّي

فتجيبه نور الهدى: أنا مكسوفة مـ الوسط الفني.

يبدأ يغنيها بصوته الأجش ونضحك سويا. ثم ما يلبث أن يعود مؤكدا:

- وبعيدا عن التمثيل والتشخيص وخلافه. يعني مثلا أنت تقرأ لتوفيق الحكيم وتعجب بفلسفته وعمق عباراته، ماذا لو عرفت انتهازيته وبخله وتلونه مع كل موقف بما يحقق مصالحه الشخصية. تقرأ الثلاثية لنجيب محفوظ ويبهرك أسلوبه وفهمه للشخصيات، فماذا لو عرفت بمكره وعدم وضوحه في كثير من المواقف ليحافظ على سلامته وأمانه الوظيفي - وهذا بخلاف نهمه الجنسي وعلاقاته المتعددة بكل الممثلات - استغلالا لطبيعة عمله كسيناريست ...

يبدو لي أن الكلام قد سلب بهجته وتعليقاته المرحة. أحاول استعادة الحوار لمنطقة ألطف قليلا فأقترح سماع الست - وكان الموعد موعد حفلة الخميس الشهرية. يشعل سيجارة ثانية وهو يقول بغير حماس كبير:

- خلينا نشوف ماذا ستغني تلك العجوز هذه الليلة ...

أسأله متعجبا:

- ألا تحب أم كلثوم يا أستاذ؟

- لا أحب أن يبتذل الفنان نفسه. إنها تجبر نفسها إجبارا على تلك الوصلات الطويلة، وصوتها يبدو واضحا جدا أنه لم يعد يحتمل ذلك المجهود. فضلا عن سخافة كلمات أغانيها الأخيرة ولعب العيال الذي يقوم به ملحنوها الصغار - بليغ حمدي مثلا. والله يا دكتور قلبي وجعني وأنا أسمع - ألف ليلة - أغنيتها الأخيرة. هذه أم كلثوم؟ أين جبروت السنباطي وأين القصائد وأين عنفوان الصوت في ريعانه؟ فعلا. لتجدنهم أحرص الناس على حياة...

أجيبه مبتسما:

- ولكن الآية نزلت في اليهود يا أستاذ نجيب ...

- حين يأذن لي زعيم الكتيبة الخرساء سأشرح لك يا دكتور جلال العلاقة بين أم كلثوم واليهود والصهيونية...ألا بحق، معارفك الدينية تبدو قوية جدا؟

- كما قلت لك؛ والدي شيخ أزهري، رحمه الله.

- رحمه الله. لكنك لم تحدثني عن علاقاتك العاطفية. أليس لك قصة حب هنا أو هنا. ألم تخطف إحدى صاحبات البالطو الأبيض قلبك؟!

ونضحك سويا ثانية. ولكني لا أجد طبيعة الليلة مناسبة لحكي ذلك. اشغل الراديو ونجد أن أم كلثوم ستغني للمرة الأولى "هذه ليلتي" لعبدالوهاب، فيقول معلقا:

- أهلا أهلا. ابن الحرام الرسمي والآكل على كل الموائد. ليلتنا فل يا دكترة

ويقوم ليضع الماء على النار، تمهيدا لدور جديد من الشاي.

***

أراها للمرة الأولى في السنة الرابعة، في محاضرات الرمد. تجلس في أحد الصفوف الخلفية، تمسك برواية ما، أدرك أنها رواية فرنسية، وأتأملها وهي تقلب فيها - بطريقة تدل على قارئة محترفة - انتظارا لدخول الدكتور لطفي باشا السعيد - أستاذ الرمد الأسطوري في زمانه. أتأمل أصابعها النحيلة وهي تقلب الصفحات برقة وعذوبة. اتأمل عنقها الناصع وكتفيها الناعمتين، وأدرك فور أن تستقر عيناي على عينيها - وبمجرد إبعادها - أنني وقعت في الحب.

وقعت في الحب ولا مفر!

نتبادل كلمة أو اثنتين لا تتجاوزان حدود الزمالة. يستحيل الوجود كله مجرد مساحة للتفكير فيها. أحاول فتح باب للحوار؛ هذه رواية "صباح الخير أيها الحزن" لفرانسوا ساجان؛ Bonjour Tristesse، أقولها بالفرنسية فتبتسم وتناولني الكتاب في أدب دون تعليق. هذا سلوك هوانم. أذوب في باطن الموجودات وأعرف ماذا كان الشعراء يقصدون حين يتحدثون عن عذاب العشاق.

ترى اين أنت الآن يا دكتورة آية نوّار ...

كم عاما مرّ على ذلك اللقاء يا دكتورة آية .. يا حبي الأول، ولعله الأخير.

أنا العاشق الخائب. أنا العاشق السيء الحظ.

وأبتسم في حنين بعد كل هذه السنوات متسائلا؛ لماذا ظهرتِ أجمل ظهور إذا كنت ستختفين أبشع اختفاء ...

ترى هل تذكرينني. وماذا يهمّ، إني أتذكر كل شيء، كل شيء؛ وقفتنا القصيرة التي كنت افلح في اختلاسها من وقت لآخر، محاولتي لفت انتباهك، حضوري كافة المحاضرات - لا لشيء إلا أن أراك. ثم

ملاحظتي تلك تقفين معه من وقت لآخر، لحظات الشك ولذعة المرارة، ثم بغتة، دعوة الفرح التي يأتيني بها صديق طفولتي بكل براءة - غير مدرك قسوة الجرح الذي يخترقني لحظتها...

في أي الأغاني كان عبدالوهاب يقول "وكل جرح بساعته .. وكل جرح بمعاد"

ولماذا لا تكون مثل عبدالسلام محسن؟ لماذا؟

***

- لماذا لا تحب عبدالوهاب إذن يا أستاذ؟

- من قال أني لا أحبه؟ بالعكس، تعجبني شخصيته وموسيقاه الشبيهة باللصوص الظرفاء الذين نقرأ عنهم في الروايات الفرنسية. يسرق من هنا ومن هناك. لا تزال حكايته مع رؤوف ذهني ماثلة في البال - وغيره كثيرون - مصّ دمهم وبنى منهم مجده الشخصي. لست غبيا حتى أنفي عنه كل موهبة؛ أدرك جيدا ذكاء ومعرفة عبدالوهاب الموسيقية ودأبه الشديد في العمل وحرصه على الحياة ونهمه لكل ما يتعلق بها، المال والطعام والصحة والنسوان. بل وحتى وسوسته التي اشتهر بها هي أحد صور نهمه للحياة. يا دكتور، أنت تسمع عبدالوهاب

في الإذاعة، ولم تره في الجلسات الخاصة، تعليقاته أو طريقته وهو يأكل الدجاج - أكلته المفضلة - أو يغازل هذه الراقصة أو تلك المطربة ...

ويشرب من الشاي بصوت مسموع تعبيرا ضاحكا عن غضبه، وينفث دخان السيجارة مستكملا:

- يعني، هذه الأغنية التي سمعناها الليلة. بدءا من "يا حبيبي طاب الهوى ما علينا.." يلعب عبدالوهاب لعبته الدائمة، يمزج النغمة الشرقية لزوم الطرب، بالموسيقا راقصة لزوم شعللة جو المسرح (ولا أستبعد أن يكون هذا الرجل الذي يصيح إعجابا في أول المقطوعة الثانية - يا ليلة القدر - من تدبير عبدالوهاب نفسه لإحكام قبضته على المستمعين ونقل جو البهجة بالإيحاء، لكن ما علينا) ثم الجيتار الكهربائي لزوم الشو الإعلامي واستثارة النقاد للكتابة، رغم أنه لا ضرورة فنية له على الإطلاق. قارن كل هذا الضجيج بألحان السنباطي التي لا تلجأ لهذا الأساليب الرخيصة؛ تلك الموسيقا النابعة من القلب ومن الوجدان، وليست مجرد حلى ذهنية يعرف صاحبها كيف يستثمرها ليحقق بها نجاحا تجاريا أو إعلاميا ....

أتأمل وجهة نظره وأراها جديرة بالاحترام - رغم استمتاعي بالعنوة في آخر الأمر. أسأله:

- ولكن صوت أم كلثوم لا يبدو هنا عجوزا كما قلت يا أستاذ، ليس مثل ألف ليلة مثلا؟

- الله يفتح عليك يا دكتور. طبعا. لأن عبدالوهاب صنايعي. المزيكا عنده قادمة من هنا (ويشير لرأسه) كل شيء مصنوع بدقة وبحرفية؛ لا ننكر ذلك. وهو يكتب لحنا قادرا على النجاح ومضبوطا على إمكانيات أم كلثوم في هذا السن. لكن الحرفة شيء والفن الصادق شيء آخر، أنا لا أنكر على عبدالوهاب أنه صنايعي، لكن فنان، اعذرني...

وهكذا، يستمر الحديث، ويستمر يتدفق بالشرح والتحليل وإلقاء الملاحظات الثاقبة - على غرابتها.

آه من يعيد تلك الليال الطويلة بيننا في ليل مستشفى العباسية، آه من يعيد تلك الليال البعيدة، ومن يعيد لي الشباب الراحل؟

* * *

ثم موقف آخر لا ينسى...

أتم جولتي الصباحية في العنابر. أحضر المرور وأنتهي من بعض التفاصيل الأخرى ثم أنطلق ذاهبا لاصطحاب الأستاذ للغداء في مطعم

الأطباء قبل أن ننطلق للسكن - وأغادره للبيت كعادتي حين لا يكون عندي نوبتجية ليلية.

أبصر شخصا مهيبا قادما عبر ممر القسم - نحو غرفة الطبيب المقيم، ولا أحتاج وقتا حتى أتعرف عليه - وهو ملء السمع والبصر. ابتسم له محييا، وأمدُّ يدي مصافحا:

- أهلا وسهلا. أهلا وسهلا، ازيّ حضرتك يا أستاذ نجيب.

نجيب محفوظ لدينا في مستشفى العباسية! هل أنا بحاجة لذكاء خارق لأعرف لماذا جاء؟ أو بالأدق، جاء ليزور من؟

***

حين أتذكر تلك الزيارة الآن بعد كل هذه السنوات، وأرى مؤلفات نجيب محفوظ وهي تعلو وتعلو ليصير القمة الأكبر في أدبنا العربي المعاصر - حتى أن اسمه دائما يأتي في قائمة الترشيحات لجائزة نوبل الشهيرة (والتي أشك أن يمنحوها له، ليس تقليلا من شأنه ولكن لأنهم لن يمنحوها لعربيّ مهما كان ومهما علا كعبه في الأدب). حين أتذكر تلك الزيارة وأتذكر رد فعل نجيب سرور عليها وتعليقه بعد ذلك أجدني متحيرا بين أمرين. بين محفوظ الذي يواصل الإنتاج بكفاءة واقتدار - أصدر من شهور قلائل رواية ضخمة بعنوان ليالي ألف ليلة

غاية في الإبداع والعظمة، وبين نجيب سرور الذي احترق في سماء الإبداع والوطن بسرعة وعنف مثل شهاب ساطع. أقارن بين طبيعة الحياة المختلفة - بل والمتناقضة - للشخصين. أتذكر ما يعرف في الأدب الفرنسي بالأديب الثعلب والأديب الذئب. محفوظ ثعلب بامتياز، لكن ثعلبيته هذه مكنته من مواصلة الإنتاج والكتابة بخلاف الأديب الذئب، الصدامي الصريح الحاد. وقتها، قال سرور إن محفوظ لم يأت ليزوره ولكن ليدون ما سيشاهده في أرشيفه الشخصي تمهيدا للكتابة عنه بعد ذلك! توقعت أن أقرأ لـ محفوظ نصا عن سرور، في رواية المرايا مثلا - لكنه لم يفعل، وربما يكون قد أفاد منه في شخصية ما أخرى في إحدى رواياته - رغم أني قرأت كل إنتاجه تقريبا. الأصل في طبيب النفس ألا يتحيز وأن يعامل وجهات النظر جميعها بحياد، لكني أجدني - بحكم العاطفة والعشرة - متحيزا لنجيب سرور وصدقه وسخونته ووضوحه الصارم في التعبير عن مواقفه حتى لو كلفته تلك المواقف ما كلفته، وأجدني كذلك معجبا بنجيب محفوظ وبدأبه وإخلاصه لفنه، حتى وإن كانت نظرتي له الآن مشوبة بذلك الرأي الـ "سروري" فيه.

أذكر أني تناقشت مع محفوظ وقتها في عدة أشياء - ووجدت معارفه المتعلقة بالطب النفسي مدهشة جدا. سألني بالتفصيل عن حالة سرور وبدا مخلصا في الرغبة في الاطمئنان على صديقه. تحادثنا في رواياته

الجديدة وفي الموقف السياسي، ثم عاتبته بشأن ما كتبه في رواية الشحاذ حين قال الطبيب لـ عمر الحمزاوي - شخصية الرواية الرئيسية: لا طب نفسي ولا دياولو. ضحك ضحكته العالية الشهيرة قائلا:

- حقك عليّ يا دكتور. الطب النفسي على عيني وراسي. لكن الكلام هنا للشخصية وليس لي، فلا تعاتبني.

ثم استأذنني في إمكانية رؤية نجيب سرور. أكدت له أنه بخير وأنه يقيم معي في سكن الأطباء تمهيدا للعثور على طريقة لخروجه. نتوجه معا لرؤيته. نعبر الفناء الشاسع الأجرد وحين يلتقيان، ينظر له سرور طويلا ولا يعلق. أشعر بحرج مكتوم فأستأذن، حريصا أن يكون موقعي منهما غير بعيد، فأسمع تلك المحادثة، وأدونها، وأحفظها في أوراق تستقر معي كل هذه السنوات لأنقل منها الآن.

كم يبدو دبيب الزمن مسموعا بوضوح في هذه اللحظات.

***

يقطع محفوظ الصمت، مبادرا:

- ازيك يا نجيب؟

- ازيك انت يا أستاذ. استقريت على **التنازل**؟

يجيب محفوظ مبتسما:

- أي تناول؟

- التناول الذي ستقدم به شخصيتي. ألم تأتِ إلى هنا بغرض جمع المعلومات وأرشفتها - أيها الموظف المخلص - لإنهاء الشكل الذي ستتناول به شخصيتي عندما تقدمني في أحد رواياتك.

- ربما. ألم تقدم أنت نفسك تناولا مسرحيا عظيما لروايتي "ميرامار"؟

- وكتبت عنك قبلها كتابا كاملا، فكان رد الجميل خيانة سيادتك..

- أعوذ بالله.

- هل نمتَ مع مشيرة؟

- هل يفيدك جوابي لو أجبتُ.

- هل رأيت كيف كانت تنظر لك حين ذلك اليوم، في المسرح، حين جئت لرؤية العرض؟

- لماذا تصر على الاستسلام للهزيمة بهذا الشكل؟

- على كل حال، لا فرق، وكما يقول دونالد فينكل "لا تصدق هذا الرجل، إنه منظم" هل تعرف دونالد فينكل؟

- ولكنك تصدقني يا نجيب...

- قلت لك، لم يعد هناك فرق. سواء كنت ممن ناموا معها أم لا. البلد كلها، وليس مشيرة فقط (...) في خمسة يونية، بل ومن قبلها. لا فرق يا عزيزي. المهم، ألا تزال تنتج بحماسك ودأبك المعهود؟

- متى ستعود أنت لحماسك ودأبك المعهود؟

للحظة، سيطر عليّ شعورٌ وقتها وأنا أستمع إليهما أن ذلك الحوار مكتوبٌ سلفا، وأنهما لا يفعلان شيئا سوى استعادته شفويا بعد أن استظهراه معا. كانت حالة التناغم بينهما في الكلام غريبة، كأنهما لم يفترقا سوى بالأمس. ينتقلان بخفة بين السياسة والأدب والحديث الشخصي فلا ينقطع الحوار لحظة، كأنه محاورة في مسرح مُعد خصيصا لهذين المبدعين العظيمين.

لا يطول حديثهما؛ أتذكر بوضوح، يقدم سرور تحليلا سياسيا مدهشا للوضع فيقول عن عبدالناصر:

- مغفل، وسيدسون له من سيقتله غفلة عما قريب. والأدهى أنهم سيأتون بعده بمن سيجعلنا نترحم عليه.

أليس هذا هو ما حدث بالضبط بعد ذلك، بل ويقول أيضا - تذكر أننا كنا عام ٦٩:

- ستأخذ المؤامرة شكلا آخر، اليهود والماسون لن يتركونا في حالنا، ربما نفوز في جولة أو أخرى لكن ابصق على ذقني لو لم نجدهم جالسين هنا بيننا عما قريب.

ما هذه البصيرة المدهشة والموجعة، إنه يصف بالضبط كامب ديفيد وما سيحدث بعدها. لا يتكلم محفوظ أغلب الوقت، يستمع بإنصات. يثير سرور موضوع أبو العلاء المعري ويشرح وجهة نظره المتعلقة بالكتيبة الخرساء، هل يبدو على محفوظ شيء من الاستخفاف، لا أدري، لكنه يقول:

- ولكن أبا العلاء اعتزل الدنيا وتفرغ لفنه. أبو العلاء لم يصطدم لا بالسلطة ولا بالناس؛ ترك آراءه حبيسة شعره. كان فنّه في المنزلة الأولى دائما قبل كل شيء وبعد كل شيء. فمتى تعود أنت للمسرح - الفن الذي خلقت من أجله؟

ونفاجأ برد فعل الراحل العظيم. ينتفض ويغضب ويبدأ في الزعيق بصوت مرتفع. أهرعُ إليه - على إثر صوته العالي، فأجد محفوظ واقفا، ثابتا وإن كان يبدو عليه بعض الحرج. يشير بيده علامة السلام ويصافحني، وهو يردد:

- بركة انك بخير يا نجيب. شدة وتزول.

ثم ينصرف في هدوء مخلفا وراءه ذكرى ماثلة، وعلامات استفهام بلا نهاية!

***

لا يبدو على الأستاذ رغبة في الكلام عن تلك الزيارة. لا يعلق إطلاقا. يتجاهلها كأنها لم تكن. أحترم ذلك منه فلا أسأل. أكتفي بما سمعته وما دونته. أحترم كذلك رغبته في العودة لمزاجه المبتهج - وما أطيبه - رحمه الله حين يكون مبتهجا..

يستمر الحال على ذلك عدة أيام. يبدأ يطمئن لإقامته في سكن الأطباء ويعود ليعمل على ذلك النص المُشكل الذي سيشتهر لاحقا كأقسى وأشد قصيدة هجاء سياسي. تفزعني الألفاظ الواردة في تلك القصيدة، فيجيبني ضاحكا:

- يا دكتور؛ ماعادش فيها خشا ولاعادش فيها كسوف...

في أول مرور للاستشاريين بالحالات أستطيع شرح المسألة للدكتور صبري الحفناوي - وهو رحمه الله أحد آباء الطب النفسي في مصر وآثاره فيه غير منكورة - فيتعاطف معه ويعد بالمساعدة في التأشير

بخروجه. أنقل ذلك له بدوري مستبشرا فلا يبدو فرحا بقدر ما يبدو متشككا. لا يجيب، ولكنه يباغتني بشيء آخر لا أتصوره:

- عارف ألف ليلة وليلة يا عم جلال...

- طبعا يا أستاذ.

- لا، انت تعرف ألف ليلة وليلة من الكتب، أنا سأعرفك على ألف ليلة وليلة في الحياة..

ويخبرني بما ينتويه، وما يريدني أن أساعده في فعله.

ولا أدري كيف طاوعتُه في ذلك وقتها.

***

على باب المستشفى، واقفين أنا وهو. المساء يوشك أن يحل والجو خريفي مائل للبرودة في ذلك التوقيت. لا أصدق أننا خرجنا، و يشعر هو بمخاوفي فيقول ضاحكا، ومُطمئنا:

- لا تقلق يا دكتور. لن أهرب. لو كان في نيتي الهرب لكنت سافرت على الآخرة من زمان؛ وليس هناك أرخص من الأسبرين.

- العفو يا أستاذ نجيب. لكن أنت تعرف ...

– يا سيدي لا تخف، كما يقولون عندنا في البلد، هي ليلة وفراقها صبح. ولا تنس كذلك أني سأجعلك تشهد ليلة من ليالي ألف ليلة. سترى جانبا من مصر لم تعرفه من قبل.

أرتعد من البرد ومن التجربة المجهولة التي لا علم لي بها. نسير قليلا ثم نستقل تاكسي يهتف به نجيب سرور:

– الزمالك.

نركب، ولا يتوقف – رحمه الله – عن ممازحة السائق والحوار معه طوال الطريق. الذين عرفوا نجيب سرور يدركون مقدرته العجيبة على التواصل مع الناس العاديين (رغم كراهيتي هذا التعبير المتعالي) وربما يفسر ذلك نجاح مسرحياته الساحق طوال الوقت! تنزل من التاكسي وندخل عمارة قديمة هادئة من طابقين – ومن الواضح أنها مسكن لأسرة واحدة. يقول سرور:

– اتفضل يا دكتور. بيتك ومطرحك.

ندخل، وتستوقفني اللافتة المكتوبة على باب الشقة ...

"زين العشماوي"

- نعم؟ يعني انت هربان من مستشفى العباسية دلوقت؟

يضحك نجيب سرور، مطلقا صوتا معينا وسبة بذيئة قائلا:

- يا سيدي لا تخف. الدكتور بتاعي معايا شخصيا. احنا بس جبينا نسلم على الناس الحلوة.

وتبدأ الناس الحلوة في التقاطر على المكان. في أقل من ساعة أجدني مع منير مراد ومحسنة توفيق وكرم مطاوع وسهير المرشدي و سميرة أحمد وشريفة فاضل - وكانت لا تزال في أول طريقها بعد. بعد قليل تأتي ميرفت أمين وحسين كمال - ثم أعرف أنه كان يفترض أن يأتي عبدالحليم حافظ لكن لم يتمكن من الحضور!

وبعد قليل، تأتي السندريلا، سعاد حسني (وخطيبها) علي بدرخان!

أشعرُ أني في حلم. أشعرُ أني أتمشى فوق سطح القمر. أشعر أني في المكان المناسب. أشعر أني لا أريد أن أستيقظ أبدا.

تبدأ البهجة تتسلل كالخدر في جسدي، فيما نجيب سرور ينظر لي من وقت لآخر بابتسامة أبوية سائلا:

- مبسوط يا عم جلال؟

- نعم؟ يعني انت هربان من مستشفى العباسية دلوقت؟

يضحك نجيب سرور، مطلقا صوتا معينا وسبة بذيئة قائلا:

- يا سيدي لا تخف. الدكتور بتاعي معايا شخصيا. احنا بس جبينا نسلم على الناس الحلوة.

وتبدأ الناس الحلوة في التقاطر على المكان. في أقل من ساعة أجدني مع منير مراد ومحسنة توفيق وكرم مطاوع وسهير المرشدي و سميرة أحمد وشريفة فاضل - وكانت لا تزال في أول طريقها بعد. بعد قليل تأتي ميرفت أمين وحسين كمال - ثم أعرف أنه كان يفترض أن يأتي عبدالحليم حافظ لكن لم يتمكن من الحضور!

وبعد قليل، تأتي السندريلا، سعاد حسني (وخطيبها) علي بدرخان!

أشعرُ أني في حلم. أشعرُ أني أتمشى فوق سطح القمر. أشعر أني في المكان المناسب. أشعر أني لا أريد أن أستيقظ أبدا.

تبدأ البهجة تتسلل كالخدر في جسدي، فيما نجيب سرور ينظر لي من وقت لآخر بابتسامة أبوية سائلا:

- مبسوط يا عم جلال؟

ولا أجد ردا أو تعليقا.

كانت تلك الفترة الذهبية فنيا في تاريخ مصر على كافة المستويات؛ حين تقارنها بما يحدث الآن لا يمكنك إلا الشعور بالتعاسة لما آل إليه حال الفن في المحروسة! كان من الواضح قوة وعمق العلاقة بين أغلب الحاضرين، وكذلك تحررهم النسبي - والذي كان صادما لشاب مثلي في ذلك الوقت. يغني منير مراد على العود جزءا من "قاضي البلاج" فأكتشف عبقرية هذا الرجل الموسيقية، ويقفز لذهني من وقت لآخر تعليق عبدالسلام محسن على فيلم "أبي فوق الشجرة" تنتابني ذات الحيرة التي لم تفارقني. أتأرجح بين رغبتي في الفن وبين النشأة المحافظة التي لا أستطيع تجاوزها. بعد قليل تأتي المطربة شريفة فاضل (وكانت في أول مشوارها الفنّي) وتجلس جواري ضاحكة - ويبدو أنها كانت قد ثملت قليلا، تطوق عنقي بذراعيها:

- مكسوفة ليه يا بيضا؟

فتضج الضحكات من حولي، ويقول حسين كمال:

- تخيلي. لسة فيه رجالة بتتكسف!

فيعلق نجيب سرور بشكل صارم لا يخلو من مرح:

- بالراحة على الراجل يا ستّي. ده دكتور محترم مالوش في الهلس بتاعكم ده.

تضج الضحكات ثانية وأسمع غمغمة اعتذار هنا أو هناك. لا أشعر بارتياح تام، وتبدأ بهجة الوجود في المكان تخبو قليلا. أتذكر رأي الشيخ عبدالمجيد السلبي حين كان يعرف بذهابي للمسرح أو السينما. أتذكر نبرته وهو يردد وقتها "والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون" يلوح في خاطري سيد قطب الذي شنقه النظام قبل شهور - وقيل وقتها أن النكسة كانت انتقام السماء للشهيد الكريم. تؤذيني رائحة الخمر - وكانت تلك أول مرة أرى فيها "بار" على الحقيقة - ولم أكن قد رأيته سوى في أفلام حسن يوسف وغيرها من أفلام تلك الفترة والتي لم أكن أحبها بطبيعة الحال لابتذالها وتفاهتها، وأطل على ذلك كله الآن فأشعر بالحنين لتلك الأسئلة التي كانت تسيطر عليّ في ذلك الزمن.

لا تلبث أن تجلس جواري سعاد حسني. أفكر وأنا أنظر لها من وقت لآخر - كم شابا في مصر في هذه اللحظة مستعد أن يدفع عمره مقابل هذه الجلسة. تبدو حزينة تماما على الحقيقة. لا تشرب. تثني ركبتيها وتجلس على الأرض حافية دون حذاء وتبدو غارقة تماما في عالم يخصها وحدها، ثم تباغتني قائلة:

- هو انت دكتور نفساني بصحيح؟

أهز رأسي ولا أجد جرأة على الإجابة، فتسأل:

- طيب. الاكتئاب له علاج فعلا زي ما بيقولوا؟

وتبدو وكأنها تنتظر مني إجابة فعلا. نتحادث قليلا. فتقترب مني وتبدأ تحكي. من يعيد هذه اللحظة الآن. سعاد تحكي للصبي الذي كنتُه، في بساطة واطمئنان، تحكي وكأنها تلقي عنها حملا ثقيلا. لعلها اطمأنت لملامحي الطيبة، ولعلها كانت بحاجة للحكي لا أكثر. لا أعرف إن كان يصح أخلاقيا - الآن - كتابة ما دار بيننا في تلك الجلسة، لكن المفارقة في أن تكون رمز البهجة والجمال عند كل الشباب المصري وقتها (وربما حتى الآن) على هذا القدر من التعاسة، وتعاني من هذه المشاكل فيما يخص علاقاتها الخاصة، كان أمرا مثيرا للأسى!

تحين مني التفاتة نحوه، فأدرك أنه أفرط في الشراب، ولا يتركني هو لتخميناتي. يخرج ورقة من جيبه ويصيح في الجالسين: سمع هس...

ويبدأ يقرأ.

ونستمع لذلك النص، بين الضحك وبين مرارة الأسى.

* * *

لو كنت قد سمعت ذلك الشريط الكاسيت المتداول الآن لنجيب سرور وهو يقرأ "أميات" فها أنت ذا قد عرفت ملابسات وحكاية تلك الجلسة. ولو لم تكن سمعته - فبالله عليك - تذكر أن الرجل أهم وأكبر بكثير من تلك القصيدة المفردة الغريبة.

رحم الله الجميع.

***

كما توقعت، في الصباح يتلقاني عبدالسلام بوجه متجهم ويقول بوضوح:

- ما جرى بالأمس لا يصح أن يتكرر ثانية.

أحاول شرح الموقف لكنه صارم تماما. أدرك أن الحوار بيننا سيكون حوار "طُرشان" يتحدثان لغة مختلفة. ألتزم الصمت. ينصرف قائلا بفتور:

- لا تنس مراجعة حالات العلاج بأجر، ثم إعداد حالة لتقديمها في المرور. بالمناسبة، هناك شخص ينتظرك في غرفة النواب.

لا أسأله عن هوية الشخص. أتحرك مباشرة، وحين أدخل الغرفة فيقف لي مرحبا لا أحتاج أن أسأله كذلك عن هويته.

التشابه بينهما - في الشكل والحركة وطريقة الوقوف والتوتر الظاهر - أكبر من أي سؤال.

أبتسمُ مرحبا.

- أستاذ محمد سرور؟ أهلا وسهلا يا افندم.

وهكذا، أرى ذلك الرجل الذي طالما حدثني عنه صديقي - الراحل العظيم. أستمعُ إليه وهو يحدثني عن مشكلة احتجاز ابنه هنا وسعيه للوصول لطريقة لإخراجه، ولا أكف عن تخيل تلك الطفولة العجيبة، الملهمة، وهذا الرجل الذي يجبر ابنه يوميا على حفظ مقاطع طويلة من الشعر والقراءة في كافة المجالات حتى يصبح أديبا عظيما!

يحدثني عن ذلك الضابط في الجيش، والذي ثمة قرابة بعيدة بينهم وبينه. أحدثه عن الدكتور صبري الخفناوي وتفهمه لموقف الأستاذ نجيب ووعده بالمساعدة لخروجه. يدور بيننا الحوار و أشعر بالأسى أن هذه التجربة العظيمة توشك على الانتهاء.

والله صعبة فرقة الأحباب!

***

اليوم الأخير. يحضر والده وأخوه. الأخ صامت والأب لا يكف عن السؤال عن كافة التفاصيل. يحكي لي عن الخطابات الغريبة التي كان نجيب يبعث بها من روسيا ومواقف أخرى. أحاول طمأنته لكنه يبدو متوترا تماما - حتى قبل لحظة الخروج تلك. اتأمل التشابه العجيب بينهما، أتذكر والدي الراحل، أفكر في نفسية الأب الذي يظل أبا مهما تقدم العمر بابنه - الصغير!

عند سكن الأطباء يكون الأستاذ قد أعد أشياءه، ارتدى ملابس جديدة أتى به والده، وفي يده ملف يحوي أوراقه وما كتبه في إقامته لدينا. يأخذ منه أخوه أشياءه، فيما يمسكه والده من يده. تلوح في عينيه نظرة امتنان، وأسى!

- متشكرين والله يا دكتور.

- على ايه؟ الشكر ينبغي لك أنت يا أستاذ.

ويخاطبني والده قائلا:

- لا والله شكرا جزيلا، انت تعبت معنا جامد. شاكرين لك فضلك.

- فضل ايه بس، ده نجيب سرور يا حاج. ده حقه علينا، على مصر كلها.

وأجد دمعة تترقرق بين عينيه. يطبطب أبوه على كتفه ولا يعلق. فيما يفاجئني نجيب سرور سائلا:

- يعني خلاص يا دكتور، لن أتعب ثانية؟

- أنت لم تتعب أولا لتتعب ثانيا. وجودك هنا كان غلطة وها نحن نصلحها.

- ولن أدخل مصحة نفسية ثانية؟

- ولن تدخل مصحة نفسية ثانية.

يصمت قليلا، ثم يسأل:

- ولن أشرب مجددا؟!

وأجيبه أنه لن يشرب مجددا. أن خروجه من العباسية يعني دخوله الحياة ثانية بسلام وباطمئنان، وأننا ننتظر منه عودة حقيقية، وأنني أنتظر منه دعوة خاصة، في أقرب فرصة، لمسرحيته الجديدة!

* * *

أحدق فيما كتبت؛ استمع لدبيب الزمن. أترحم على الموتى وعلى الأحياء.

فيا أيتها الأوراق التي ضمنتها شهادتي عن الراحل العصير، كوني على قدر هذه المهمة المقدسة.

إبيلوج

٢٠١٠ – ∞

طلال فيصل

في قطار العودة من الإسكندرية. أتأمل جهاز الإم بي ثري الذي سجلت عليه الحوار مع د. كمال الفوال. من آن لآخر أعيد تشغيله لأتأكد أنه تسجيله قد تم بنجاح، أن خطأ ما لم يحدث. يسيطر علي هاجس ملح أن الحوار سيُمحى، أو أن النص المسرحي العجيب الذي أعطاني إياه الدكتور كمال سيضيع، سيُسرق، سيحدث له أي شيء وسأستيقظ صباحا ولن أجده؛ لن أجده، ولن أجد الملفين اللذين أخذتهما من الدكتور جلال الساعي. ربنا يسترا

أطمئنُ نفسي قليلا، أتأملُ القطار وهو يتحرك على مهل متجها نحو القاهرة. يتردد في بالي بيت أبي العلاء المعري:

وكيف أرجي من زماني زيادة ... وقد حذف الأصلي حذف الزوائد

أبتسمُ. هاأنذا صرت خبيرا في شعر المعري. مجرد الاقتراب من عالم نجيب سرور، وقراءة تلك المذكرات تكفلت بإحياء ذلك الشاعر الضرير، وذكراه العجيبة. أذكرُ نفسي بضرورة شراء "سقط الزند" وذلك الكتاب الذي كتبه عنه طه حسين. لا أتذكر اسمه بالضبط، ولكني سأجده على أي حال. أعيد التأكد من وجود الحوار سليما في الإم بي ثري، ثم أعيد تأمل الملفين. الأوراق الخاصة بنجيب سرور في العباسية، والتي احتفظ بها ورتّبها جلال الساعي، ثم مذكرات جلال نفسه في تلك الفترة. أتذكر أسلوبه في الكلام وطريقته في الكتابة. أتذكر شكل عيادته في المنيل. أبتسمُ بيني وبين نفسي.

يمر بائع الجرائد فأشتري جريدتنا الموقرة؛ تلك العادة المرذولة التي لا أعرف كيف أتخلص منها. أتصفحها سريعا ويقع نظري - كعادتنا نحن الصحفيين - على اسم المحرر أو الكاتب قبل قراءة الموضوع، ثم أجد أن الملف الذي أعددناه عن نجيب سرور قد نشر. لا أشعر بارتياح كامل، أقرؤه على مضض، ثم أكتشف وأنا أقرؤه أنه ليس سيئا للغاية كما كنت أتصور. ليس سيئا أبدا! المقدمة لطيفة، المواضيع متنوعة، رسم الصفحة لا بأس به. ويا سيدي، حتى لو لم يكن بالمستوى الذي أمّناه، أليس ذلك أفضل من أن تمر بنا ذكرى الرجل فنتجاهلها كما كان يحدث في كل عام؟!

يسيطر علي شعور لذيذ بالإنهاك. أدرك أن مرحلة السعي وراء نجيب سرور انتهت، البحث انتهى، وليس أمامي سوى أن أعرف ماذا سأفعل بتلك المادة التي تجمعت بين يديّ. يخطر في بالي على نحو متناثر عبارات ممن قابلتهم أو سجّلت معهم. أدركُ على نحو مؤلم انعدام الأمل في العثور على يقين. أقارن بين الشهادات المختلفة، بين الرأي والرأي. أشعر بالحيرة، ولكني أشعر معها أيضا، بالارتياح؛ لقد قطعت شوطا لا بأس به، وأنني على طريق إنجاز شيء عظيم.

تأخذ حركة القطار في التسارع، ويخطر في بالي أنني لم أفكر أبداً في حكايتي مع نرمين من وجهة نظرها. كيف ستحكي قصة زواجنا وانفصالنا؟ أحاول تخيل ذلك، أحاول ترتيب المشاهد وفقا لزاوية إبصارها هي، ثم يخطر في بالي أن أكلمها. لا أتذكر بالضبط متى كانت آخر مرة اتصلت بها فيها. هل ما زال رقمها معي، هل لا تزال تحتفظ برقمها القديم؟

أقلّب في الموبايل، أتأمل ذلك الرقم القديم، ثم أطلق بصري من نافذة القطار المُسرع، تتلاحق المشاهد أمام عيني وفي ذاكرتي، ويستقر في خاطري أنّ أفضل طريقة لكتابة هذا الكتاب، هي أن يكون رواية!

ويترددُ في بالي، بقوة، بيت المعري:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى ... إني أخاف عليكمو أن تلتقوا

الكتيبة الخرساء

أما نحنُ فنقول أننا كنا شُهودا على ما جرى، شهودا على الحاضرين وعلى الغائبين، وقد ضُرب بيننا وبينهم حجاب، فلا نقول ولا نتكلم إلا بإذن سيّدنا، زعيمنا، الضريرِ الذي يرى ما لا نرى، ويعرفُ ما لانعرفُ؛ وهو الذي كان مُشترَطه علينا من أول يومٍ أنه لا يُسأل، فإن سُئل تعيّن ألا يُجيب، فإن أجاب ففرضٌ على السامع ألا يسمعَ منهُ، فإن خالف باستماعه ففريضةٌ ألا يكتب ما يقول، فإن كتبَه فواجبٌ ألا ينظر فيه، فإن نظر فيه فقد خبَط خبط عشواء.

وأمّا نحن، فنقول أننا تكفلنا بتدوين ما جرى، شهودا للحق وإجراء للأمر النافذ سعيا إلى الإرساء، وأن الأمر لم يكن يخلو من لحظات حَزَنٍ تمس شغاف القلب، فلا يمنعه من أن يذوي إلا ثقتنا في رحمة مُقدّر المقادير، وفي معرفة شيخنا الذي نسعى بأمره ورُؤياه، منها؛

لحظةَ أن رفع صاحبنا – رديف الشيخ وقرة عينه – يده ليضرب رجلا عُرِف في زمنه بوزير الثقافة، ولحظة أن ألقي به عنبر المنفردين في المكان الذي سُمّي في زمنه بمشفى العباسية، وأمّا ما يستقر في القلب، ولا يفنيه إفناء الزمان، فتلك اللحظة التي كان فيها على سرير أخيه، والروح تهمّ بالعودة لبارئها، هناك أُذن لنا فخاطبناه، واقرأناه من شيخنا ومن أصحابنا السلام، وأملينا عليه بين بهجة اللقيا وغلبة الدمع ما يصح أن يكتبه على شاهدِ قبرِه.

وأما نحنُ، فيستدعينا شيخنا ويسأل عن أمر ذلك الصبيّ، وأمر الكتاب الذي يعدّه عن صاحبنا وعن سيرته. يسأل سؤال المُتبثت ونُجيب إجابة المُفصّل؛ وإنّا نعرف مقدار صاحبنا ذاك عند شيخنا، ومقدار سيرته في نفسه، ويتكلمُ، كما تكلم من قبل، لنُشيرَ على صاحبه بما يصح أن يُكتب على شاهد قبره، ويقول لنا، وأمرُهُ نافذٌ:

"أشيروا عليه أن يكتبها رواية ...

ويتبسمُ، ويجيبُ قبلَ أن نسأل:

... ذاك فنّ يظهر في زمانهم، يبدأ من الحقيقة وينتهي إلى التوهّم، ويبدأ من التوهّم وينتهي إلى الحقيقة. لا تكون الذواتُ فيه ذواتها، ولا تكون الذواتُ فيه إلا ذواتها، تقرؤه فتبصر فيه نفسك وإن خالفك

الاسم، وتقرؤه فتبصر فيه غير نفسك وإن وافقك الاسم، أهلُه، من أنصف منهم، هم أهلنا، أهل الكتيبة الخرساء، لهم منّا الثناء المسكيّ، والسلام الزكيّ، يبقيان ما رَمّا العلمُ، وما أورقَ السّلَمُ، إن شاء الله"

ثم يضيف، وبذا ينقضي الأمر:

"وأشيروا عليه ان يُصدرها بقولنا في ذاك الزمان القديم؛

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى ... إني أخاف عليكمو أن تلتقوا"

وأمّا الحكايةُ، ففيها ذلك، وفيها غيرُ ذلك، ولكن ليس لنا أمام نُوب الأيام وسراياها المنبثّة غير الصمت، فتدبّر.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
برولوج	٧
الجزء الأول	١٩
الجزء الثاني	١٤٣
الجزء الثالث	٢١٩
الجزء الرابع	٢٨١
إبيلوج	٣٥٧

مدونة رفايع

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ – دجلة – المعادي – ١١٤٣٢ – القاهرة.

تليفون:٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

بريد اليكتروني:info@kotobkhan.com

موقع اليكتروني:www.kotobkhan.com

من هو نجيب سرور؟. هل هو مبدع عبقرى، على طريقة جون جنيه أو نيكولاى جوجول، تنكرت له الأخلاقيات والأعراف الثقافية التى لم تتحمل مروقه؟. أم هو ضحية من ضحايا الاستبداد السياسى والرعب التاريخى الذى بثته أجهزة عبد الناصر فانتصرت على أبنائها وهُزمت من أعدائها؟. أو لعله مجرد كاتب موهوب تنكرت له الأقدار، وأذلته الظروف، وتواترت عليه الخطوب والمِحن!. ومهما يكن الأمر فنجيب سرور لم يكن مجرد عابر سبيل. إنه ينتزع - وببساطة مذهلة - أقنعة الزيف عن حقبة لاتزال بعيدة عن فضيلة النقد الجاد والحر.

وما يحاوله طلال فيصل فى هذا العمل أكثر من رواية وأبعد من نقد. إنه يحفر ويُبرز ما هو، ببساطة، أزمة جيل بكامله، ويحكى على لسان سرور حكاية العفن الأخلاقى الذى أخفى وجه مصر فى تلك الفترة، يحكى عن الثقافة التى تخون نفسها، والمرأة التى تخون عقلها قبل أن تخون حبيبها. ولا غرابة، بعد ذلك، أن يُنسى نجيب سرور فتلك شيمة كل ثقافة ترغب عن النهوض، وترغب فى السُبات.

ISBN 978-977-6306-23-3
9 789776 306233

مدونــــــة رفايـــــع